

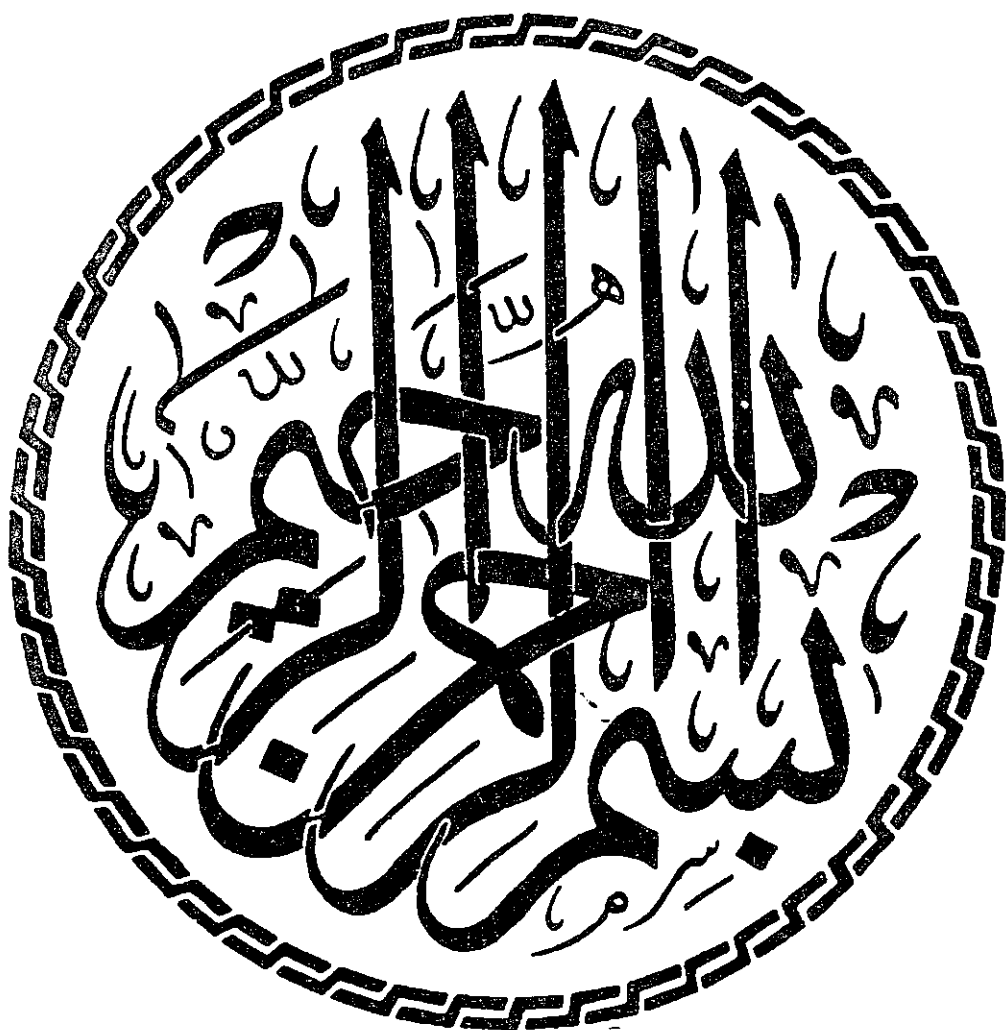
مركز صالح عبد الله كامل
للاقتصاد الإسلامي
سلسلة الدراسات والبحوث
(٢)

الأخلاق
في الاقتصاد الإسلامي

للمستشار
عبد الحليم الجندى

المؤلف

* الرئيس السابق لهيئة قضايا الدولة - جمهورية مصر العربية
* رئيس لجنة التعريف بالإسلام - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
* عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف
* عضو مجمع الفقه الإسلامي بجدة
* عضو مركز الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

يقتضى الوصف الإسلامي لموضوع هذا الكتاب أن نبدأ بما بدأ به الله تعالى وحيه وهو العلم وبما وصف به نفسه الملك القدوس السلام. ودينه دين السلام لكل العالم.

وكان طبيعياً أن تتضمن بعض دساتير الدول الإسلامية أن الإسلام دين الدولة وأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع، وأن يتتابع رؤساء الجمهورية في مصر على التذكير بهذه الخصيصة كمعلم من معالمها، ويرسم الرئيس جمال عبد الناصر في كتاب (فلسفة الثورة) صورة دوائر لسياسة الدولة مصرية وعربية وإفريقية وإسلامية، ثم يقدم كتاب العدالة الاجتماعية وحقوق الفرد سنة ١٩٥٤ ويقول: "إن الحل الأول لمشكلة الفرد والجماعة قد جاء به الإسلام".

"ونقف نحن العرب والمسلمين في هذا الجانب من العالم نشهد الصراع الذى يدور بين هذه المذاهب المادية والمبتدعة، ونرقب المعارك الناشبة بين الشعوب وحكوماتها حول تلك المذاهب، فنعجب أشد العجب، لأن مشكلة الفرد والجماعة التى حيرت بال المفكرين والفلاسفة في أوربا من قرنين أو قرون قد وجدت الحل الصحيح في بلادنا من ألف وثلاثمائة سنة، منذ نزل القرآن على محمد بن عبد الله يدعو إلى الأخوة الإنسانية ويفصل مبادئ العدالة الاجتماعية على أساس من التراحم والتكافل الأخوى، والإيثار على النفس في سبيل النفع العام للجماعة من غير طغيان على حرية الفرد، ولا إذلال له ولا إنكار لذاتيته

﴿إن ا لله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى..﴾.

"فليكتف المفكرون بما بذلوا من جهد ولا يبحثوا عن حلول أخرى لمشكلة الفرد والمجتمع.

"إن عندنا الحل .. الحل الأول .. الذى نزل به الوحى على نبينا منذ ألف وثلاثمائة سنة .. هو الحل الأخير لمشكلة الإنسانية".

وعندما حاولت جيوش انجلترا وفرنسا وإسرائيل غزو مصر سنة ١٩٥٦ رأيناه، يستنهض الأمة للحرب وهو على منبر الأزهر الشريف.

وفي عام ١٩٧١ أصدر الرئيس السادات دستور مصر الحالى وفي النص الأول منه أن مصر جمهورية عربية والشعب المصرى جزء من الأمة العربية يعمل لوحدتها الشاملة، وفي نص المادة الثانية أن الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية ومبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع، ثم ازداد النص توكيداً بتعديل دستورى جرى عليه إستفتاء عام للأمة جعل الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى.

والرئيس حسنى مبارك دائب على استنهاض قوى الأمة وتعميق رقعة التربية الدينية والتمكين للغة العربية وإصلاح أحوال التعليم والمعلمين وهو حرص على الإسلام يتكرر إعلانه في الكثير من المناسبات العامة والخاصة.

ومن ذلك قوله لأعضاء مؤتمر الدول الإسلامية سنة ١٩٩٤ وفيهم ملوك الدول ورؤساؤها ووزراؤها وممثلوها، وقد نيفت على خمسين دولة:

"إن التحديات أمامنا خطيرة والمسئولية التى نحملها جسيمة غير أننا لا تملك أن نفرط في أداء هذا الواجب وحمل الأمانة في سبيل الله والأمة.

لا نملك إلا أن نتقدم الصفوف ونتصدر الركب ونتحمل المسئولية حتى نسلم الراية إلى الأجيال القادمة عالية خفاقه تنحنى أمامها أعتى الجباه.

لا نملك سوى أن ننصر الإسلام ونذود عنه في مواجهة هذه الأخطار المحدقة من الداخل والخارج، فهو سندنا وملاذنا وهو عقيدتنا الخالدة وهو نبع حضارتنا.

لا نملك إلا أن نعمل ما ملكت أيماننا لتحويل الفرقة إلى وحدة والتنازع إلى توافق وتضامن والتناحر إلى تعاون وتكامل ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾".

× × × × × ×

ويقتضي الوصف الإسلامي لموضوع هذا الكتاب أن نتأخى المنهج القرآني الذى قعدته أصول الفقه وصيرها العلماء أصولاً للفكر. فأفادت الدراسات كل الفائدة من استقراء الواقع والاستنباط منه على مدى قرون خمسة عشر وعلى وجه كرة الأرض حيث الحرية والمساواة والعدالة وطن للجميع من مسلمين ومسيحيين ويهود ولكل منهم في وطنه نصيب. وبازدهار الحضارة ازدهرت الصناعة والزراعة والتجارة حتى بلغت أقصى الأرض ما بين المحيطين الهادى والأطلسى أي شرق آسيا وغرب أوربة وفي أفريقية، وما تزال ساطعة الأضواء في كل الأرجاء لم تنل منها ما نتا عام من تجييش "الصليبين" جيوشهم على أرض الإسلام لاقتلاعه من جذوره من قرون تسعة مضت، كما لا تنال منها ترهاتهم في هذه الأيام.

وعلى هذا كانت "تطبيقات" الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وتطبيقات الأئمة من بعده هى المادة الأولى للكتاب الحالى، والاقتصاد في الإسلام كالتجارة عمل وسلوك نبيل دخلت بهما كثرة الأمم في الإسلام.

وكذلك كانت الأبواب الواردة في الجزء الأول من هذا الكتاب أبواباً تبادرنا بها إلى الجواب في موضوعه. فالأول خاص بالعلم والسلام لكل العالم وبالاقتصاد الإسلامي، والثانى بعنوان بين العقيدة والتطبيق الدقيق، والثالث

خاص بحرية السوق وسعر السوق وتدفق السلع، والرابع خاص بالتجارة الخارجية وبالربا.

وأجلنا إلى الجزء الثاني خصائص الإسلام التى أبلغت ازدهار المسلمين أوجه.

والرسالة الإسلامية رسالة للبشر كافة، والزمان كله في خدمتها، والله تبارك وتعالى قد وعد بنصرها على الدين كله، والمسلمون من دينهم على يقين.

x x x x x x

وفي الجزء الثانى جمعنا بين بابين هما الأول والثانى ليرى القارئ أسباب السمو ثم أسباب الهبوط، ويرى الأسباب الأخيرة مسلطة عليه ليرجع القهقرى في خصائص مجتمعه وشريعته، وافدة مع الغزو العسكرى على مدى القرنين الأخيرين من التاريخ الميلادى وهما يبدءان من العامين الأخيرين للقرن الميلادى الثامن عشر ومع الجيش الغازى جيوش من الغزو الفكرى لكل مرفق من المرافق تنزح الأموال إلى خارج أرض المسلمين وتفسد أسباب التقدم ولا تعبأ بالتعليم وتغلب مصالح الأجانب على المصريين، وتحاول تدويل مصر أو تفرض الحماية عليها، ومع ذلك ضربت مصر الأمثال للعالم بتحطيم قيود الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الأولى بثورة سنة ١٩١٩ وكررت انتصارها على الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الثانية بثورة سنة ١٩٥٢ وبمصر اقتدت دول العالم الثالث كافة وبانتصار العاشر من رمضان ١٣٧٣هـ (أكتوبر ١٩٧٣م) يبدأ العصر الجديد.

﴿إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾[1].

---

(1) سورة الطلاق ، الآية ٣

الأخلاق

في الاقتصاد الإسلامي

الجزء الأول

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾

قرآن كريم: سورة النور آية : ٥٥

أبواب الجزء الأول

الباب الأول: (الإسلام دين العلم والسلام لكل العالم)

الفصل الأول: الإسلام دين العلم والسلام لكل العالم.

الفصل الثانى: في الاقتصاد الإسلامي والأخلاق.

الباب الثانى: (بين العقيدة والتطبيق الدقيق)

الفصل الأول: بين العقيدة والتطبيق الدقيق.

الفصل الثانى: التجارة بين الله والناس.

الباب الثالث: (في التجارة وحرية السوق وسعر السوق)

الباب الرابع: (في التجارة العالمية والربا)

الفصل الأول: التجارة العالمية.

الفصل الثانى: الربا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

الفصل الأول

الإسلام دين العلم والسلام لكل العالم

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط﴾[٢].

(لقد سبق للعرب أن فاقوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم نحو ألفى سنة قبل أيام اليونان والرومان، ثم في العصور الأخيرة، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم في المستقبل القريب أو البعيد)

جورج سارتون

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٨

الفصل الأول:

الإسلام دين العلم والسلام لكل العالم

لا يستطيع فهم المجتمع الإسلامي ودولته وانتصاراته وازدهار اقتصادياته من لا يعرف خصائص الدين، وفي هذا الباب زُمَر تذكر بها، نرجو أن تكون من مفاتح الطريق.

المبحث الأول:

الإسلام دين العلم

ولد الإسلام في العلم، ومنه أدلته وحججه على خصومه، وشريعته التى سادت بها الحضارة من ألف وأربعمائة عام، وستسود بها كل حضارة تتغيا رفعة شأن الإنسان، بالعلم والحرية والمساواة والعدل والتعاون بين البشر، والسلام لكل العالم.

بدأ الله تعالى وحيه بالعلم ليكون أساسا لرسالته الخاتمة الدائمة وأنزل القرآن تبيانا لكل شيء، وأرسل رسوله ﷺ مبلغا له، ووعده بالنصر على الدين كله، وهو – جل ثناؤه – أول المعلمين ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾[٣] ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة﴾[٤].

وهو –سبحانه– القائل: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط﴾[٥].

---

(٣) سورة العلق ، الآية ٥

(٤) سورة البقرة ، الآية ٣١

(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٨

وكان رسوله – عليه الصلاة والسلام – يقول "بعثت بالعلم"[٦] ويفتح أبواب العلم لأمته بقوله: "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع" وقوله "قليل العلم خير من كثير العبادة" وقوله "من ظن أن العلم له غاية فقد بخسه ووضعه في غير منزلته التى وضعه الله فيها".

وبالتعليم النبوى والأسوة الحسنة صار أصحاب الرسول معلمين للأمة، وأصبحت بيوتهم معاهدها، وأبناؤها أساتذتها كالعبادلة الأربعة وكحميد بن عبد الرحمن، ومن العلماء من كانوا موالى أمهات المؤمنين..

وكان حقا للعلم الإسلامي أن يكتب الخلود له بمنهج قرآنى يحمل أعلامه ويطبق أحكامه قوم يعرفون حقيقة الخلق وقدرة الخالق، وتعمل به الحضارة في كل العصور.

في أول وحى نزل قال – تبارك وتعالى – لرسوله **﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾**[٧].

---

(٦) الأحاديث الواردة في هذا الكتاب واردة بنصها أو بمعناها في كتاب جامع الأحاديث للإمام السيوطى، وهو علامة القرنين التاسع والعاشر الهجريين، وعمدة جامع الأحاديث الكتب الستة وموطأ مالك ومسند الإمام أحمد وصحيح ابن حيان ومسند الإمام الشافعى نحو ثمانين كتاباً أخرها من مصنف عبد الرزاق بن همام وابن أبى شيبة والترغيب لابن شاهين. ومسند أحمد وحده يحوى ثلاثين ألف حديث بعد حذف عشرة ألاف حديث مكرره، وفي أجزاء هذا الجامع بيانات عن الأحاديث الموضوعة.

(٧) سورة العلق ، ١ – ٥ وهى آيات خمسة تذكر الإنسان والعلم مرتين والقلم مرة ويجيء بعدها أخرى بأول قسم ﴿نون والقلم وما يسطرون﴾ لتدل أعظم دلالة باجتماعها على أنها تتآخى "حضارة إنسانية" ليكون الإنسان قادراً على التقدم وجديراً بخلافة الله في الأرض.

والقراءة باسم الله الذى خلق الأكوان وعلم الإنسان تقديس لـه سبحانه، وإقرار بتوحيده وبسائر صفاتـه، والاحتجاج لها بـالعلم استناد إلى الحجـة المؤكدة ثم زادها توكيداً أول قسم في القرآن، وهو قسم بـالقلم وبما يسطره، يشير إلى أن العلم أساس هذا الدين.

واستعمال العقل في أول وحى إشارة واضحة إلى أن الإسلام قائم على الحجة، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالاستقراء والاستنباط لتتأدى العقول بالعلل إلى المعلول.

وفي علـوم القرآن والسنة واللغة العربية نُتج كبار العلماء وصارت أصول الفقه أصولاً للفكر الإسلامي كله ابتداء من الفقهاء في الجيل الأول حتى اليوم ومروراً بالجيولوجيين والفلكيين والأطباء والمهندسين والكيميائيين والصيادلة والرياضيين في سائر الأجيال. وبالرياضيات العربية اتسعت العمليات الحسابية لكل الأرقام، ولو بقى العالم على الأرقام اللاتينية لعجز عن العمليات الكبرى مثل حسابات الفلك، وبعلوم الضوء فتح العلم العربى الطريق لجاليليو وكوبرنيق وكبلر وعلماء الكون جميعاً.

وليس غريبا أن نجد عبارات للشـافعى (٢٠٤هـ) من كتاب الرسالة أو كلمات للغزالى (٥٠٥هـ - ١١١١م) وهو أصولى شافعى المذهب نجدها بذاتها عبارات لديكارت (١٦٥٠م) ونجد نظرية الأصنام الأربعة التى أجمل فيها فرنسيس بيكون (١٦٢٥) طريقته كاملة في كتابه (المنطق الجديد) كمثل ما نجد نظرية الشك عند ديكارت وانتقل المنهج الإسلامي بترجمة كتب المسلمين في القرون الخمسة السابقة على حياة هذين العالمين واشتغلت بترجماتها بضع عشرة جامعة أوربية، تعلمت فيها أوربة مناهج المسلمين،

وهى تسميها الآن علم التجربة[٨].

يقول المستشرق نيكلسون عن القرون السبعة الأولى من التاريخ الإسلامي:

(وكان لا نبساط رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل، حتى لقد يرى الناس جميعا من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأناً طلاباً للعلم، أو على الأقل أنصاراً للأدب، وفي عهد الدولة العباسية – القرون الخمسة حتى السابع الهجرى – كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعياً وراء العلم والعرفان، ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المثقفين ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات التى هى أشبه بدوائر المعارف، والتى لها أكبر الفضل في إيصال علوم المدنية إلينا بصورة غير متوقعة).

ويقول روجير بيكون – وقد عاش القرن الميلادى الثالث عشر حتى التسعينات منه، ما يعتبر شهادة عصر بكامله:

(إن وجود الفكر الأوربى والعلم الأوربى كان مستحيلاً لولا وجود المعارف العربية، لقد دعيت أوربة إلى الحياة بعد أن ظلت في ظلمات الجهل خمسة قرون، وهى مدينة للمعارف العربية بكل تقدمها).

بل يقول الملك الإنجليزى الذى كان يحكم نصف أوربة في القرن الحادى عشر عن حضارة الإسلام في الأندلس وعلومها:

(من جورج الثانى ملك إنجلترا والغال (فرنسا) والنرويج

إلى الخليفة هشام الثالث[٩]:

بعد التعظيم والتوقير.

---

(٨) القرآن والمنهج العلمى المعاصر للمؤلف، الباب الرابع طبعة دار المعارف

(٩) حكم من ٤١٨هـ إلى ٤٢٢ (أوائل القرن الحادى عشر الميلادى)

سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم في بلادكم العامرة، فأردنا اقتباس هذه الفضائل لنشر العلم في بلادنا، التى يحيطها الجهل من أركانها الأربعة، وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأمير دوبانت على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز..

من خادمكم المطيع جورج)[١٠]

وظلت كتب الرازى وابن سينا تدرس في جامعات أوربة حتى القرن السابع عشر للميلاد، وصورتاهما معلقتان في كلية الطب بباريس...

ولم يستطع التعصب الأوربى أو الفتك الصليبى أن يطمس الحقائق، حتى إذا خفت شدائد الاستعمار في القرن الحالى قرأنا قول برنارد لويس وهو مستشرق عنيد: إن أوربا في القرون الوسطى تحمل ديناً مزدوجاً للعرب، فهم الوسيلة التى انتقل بها إلى أوربا من العرب طريقة جديدة للبحث وضعت العقل فوق السلطة، ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة، وكان لهذين الفضل الكبير في القضاء على العصور الوسطى والإيذان بعصر النهضة.

---

(١٠) كتاب العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى وأورد المؤرخ التركى عبد الرحمن شرف الدين في كتابه التاريخ العام ما صاحب الخطاب من هدايا الملك إلى هشام الثالث.

المبحث الثانى:

أسماء بعض العلماء من غير رجال الفقه وأصول الدين واللغة وقد بلغ بهم التشريع الإسلامي وفقهه أعلى ذروة:

١- **جابر بن حيان** (١٦١هـ / ٧٧٨م) واضع أسس علم التجربة بتجاربه الكيميائية، والتاريخ يبايعه بأنه أول كيميائى، وفيه قول أكبر أطباء العصور الوسطى الرازى: أستاذنا جابر بن حيان.

٢- **الخوارزمى** (٢٢٥هـ / ٨٥٥م) صاحب كتاب (الجبر والمقابلة) وقد نقل فيلاردى سنة ١٢٢٠ كتاباً له في الحساب سماه (كارمن دى الجورزمى) وترجم كتاب الجبر والمقابلة بوشستر، ولفظ (لوغاريتم) تحريف للخوارزمي. وعن الخوارزمى عرفت أوربة الأرقام العددية وعلامة الصفر، وقد ظهرت في النقوش في إيطاليا فالنمسا فإنجلترا وأسكتلندا، وكان البابا – سلفستروس (١٠٩٨ – ١٠٠٣) ممن عاونوا في ذلك، وهو من تلاميذ قرطبة.

٣- **الكِندى:** (١٧٥ – ٢٥٢هـ/٨٠١-٨٧٨م) له تجارب في الجاذبية الأرضية، ومؤلفات في المرئيات ونشأة الكواكب وتأثيرها على الأرض، وفي مؤلفاته كتب أن "كل ما في الفلك كروى الشكل" – وكتبه في أوربة منذ القرن الثانى عشر.

يقول عنه كاردانو (١٥٧٦): هو واحد من ١٢ عبقرياً ظهروا في العالم. وروجير بيكون يضعه وابن الهيثم في الصف الأول مع بطليموس.

٤- **الرازى الطبيب:** (٢٤٠-٣٢٠هـ/ ٨٦٤-٩٢٥م) يسميه الفرنجة جالينوس العرب والرازى أستاذ التجريب في الطب، تُرجمت كتبه مبكراً لتبقى أسساً للطب ومرجعاً مأخوذاً به، اهتم بالتشريح، واتخذ البطاقة السريرية أساساً للعلاج في مستشفى الدولة، وهو أول من أجرى التجارب على

القردة، وأول من استعمل أمعاء الحيوان لخياطة الجروح، وأول من جعل الغذاء للمريض واجباً لمقاومة المرض حتى لا يحرم المرضى قوة المقاومة؛ ومن أصوله: ما اجتمع عليه الأطباء وعضدته التجربة فليكن إمامك.

٥- **المسعودى:** (٣٤٩هـ/٩٥٦م) فلكى جيولوجى جغرافى مؤرخ أول من أثبت علاقة البيئة بالإنسان، وابن خلدون يسميه إمام المؤرخين، وقد تأثر به.

٦- **الحسن بن الهيثم:** (٤٣٠هـ) بايع له العالم منذ القرن الثانى عشر الميلادى على أنه مكتشف علوم الضوء، وفي القرن السادس عشر ظهر علمه في كشوف الفلك، ألف في الرياضيات ٤٧ مؤلفاً و٨ في الهندسة.

٧- **ابن سينا:** (٣٧٥-٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) فيلسوف. طبيب. جيولوجى. فقيه، ظلت كتبه الطبية تدرس حتى القرن السابع عشر في جامعات أوربة مع كتب الرازى ومنها كتابه القانون في الطب.

٨- **البيرونى:** (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) فلكى. رياضى. كيميائى. طبيعى. موسوعى، "أعلن أن الأرض متحركة حركة الرحى على محورها" وأن "الخلاء في باطن الأرض يمسك الناس حواليها" له كشوف في مقياس محيط الأرض، وفيه قول المستشرق الأمريكى أريوبوب: في أي قائمة تحوى أسماء العلماء يجب أن يكون لاسم البيرونى مكانه الرفيع .. لمساهمته الرفيعة في جميع العلوم.

٩- **الزهراوى:** (٣٢٦هـ/١٠١٣م) طبيب جراح، اشتهرت عملياته ونقلتها المستشفيات الإسلامية في الشرق والغرب.

١٠- **ابن البيطار:** (٦٢٦هـ) له كتب في الأدوية والأغذية ما تزال مراجع العلم الحديث، ترجمت إلى الفرنسية ١٨٨٣ في باريس.

١١- **النيفاشي:** (٦٥١هـ/١٣٢٥م) له تجارب تدرس في الجيولوجيا وله تصنيف للمعادن مأخوذ به للأن.

١٢- **البغدادي:** (٦٤٩هـ) طبيب فقيه، صاحب تجارب خطأ بها جالينوس وأهل الطب من بعده، وأظهرت تجاربه في العقاقير القديمة أخطاء السابقين.

١٣- **ابن النفيس:** (٦٧٨هـ/١٢٩١م) فقيه فيلسوف طبيب، تخرج من الأزهر ودرس في مدارسه فقه الشافعى، كما وضع السيرة الكاملية في السيرة النبوية، ومارس التشريح، وقال عن تجاربه الطبية. إنا نعتمد في تعرف حدود الأعضاء الباطنية على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر خاصة الفاضل جالينوس.. أما منافع كل واحد من الأعضاء فإنا نعتمد على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم، وافق ذلك من تقدمنا أو خالفه.

وقد أدت أبحاثه في (القلب) إلى اكتشاف الدورة الدموية.

وترجمت كتبه إلى اللاتينية وظهرت في إيطاليا ١٥٤٧ وظهرت بعد نشرها مؤلفات ثلاثة سنة ١٥٥٣ وسنة ١٥٣٩ وسنة ١٥٧٩ وتداولتها الجامعات وكانت تنشرها جامعة بادوا حيث كان الطبيب الإنجليزى هارفى يتلقى دراسته، فلما عاد إلى إنجلترا أجرى تجاربه على خيول الملك، وأعلن الإنجليز أنه كشف الدورة الدموية سنة ١٦١٩.

١٤- **الجاحظ:** (٢٥٥هـ/٨٦٨م) أديب، عالم، فيلسوف، جعل التجريب علما وأجرى فيه تجاربه، وشهد للإمام الشافعى حيث يقول فيه: "نظرت في كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في العلم فلم أر أحسن تأليفاً من الفتى المطلبى، كأن لسانه ينظم الدر"، وأصول القياس كما فصلتها رسالة الشافعى عن أصول الاجتهاد تعلن عدم اطمئنان من يجرى القياس إلى

نتائجه إلا بعد تحقيق متكامل لاستبعاد كل الشكوك.

والجاحظ يقول عن الشك: "تعلم الشك في المشكوك فيه تعلما. فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه".

وله قول معروف: "أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى، والدهرية إن كان معاندا فهو آثم، وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور، وإنما الآثم المعذب هو المعاند فقط، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وقد عجزوا عن درك الحق ولزموا عقائدهم خوفاً من الله تعالى إذ استد عليهم طريق المعرفة"، وقد ناقش الغزالى هذا القول في مؤلفين له.

١٥- الغزالى: (٥٠٥هـ/١١١١م) فقيه أصولى شافعى، له كتاب المستصفى فى أصول الفقه، وله كتبه المتداولة الآن في التصوف والأخلاق وإحياء علوم الدين.

ومن أصوله ما جاء في كتابه عن أغاليط النظار حيث قال: "وكثرة أغاليط النظار من التصديق بالمألوفات والمسموعات في الصبا من الأب والأستاذ وأهل البلد المشهورين بالفضل"، وسينقلها فرنسيس بيكون ويعبر عنها بأصنام الفكر الأربعة وفيها فساد اللغة.

ومن أصوله: أن "من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى في العمى والضلال، لأن الشكوك موصلة للحق" وأن "الحقيقة نور يقذفه الله تعالى في الصدور، وهو مفتاح أكثر المعارف"، ومن عباراته ما نجده عند "ديكارت".

وكانت بعض أفكار الغزالى هدفاً لابن رشد يصيبه بردوده، وقد تدخل في هذه المعركة توماس الأكوينى فنقل فصولاً من ردود ابن رشد،

وكان توماس الأكوينى على ثقافة عربية من صلات عائلته بالمسلمين. وما تزال أفكار الغزالي محلا للتقدير عند أهل أوربة وإن غلب ابن رشد.

١٦- وابن رشد: (٥٢٠ - ٥٩٥هـ/١١٢٦ - ١١٩٨م) قاضٍ - فقيه، فيلسوف، طبيب، ما يزال فقهه عمدة القضاء بكتابه "بداية المجتهد ونهاية المقتصد"، وهو يشتهر في أوربة بأنه شارح أرسطو وبتمجيد العقل، وكان تحرره الفكرى من أسباب نهضة الفكر الأوربيى على رغم الكنيسة التى حرمت كتبه، ثم خضعت للرأي العام بعد قرن، وهو يرى العلم طريقاً مؤكداً لإثبات الربوبية، ومن يشتغل بالتشريح يزداد إيماناً بالله تعالى، وأن ثمرات العقل ملك لكل البشر، وأن الحاكم الظالم يحكم الرعية لمصلحته لا لمصلحتها، وأن أفظع الظلم ظلم القساوسة، وأن المراة مظلومة بعدم خروجها للعمل، وأنها تمثل ثلثى سكان المدن، فتعطيلها سبب شقاوة المدن.

١٧- وابن خلدون: (٧٣٢ - ٨٠٨هـ/١٣٢٢ - ١٤٠٦م) قاضٍ. وفقيه، ووزير، كشف بكتاب (ديوان العبر) للعالم علوم الاجتماع وما يتفرع عليها من حقائق التاريخ، وله في السياسة والاقتصاد مذاهب تقوم على الحرية والتزام الشريعة.

المبحث الثالث:

القرآن والإعجاز العلمى في هذا القرن

بدأ في أوائل القرن الحالى كبير الأطباء المصريين عبد العزيز إسماعيل باشا دراساته الطبية، ومن بعده جاء الدكتور الغمراوى وقد تخصص في علوم الطبيعة والصيدلة، ففتح الطريق لفهم آيات القرآن في العلوم الطبيعية

الصريحة، وجرى على غرارهما – في علم الفلك بمصر – الدكتور/ محمد جمال الدين الفندى. كما سجل العلم للطبيب الفرنسى بوكاى مشاركة كبيرة في هذا الشان وتتابعت عناية الأمم بالأمر إذ ترجمت كتابات بوكاى إلى اللغات الحديثة.

وما زال يضاف إليها كشوف عن الإعجاز الطبى أو الفلكى أو الجيولوجى أو الكيماوى أو الطبيعى تزخر بها الآيات الكريمة في أمهات المسائل العلمية كخلق الأكوان، وخلق الإنسان وقوانين الزوجية في الإنسان والنبات والحيوان، وفي كل شيء من الذرة إلى المجرة، وقوانين الجاذبية أو القوانين الفلكية ووجود الماء في كل شيء حى. وغير ذلك من المكتشفات الحديثة، وحفل النصف الأخير من القرن الحالى بالمؤتمرات العالمية والإسلامية الطبية أو العلمية بكشوف عن المسلمات العلمية الواردة بالقرآن الكريم.

وإليك أمثالاً من أعمال الأساتذة الذين سبقت الإشارة إليهم:

أولاً: الطبيب عبد العزيز إسماعيل باشا الأستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة:

قدم لمؤلفه (الإسلام والطب الحديث) شيخ الإسلام الشيخ محمد مصطفى المراغى في الثلاثينات راجياً (أن يحتذى أصحاب النبوغ في فروع العلم شاكلته، كل فيما تخصص فيه لفائدة النابته الحديثة التى نود أن تجد في كتاب الله ما يؤثر على عقليتها من أخص ما تشتغل به في دراستها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً).

حدد المؤلف منهجه في تقديمه لكتابه بقوله (القرآن ليس بكتاب طب أو هندسة أو غير ذلك، ولكنه يشير أحيانا إلى "سنن طبيعية" ترجع إلى هذه العلوم .. فقوله تعالى ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ لا يمكن أن يكون الأولون قد فهموها إلا عن طريق التأويل

المؤدى إلى خضوع كل شيء لعظمة الله، حتى الجماد، مع أن علماء الطبيعة يثبتون الأن حركة دائمة لا تنقطع في ذرات كل شيء تراه العين، ولا تحس به سائر المشاعر.

وقوله – تعالى – ﴿خلق الإنسان من علق﴾[11] شبه الحيوان المنوى بالعلق، مع أنه لا يرى إلا بالميكروسكوب، والعبرة من هذه الأية لم تظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين حتى اكتُشف الميكروسكوب ولا يفهم معناها الحقيقى إلا من درس العلوم الحديثة يظهر له إعجاز القرآن بطريقة أقرب إلى إقناعه من الفصاحة، لأنه عالم ببعض العلوم، وجاهل بالفصاحة.

ثم تصدى لأربع وثلاثين كلية من الكليات العلمية أولها (الحياة تحت ضوء القرآن)، مبيناً (أن كل شيء حى يهلك من الجفاف، ويحيا بالماء، وأن أفضلية المواد المشار إليها هى في نوع المواد الزلالية وكميتها)، وأن هذا (قد ظهر من أبحاث لجنة الأبحاث الملكية بإنجلترا في التقرير الثالث سنة ١٩٣٣م والأخيرة...)

وتحت عنوان (أسرار الصيام الطبية) قال: (للصيام فوائد في ثلاث جهات، أولها وأهمها الجهة الروحية وهذه اتركها لعلماء الدين.. وثانيتها: الجهة الأخلاقية وهذه أتركها لعلماء الأخلاق. وثالثتها وأقلها أهمية: الجهة المادية أو الصحية وهذه محل بحثنا.. فللعلاج يستعمل في ..) وبعد الحديث عن صنوف سبعة من الأمراض يقول: (وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف، وفي مصر يكاد يكون البول السكرى، وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا وقليل جدا من الفقراء، ويغلب على

[11] العلقة: اسم من فعل (العلوق) بالبويضة، وهو أول ما تسعى إليه بدأب نطفة الذكر في رحم الأنثى، وستقرأ تفصيلاً عن خلق الإنسان في (علم الأجنة) في ضوء مكتشفات النصف الثانى من القرن العشرين للميلاد

الظن أن ذلك هو السر في أن الصيام في الإسلام أشد منه في الأديان السابقة، لأن الإسلام.. جاء في زمن نحتاج فيه إلى وقاية من أمراض تزداد كلما زاد الترف..)

وتحت عنوان (الخمر وأضرارها) يخص الكلام بالبحث الطبى لا الاقتصادى أو الخلقى.

ويقول في مدة الرضاعة (إنها يجب أن تكون فوق السنة، ويستحسن أن تكون سنتين كاملتين كالنص في الآية: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ وهى حقيقة يجمع عليها الأطباء الآن.

وتحت عنوان (النوم وضرورته للحياة) يشرح الآية ٢٥٥ من سورة البقرة ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾.

وتحت عنوان (إضرار الربا) الآية ٢٧٨ من السورة يتكلم أيضاً عن الأضرار الطبية تاركاً ما عداها لعلماء التشريع والاقتصاد.

ثم يشرح قوله – تعالى –: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب﴾ فينبئنا أن التفسير الحقيقى هو إخراج الحى من الميت كما يحصل يوميا من أن الحى ينمو بأكل أشياء ميته، فالصغير مثلاً يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره.

وإما إخراج الميت من الحى فهو الإفرازات، مثل اللبن.

وتحت عنوان (حكمة الوضوء وفوائده الطبية) يقول شرحاً للآية ٦ من سورة المائدة: (إنها استجماع للقوى العقلية يهئ النفس للخشوع – كالاستراحة بين محاضرتين – وفوائدها كثيرة من النظافة المتجددة ومقاومة الطفيليات..)

وفي شرح الآية ١٤٣ من سورة الأعراف: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن

استقر مكانه فسوف تراني...﴾.

قال: إن الإنسان تنقصه الحواس التى يرى بها الله - جل وعلا - ولذلك أمر الله - تعالى - سيدنا موسى بأن يرى تأثير القدرة الإلهية في دك الجبل.

وفي تفسير قوله - تعالى - في سورة الأنفال ٦٣: **﴿وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم..﴾** يقول: (قد تكون الكراهة والألفة من "العواطف" الحيوانية المنفعلة التى تنتج من أسباب ظاهرية تتكرر فتحدث تغييرات عضوية في أعضاء الجسم - وخصوصاً المخ والغدد الصماء، وتحدث هذه التغييرات - مع التكرار - أمراضاً عضوية.. ومهما جاهد الشخص في أن يغير من عاطفته لا يفلح..).

وتحت عنوان (التفكير وخلايا المخ) يقول في شرح سورة هود، الآية ٥ **﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾** هذه الآية سهلة الفهم بعد ما تقدمت علوم النفس والتنويم المغناطيسى وغيرها، وظهر جليا أن كل فكرة يقابلها تغيير مخى في الخلايا المخية .. وقد اكتشفت أخيراً أجهزة كهربائية يمكن بها معرفة حالة بعض الخلايا المخية..).

وتكلم عن (القرآن ولقاح الأزهار والنبات) في الآية ٢٢ من سورة الحجر **﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾**. والقرآن يتكلم عن فائدة من فوائد الهواء الذى ينقل نطفة الذكر إلى الأنثى قبل أن يتقدم علم تشريح النبات بقرون طويلة.

كما يتكلم عن (العسل في القرآن والطب الحديث) في قوله - تعالى - **﴿ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب**

مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ (سورة النحل الآية ٦٩).. فبين أن الجلوكوز نسبته في العسل أكثر من أي غذاء آخر، وهو سلاح للطبيب (في أغلب الأمراض) واستعماله في ازدياد مستمر يتقدم الطب، وهو يعطى للمريض بشتى الطرق وفي أمراض كثيرة متباينة، وللتقوية، وضد التسمم من كل المصادر، وللتسمم البولي والكبدى والمعدى، والحميات بأنواعها، وحالات ضعف القلب، والذبحة والارتشاحات وفي احتقان المخ وأدرانه في حين لا يستعمل الغذاء علاجاً إلا فيما ندر من أمراض نقص الغذاء، والفواكه سكرها ليس من سكر العسل ونسبة سكرها ضئيلة وسكر العسل يستعمل مع الأنسولين أحياناً. ودوائر الشفاء بعسل النحل تتزايد باستمرار.

وتحت عنوان (القرآن وبدء الخلق والحياة والموت) بدأ بالآية ٥ من سورة الحج وأعقبها بغيرها من الآيات نيفت على الثلاثين، وقال: (إن فيها جواباً عن الأسئلة الأربعة "بدء الخلق"، "وتطورات الجنين"، "وحياة الإنسان على الأرض"، "وبعد الموت"، "والنشأة الثانية".

ثانياً: الدكتور محمد أحمد الغمراوى (يونيو ١٨٩٣/ مايو ١٩٧١م)

لم يكد يتخرج من مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩١٤م حتى شارك في لجنة الترجمة والنشر أحمد أمين ومحمد خلاف وأحمد حسن الزيات وأحمد زكى باشا (مدير الجامعة).

رجع من بعثة العلوم والصيدلة ثم صار أستاذا في كلية الصيدلة بالجامعة، ثم ألقى دروسه القرآنية في "كلية أصول الدين بالأزهر" ونشر بحوثه في الصحف، وفي مجموعة مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سنة ١٩٧٠م، وبعد وفاته جمع زميله في البعثة د. أحمد عبد السلام الكردانى وكيل وزارة المعارف مقالاته في كتاب سماه (الإسلام في عصر العلم) ثم قدم

الكتاب للقراء الإمام الأكبر الشيخ/ عبد الحليم محمود، وشارك في التقديم الدكتور/ عبد العزيز كامل نائب رئيس الوزراء.

وروى الدكتور الكرداني قول شيخ الأزهر له في الثلاثينات من القرن: (لولا أن لائحة الأزهر لا تسمح بمنح إجازة العالمية لغير الخريجين لمنحناك الإجازة الفخرية).

وفي عام ١٩٦٠ دعى إلى السعودية ليؤسس كلية الصيدلة بجامعة الرياض، فأسسها وتولى التدريس فيها وعمادتها لمدة ثلاث سنوات.

وعهد الأزهر إليه بالتدريس في كلية أصول الدين، في عهديها القديم والحديث، وفي السنوات الأخيرة كان يدرس لطلبة الدراسات العليا بالكلية ذاتها.

ثم طبعت له لجنة التأليف والترجمة والنشر بعض المحاضرات في سنن الله الكونية في تفسير الآيات الكونية ومقارنتها بأحدث الحقائق العلمية، قاصدا بيان أمور منها

١- موافقة أحدث الحقائق العلمية للقرآن.
٢- التنبؤ في كثير من الآيات بما ظهر من "حقائق" علمية.
٣- إن القرآن يخاطب الناس على قدر عقولهم دون مخالفة للحقائق العلمية حتى إذا قيض الله لبعضٍ أن يفهموا "حقائق" حديثة وجدوها صريحة في القرآن ذاته.

وحفلت مجلة الأزهر من قديم بأبحاثه، ومنها سلاسل تحت عنوان (دلالة القرآن على نفسه أنه من عند الله) (والسماء في القرآن وفي العلم) و(الجبال في القرآن) ودونت للطلبة في كراستين، واحدة بعنوان "إسلاميات" والأخرى بعنوان (سنن كونية).

أضاف الدكتور الكرداني أنه أرسل بعض ما جاء بهذا المجهود إلى

صديق له بأمريكا، قائلاً: (لقد أعزنى الله فوفقنى إلى اختيار نماذج من الآيات المتضمنة طرفاً من الإعجاز العلمى للقرآن، وترجمتها إلى "الأنجليزية" وأهديتها للسيد صلاح الضرير مدير المركز الإسلامي بمدينة برمنجهام بولاية ألاباما الأمريكية، فطبعها ونشرها هنالك).

يقول الدكتور الغمراوى في كتاب (الإسلام في عصر العلم) صفحة ١٦١:

(فلو قدر للإنسانية أن تفحص الأديان بعقلية علمية لما وجدت غير الإسلام دينا يثبت للفحص العلمى، إذ ليس غير الإسلام دين بقيت معجزته إلى اليوم، وتبقى إلى ما شاء الله، لتكون موضوع بحث وامتحان وفحص...)

ويقول في صفحة ١٦٨: (فتعدد نواحى الإعجاز في القرآن معجزة، بل كثيرا ما يكون بعض الآية معجزاً...).

ويستطرد في وجوه إعجاز بالعشرات تتفرع عليها أمثالها، ونقف قليلاً عند وجه "عظمة القرآن مهيمنا على الكتب قبله"، حيث يذكر قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾[١٢].

ويقول في صفحة ١٨١: (وأمثلة هيمنة القرآن على التوراة كثيرة، خصوصاً في سفر التكوين[١٣]، ففيه أمور كثيرة يصححها القرآن، منها أن حواء هى التى حملت آدم على الأكل من الشجرة، وأن الذى وسوس لحواء وحملها على الأكل من الشجرة قبل آدم هى الحية.. ولكن القرآن لا يذكر

(١٢) سورة المائدة ، الآية ٤٨.

(١٣) أول أسفار التوراة وهو في نيف وثمانين صفحة، وخمسين إصحاحا، وسنعرض لبعض ذلك منقولاً من الكتاب الأشهر للدكتور/ بوكاى

الحية، ولا يحمل حواء وزر البدء بالأكل من الشجرة خلافاً لما أمر الله، بل مفهوم آية سورة طه أن آدم هو الذى اقتنع أولاً بالأكل طلباً للخلود بإغواء الشيطان وتزيينه، وأن زوجه - ولم تذكر باسمها قط في القرآن - فهى على أسوا تقدير أكلت معه إن لم تكن أكلت بعده.. (سورة طه ١٢٠) والشيطان وسوس إلى زوج آدم ايضاً (سورة طه ١٢١، ١٢٢) لكن ليس في القرآن الكريم آية تخص زوج آدم بالوسوسة أو تنسب الوسوسة والإغراء بالشجرة إلى غير الشيطان فالقرآن في هذا المثل مهيمن على التوراة ومصحح لما جاء في سفر التكوين، ومنقذ للمرأة مما نسب إليها).

واستطرد لتصحيحات أخرى خطيرة خطر اتهام حواء[١٤].

وسنكتفى الأن بعجالة وجيزة مما أفاض فيه المؤلف، نختار منها ما ورد في الكتاب الرابع "من كتب" هذا المؤلف، بعنوان (من الإعجاز العلمى للقرآن)، وهذا الكتاب وحده في مائتى صفحة يبدأ من ص ٢٥٥ وينتهى ص ٤٥١ وفيه وحده فصول خمسة تكفينا هنا لإدراك ما في سائر الكتاب:

الأول: (القرآن والعلم) والثانى: (في تفسير الآيات الكونية في القرآن) والثالث: (الجبال في القرآن) والرابع: (السماء في القرآن) والخامس: (الظواهر الجوية في القرآن) والسادس: (مخترعات العلم والقرآن).

في الفصل الأول يقول:

إن الإعجاز هو (تجديد للرسالة الإسلامية، كأنما رسول الإسلام قائم في كل عصر يدعو الناس إلى دين الله ويريهم دليلاً على صدقه.. يعجز الإلحاد

---

(١٤) انظر كيف ترتب على هذا الخطا على مدى عشرين قرناً عند أصحاب الديانات غير الإسلام، كره المرأة إلى نفسها وإلى الخلق وتدنيسها، حتى جاء الإسلام ليعوضها عما سلف عليها من ظلم، فيرفع الإصر عنها ويسويها بالرجل ويحيطها بمزايا خاصة وبمعاملة يضرب المثل بها في الاحترام والإنصاف. والمرأة نصف الناس.

عن التشكيك فيه إلا أن يتبرأ من العقل، فإن الحقيقة العلمية التى لم تعرفها الإنسانية إلا في القرن التاسع عشر والعشرين مثلاً والتى ذكرها القرآن لابد أن تقوم عند كل ذى عقل دليلا محسوسا على أن خالق هذه الحقيقة هو منزل القرآن..).

ويقول: (ينبغى ألا نفسر كونيات القرآن إلا باليقين الثابت من العلم.. إن الحقائق هى سبيل التفسير الحق، هى كلمات الله الكونية، أي: قوانينه، يجب أن تفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية).

يبدأ المؤلف بما بدأ به المصحف الشريف ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ويقول (والجديد هنا أنه أيد وجود عوالم أخرى بما أشار إليه (فصل الحياة في العوالم الأخرى) للفلكى الإنجليزى (جونز) وأضاف عن معجزات خلق السموات والأرض: أول ما يطالعنا آيات في سورة فصلت تتعلق بالموضوع (الآيات من ٩ – ١٢) عن خلق الكون: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة ايام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وز ينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾ وأتبعها بالآية ١٢ من سورة الطلاق ﴿الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن..﴾ وأتبعها بالآية ٣٠ من سورة الأنبياء ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما﴾ وانتهى في هذا البيان إلى وجود حقائق هى معجزات بقينية يستيقنها العلم الآن. منها:

١- تعدد العوالم فلكيا.

٢- دخانية السماء في البدء. ٣- انفصال الأرض عن السماء.

ولو عاش المؤلف بضع سنوات لرأى الإنسان ينفذ إلى السماء، وينزل على أرض القمر، ويعود بقطع من أرضه يجرى تحليلها فيظهر أن مادتها كمادة الأرض.

وأورد المؤلف بيان المعجزات عن دوران الشمس والقمر تحت عنوان (القرآن والعلم) الآية ٣٨ من سورة يس: ﴿**والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ وذكر أنها تجرى فعلاً بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية في اتجاه مخصوص كما ثبت علمياً في العصور الأخيرة[١٥] وعلى هذا النحو

(١٥) نزلت سورة يس بمكة، والإسلام في أول عهده والمسلمون قلة، وعنها يقول رسول الله - ﷺ - كما يروى صاحبه أنس بن مالك "إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن سورة يس" ومن مأثور القول: إن من قرأها يبتغى بها وجه الله - ﷻ - غفر الله له كأنما قرأ القرآن اثنتى عشرة مرة..

والقرآن يظهر في كل يوم معارف غضة حسبما يهدى الله بعلمه قارئه أو سامعه، ومنها الاجتماعى حيث الفضائل مسيطرة، فإن قلت أو ندرت تأخر المجتمع، ومنها العلمى، والعلم رافد ضخم من روافد التقدم ومن ذلك يفاجئ الكتاب الكريم عصور التقدم العلمى بما شاء الله - تعالى - أن يظهر عليه البشرية من علوم لا تقدر على إدراكها إلا إذا بلغت درجة خاصة، ومنها الزوجية في الأشياء ودوران الفلك والجاذبية الكونية، ويظهر لنا الآن في العلوم حيث المخلوقات التى نشأت بها عوالم النجوم والكواكب، ومنها الشمس والقمر، وقد تقدمت علوم الفلك باكتشافات كوبرنيق وكيلز وجاليليو من قرون ثلاثة حتى استقرت على حقائق سبقت بتأكيدها آيات القرآن..

ومن أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن بدأ العالم مرحلة كشف (حول الإنسان وخلقه)، وظهر لهم أن خصائص خلق الإنسان قد صرحت بها آيات القرآن بالعشرات، وفصلتها في أصلاب الرجال والنساء إلى الزواج والحمل والولادة، وبهذا عرف البشر السند الإلهى لخلق السموات والأرض وما بينهما، ونشاط النجوم والكواكب في=

يستمر سائر الكتاب.

يقول الدكتور الغمراوى في الفصل الأول من الكتاب الرابع – وهو فصل يقع في مائة صفحة –: (والواقع أن موضوع إعجاز القرآن لا يزال بكرا برغم ما كتب فيه) جاء علم الفلك الحديث فبين أن المجموعة الشمسية التى نحن فيها ليست في عالم المجرات شيئا مذكوراً، فثمة عوالم من مجرات أخرى تعد بالملايين.

وتكلم عن خلق السموات والأرض، فهذه سموات وأرضون وبنيان بعد بنيان، وفي سورة يس آيات كل منها تخص حركة نجم كالشمس أو كوكب كالقمر أو الأرض لها دورة حول الشمس بالقمر، ومثلا آخر من مواقع النجوم، وآخر من إدبار الليل.

=الأفلاك والإنسان والنبات والحيوان والجمادات... وفي سورة يس ٨٣ آية منها ٨ آيات متتابعة تحوى أعظم الأسرار لأعظم الأجرام المعلومة لنا من الآية ٣٣ إلى الآية ٤٠، والآية ٨٠ من السورة تحوى معجزة علوم لم يفطن لها العالم إلا في العصر الأخير، أما الثمانية المتتابعة فتعلن لنا.

١) أنه تعالى يخلق النبات – وفيه حياة – من الأرض التي ليس لها روح.

٢) ويفجر منها العيون والجنات التى يحيا بها الناس.

٣) أنه سبحانه خلق – ويخلق – من كل شيء زوجين سواء النبات أو الإنسان أو مما لا يعلم الناس من أشياء. (٤) وأن الظلام في الكون أصل وأن النهار ينسلخ منه. (٥) وأن الشمس تجرى في فلكها. (٦) وأن القمر يجرى في منازل شتى حول الأرض ومعها وحول الشمس. (٧) وأنه تعالى قدر لكل جرم فلكه. (٨) وفي الآية ٨٠ يعلن أن الشجر الأخضر – وحده – هو الذى تشتعل فيه النار.. وهذه الآيات الكريمة لا تزيد عن محتويات صفحة واحدة؟!! وفيها معجزات بالعشرات عن الأكوان من أرضين وسموات وشمس وقمر!! ومن الماء كل شيء حى، وفي الإنسان مالا حصر له من معجزات.

ويستمر تعداد المعجزات الفلكية والجيولوجية وما إليها ويضيق المقام من عرضها واحدة واحدة.

وسترى الطبيب الفرنسى بوكاى يستأنف بحوثاً أكثرها في حدودها ذاتها.

وكان الإمام محمد عبده - كما فصل الدكتور الغمراوى - يؤكد حقيقة (الجاذبية الكونية) في تفسير الجاذبية العامة حيث قوله - تعالى - عن السماء إنه رفعها (بغير عمد ترونها) وما هى إلا جاذبية النجوم والكواكب في العالم.

ونبه الغمراوى على أن بالقرآن (٨٠٠) ثمانمائة آية يتوقف على فهمها تيسير الدعوة إلى دين الله في هذا العصر كحديث البصمة التى لاتتكرر في البشر.

ثم يتطرق إلى باب تال يعقده (للجبال في القرآن) فهذه عشرات من الآيات تحتوى على معجزات، ومنها امتداد الأرض، ومنها وتدية الجبال وإرساؤها، والجبال من قاع المحيط ومن تحته والجبال في حركة الأرض، وفي فصل تال يتكلم عن حقائق السماء في القرآن.

وفي كل سماء (تسبح) أجرام السماء وينتقل إلى الظواهر الجوية في القرآن: من سحاب، ومطر، وكهرباء الهواء وشحناتها، والبرق والرعد، والصواعق وتلقيح الرياح وعملها في حدوث المطر.

وينتقل إلى النبات والحياة في النبات، وفي الحيوان، وعن أصل الخضرة في الشجر لحدوث النار، ويشير إلى الآية ٨٠ من سورة يس.

وفي فصل تال يتكلم عن القمر الصناعى ومخترعات العصور التى تندرج جميعا تحت نصوص الله في كتابه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[١٦].

---

(١٦) سورة الأنعام ، الآية ٣٨

ثالثاً: الطبيب الفرنسى بوكاى:

أولاً: للطبيب الفرنسى كتابان عظيما الشأن باللغة الفرنسية في هذا المضمار.

أولهما بعنوان: (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، واسمه الفرنسى (الكتاب المقدس والقرآن والعلم) ١٩٧٦م، سلك فيه مسلك الغمراوى في تفسير (أيام الله) كمراحل (لخلق الكون) وقد اعتمد على نص القرآن على أن من أيام الله ما يقدر بخمسين ألف سنة وبهذا تصبح الأيام الستة ٣٠٠ الف سنة وبه يصح تفسير انشقاق السموات والأرض وظهور المخلوقات من نبات وحيوان وإنسان. كما تناولت أبحاث بوكاى.

١- خلق الإنسان.
٢- أن العالم يتسع ويتمدد.
٣- أن الكون كروى دوار.
٤- أن وحداته منجذبة إلى ماتدور حوله بنظام لا يحتمل أي خلل.
٥- أن الشمس تجرى لمستقر لها، والقمر يجرى في فلكه حول الأرض، وأن الأرض كرة تدور حول نفسها وحول الشمس، ومن ذلك النور والظلام، وأن الظلام هو الأصل.
٦- أن الجاذبية الفلكية والأرضية تحكم الصلات بين الأفلاك وبين الأشياء بغير عمد يراها الناس.
٧- أن الزوجية قائمة في كل شيء كحقيقة كونية – من الذرة إلى المجرة – الإنسان والحيوان والنبات، وفيما لا نعلم من الأشياء.
٨- أن سنن الله مطلقة، من اتبعها ظفر، ومن خالفها خسر، وهى سنن تجعل كل شيء في موضعه من موازين الله، لا يملك أحد لها تبديلا.
٩- أن الماء ضرورة للحياة.
١٠- أن نسبة الماء على وجه الأرض ضرورة للتوازن، ولإحداث دورة

الماء العذب الذى تحتاج إليه الحياة.

١١- للجبال والمحيطات والرياح والأنهار والبحار أدوار أساسية في تطويع العناصر لتيسير الحياة وضبط المسار.

١٢- غزو الفضاء. ١٣- أصل الحياة. ١٤- النبات.

ثانيهما: كتاب بعنوان: ما أصل الإنسان؟ وعمر الحياة الإنسانية (التناسل الإنسانى في القرآن)(١٧).

وتُرجم الكتاب الأول من الفرنسية إلى الإنجليزية والعربية والتركية والفارسية والصربوكرواتية والأندونيسية والأردية والكرواتية، وطبع حتى ١٩٨٥ م اثنتى عشرة طبعة.

وأعقب هذا الكتاب بكتاب (ما أصل الإنسان؟).

ناقش في الفصل الثالث منه إجابة الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل).

وناقش في الفصل الرابع (أصل الإنسان والتحولات التى طرأت عليه وتناسله وفقاً للقرآن).

وقال في تقديمه لكتابه هذا: (إن ما جاء بالقرآن عن بيان أصل الإنسان سوف يثير دهشة كثير من الناس تماما كما أدهشنى أنا أيضاً حين اكتشفته أول مرة، وفوق ذلك فإن مقارنة النصوص القرآنية والتوراتية والإنجيلية تكشف عن ذلك بسورة أوضح، فكلاهما يتحدث عن الله الخالق، إلا أن التفصيلات التى أوردتها التوراة في وصف الخلق - وهى غير مقبولة علميا - لا وجود لها في القرآن، أما القرآن فيحتوى حقا على آيات بينات عن خلق الإنسان تدعو إلى العجب وإعمال العقل، ويستحيل تفسير هذه المعلومات بالمنطق البشرى إذا وضعنا في اعتبارنا مستوى المعارف التى كانت سائدة وقت نزول

(١٧) ترجمة مكتب التربية العربى لدول الخليج

القرآن، أما بالنسبة للغرب فلم يسبق له أن تناول هذه الآيات البينات التناول العلمى حتى التاسع من نوفمبر ١٩٧٦م وذلك حين قدمت إلى الأكاديمية الطبية الوطنية الفرنسية بحثاً عن المعطيات في كل من علم وظائف الأعضاء، وعلم الأجنة التى عرض لها القرآن منذ ١٤ قرناً سبقت الاكتشافات العلمية الحديثة[١٨]....).

وقال في خواتيم الكتاب تحت عنوان (تطور الكائنات الحية حالة خاصة داخل التطور العام للكون)[١٩].

(وقد كيف قساوسة المعبد المقدس المفهوم البدائى للخلق مع أغراضهم الخاصة عند كتابة النسخة الكهنوتية في القرن السادس قبل الميلاد، فنمقوا قصصهم بتفاصيل ثبت فيما بعد زيفها وخرافيتها.. وقد وصل القرآن إلى الإنسان في القرن السابع بعد الميلاد، وهو يشير إلى خلق العالم وظهور الإنسان على الأرض.. فلا توجد في القرآن الأخطاء الموجودة في التوراة، فهو يقدم معلومات معينة تعتبر اليوم مفاجأة لأناس كثيرين في الغرب).

وفي ص ١٣٦ من كتاب: (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) طبعة دار المعارف لبنان ينبىء الدكتور بوكاى القارئ نبأ (وثيقة صادرة عن سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين) توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين في الطبعة الثالثة لها عام ١٩٧٠ فيها ما يلى:

"علينا أن نهتم أولا بأن نغير تدريجياً من عقلية إخواننا المسيحيين، فذلك قبل كل شيء.".

"ويجب التخلى عن الصورة البالية التى ورثنا الماضى إياها، وشوهتها الفريات والأحكام المسبقة".

---

(١٨) ص ٢١

(١٩) ص ٢٢٩ – ٢٣٠

"كما يجب الاعتراف بالمظالم التى ارتكبها الغرب المسيحى في حق المسلمين".

وفي ص ١٤٠ يذكر أن الإسلام "إلى جانب أنه يدعو إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم فإنه يحتوى أيضاً على تأملات عديدة خاصة بالظاهرات الطبيعية، وبتفاصيل توضيحية تتفق تماما مع معطيات العلم الحديث".

ويقول في الصفحة ١٤٤ : (لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن دهشتى العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع، ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة).

ثم يقول في ص ١٤٤: (وسأظل مديناً بالعرفان – وبشكل لا حد له – للمغفور له جلالة الملك فيصل[٢٠] الذى أحيى ذكره باحترام عميق سيظل

(٢٠) كان الملك فيصل بن عبد العزيز ١٣٨٣ الى ١٣٩٥هـ/١٩٦٤-١٩٧٥م عالما ورجل سياسة في أعلى درجة، قرأ القرآن على جده لأمه قاضى قضاة نجد عبد الله بن حسن حفيد الإمام محمد بن عبد الوهاب وحيى حياة زاهدة لا طاقة بها للملوك فكان رجل عالمين عالم الدنيا، وعالم الدين، وإليه يرجع الفضل فيما بلغته المملكة، وكان عونا على النهضة المعاصرة للجامعات بالمملكة، وبالصناعات والزراعات، وتعليم المرأة، وجالد الأمم الأوربية مجالدة رجل تُتج في السياسة، وكان من قواد أبيه، مدة حكمه، وفي يده جادت السماء على المملكة بكشوف بترولية هائلة.

والشهادة للملك من الدكتور بوكاى تذكرنا بأنه كان عليما بما أوجده الدكتور الغمراوى في مصر ثم في المملكة من علوم القرآن، وكان كبار العلماء في الفقه من علماء الأزهر والسياسة من الدول العربية في حاشية الملك، وما يزالون مستشارين للمملكة، منهم الدكتور الدواليبى من أساتذة الشريعة الإسلامية، وهو رئيس سابق للدولة في سوريا، وأستاذ سابق للشريعة الإسلامية في جامعة دمشق وهو الآن عضو بمجمع الفقه الإسلامي بجدة وكان أحد القطبين في مؤتمر الفقه الإسلامي بباريس سنة=

=١٩٥١ كما سيرد ذكره بالباب الرابع في بحث الربا.
واستقراء نصوص القرآن وتفسيرها في عمل الدكتور الغمراوى حصاد حياة بتمامهـا، في بيئة قرآنية يقول عنهـا د./ الكردانى جـامع كتابـه (حفـظ القـرآن كلـه بمدينـة (زفتـى) ليلتحق بالأزهر الشريف مثل إخوته كان الرابع بين (إخوة خمسة) ولكـن خالـه رأى أن يكون أحد الأبناء طالبا للعلوم الحديثة.. والتحقنا بالقسم العلمى بمدرسة المعلمين العليـا، وتخرجنا منها عام ١٩١٤م.
كان يعيش أثناء دراسته بالقاهرة بين إخوته الذين التحقوا بالأزهر الشريف..
عمل مدرسا بالمدارس الثانوية للجمعية الخيرية الإسلامية.. حتى كان عام ١٩١٦ فسمح له بالسفر للتخصص في الكيمياء والطبيعيـة.. وكنـت معـه حريصين علـى الذهـاب إلى جامع (ووكنج) إحدى ضواحى لندن حيث تقام صـلاة العيـد في مسـجدها، وفي لنـدن تقابلنا مع مولاى (محمد على الهنـدى) أول مـن ترجـم القـرآن، ومـع الإنجليزى المسـلم مارماديوك بكتـول الـذى ترجـم معـانى القـرآن وحضـر إلى القـاهرة قبـل طبـع الترجمـة ليراجعها مع صديقه المرحوم الأستاذ الغمراوى، ولما عـاد (الغمـراوى) مـن إنجلـترا عمـل فترة في التدريس، إلى أن اختير "أستاذا للكيمياء" بكلية الصيدلة وكـان قـدوة حسـنة في خلقه وتدينه لزملائه وطلابه إلى أن أحيل إلى المعاش، وفي عام ١٩٦٠ دعى إلى السعودية فأسس كلية الصيدلة بجامعة الرياض، وظل يعمل بها أستاذا وعميدا لمدة ثلاث سنوات.
وعلى الرغم من مسئولياته العلمية فإن ذلك لم يشغله عن متابعة البحث في علوم القـرآن من لغة وتفسير، وظل اتصاله بإخوانه وأصدقائه الأزهريين الذين كان تقديرهم له عظيما وظل هذا الاتصال وطيدا حتى نال ثقة المغفور له الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى (شيخ الأزهر).
وظل اتصاله وطيدا بصفة خالصة بالبحوث القرآنية، ومن ثم عهـدت إليـه إدارة الأزهـر الشريف بالتدريس في كلية أصول الدين، واستمر يدرس بها في عهديها القديم والحديث (قبل ١٩٦١ وبعدها).
وطبعت له لجنة التأليف والترجمة بعض محاضراته فيها بعنوان "في سنن الله الكونيـة" وفي السنوات الأخيرة كان يدرس لطلبة الدراسات العليا بنفس الكلية). =

محفوراً في ذاكرتي دائما أن كان لي الشرف الرفيع أن أستمع إليه يتحدث عن الإسلام، وأن أذكر في حضرته بعض مشاكل تفسير القرآن في ارتباطها مع العلم الحديث، أن كوني تلقيت من جلالته نفسه معلومات قيمة، ومن حاشيته يشكل لي امتيازاً خاصاً).

ويقول: (وعندما استطعت قياس المسافة التي تفصل واقع الإسلام عن الصورة التي أختلقناها عنه في بلادنا الغربية شعرت بالحاجة الملحة لتعلم اللغة العربية التي لم أكن أعرفها، ذلك حتى أكون قادرا على التقدم في دراسة هذا الدين الذي يجهله الكثيرون، كان هدفي الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه جملة بجملة مستعينا بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية. وتناولت القرآن منتبها بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد من الظاهرات الطبيعية. لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهي تفاصيل لا تدرك إلا في النص الأصلي. أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات والتي لم يكن ممكنا لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يكون عنها أي فكرة، ولقد قرأت إثر ذلك مؤلفات كثيرة خصصها

= وقد حفلت المجلات الإسلامية وبخاصة مجلة الأزهر بمقالاته الممتعة في هذا الصدد، ومنها تلك السلاسل التي كتبها تحت عنوان "دلالة القرآن على نفسه أنه من عند الله" "والسماء في القرآن وفي العلم"، "والجبال في القرآن"، كما أن مذكراته للطلبة التي دونوها بالآلة الكاتبة في كراستين، واحدة بعنوان "إسلاميات" والأخرى بعنوان "سنن كونية في غاية الإبداع".

هذا وقول د. بوكاي عما تلقاه من الملك فيصل وحاشيته من معلومات قيمة وإنه قرأ في إثر ذلك مؤلفات كثيرة خصصها كتاب مسلمون للجوانب العلمية في القرآن" يشير بوضوح إلى أنه قرأ الكثير من بحوث الدكتور الغمراوي ومادرسه في كلية أصول الدين بالأزهر.

كتاب مسلمون للجوانب العلمية في نص القرآن.

إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق، وعلم الفلك وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض وعالم الحيوان وعالم النبات والتناسل الإنسانى..)

ويقول في ص ١٤٨ – ١٤٩: (وسيجد القارئ بالتفصيل في نهاية هذا الجزء الثالث من الكتاب نتائج مقارنة التوراة بروايات القرآن فيما يتعلق بحدث واحد، وقد خضع الكل للنقد العلمى، وعلى سبيل المثال فقد تم اختيارى مسألتى (الخلق والطوفان) واتضح بالنسبة لكل منهما عدم اتفاق العلم مع أقوال التوراة. ولكنا سنرى اتفاقاً كاملاً بين أقوال القرآن الخاصة بنفس المسائل وبين العلم الحديث).

وفي ص ٤٧ وما بعدها يتكلم عن خلق الإنسان تحت عنوان (تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض)، يتكلم عن التقدير العبرى فيقول بعد بحث طويل (لنقل: إن خلق العالم بحسب هذا التقدير العبرى يحدد بسبعة وثلاثين قرناً قبل الميلاد) ثم يبلور الاعتراض العلمى بقوله: ماذا يعلمنا العلم الحديث؟ ويجيب (إن كل ما يمكن ترقيمه هو عصر تكوين النظام الشمسى الذى يمكن تحديده زمنياً .. بقدر الزمن الذى يفصلنا عن تكوين النظام بأربع مليارات ونصف من السنوات ..) ويقول (مع ذلك فيمكن أن نؤكد وجود أطلال الإنسانية مفكرة وعاملة، ويحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات آلاف من السنين).

ويعود للموضوع في كتابه: (ما أصل الإنسان) فيقول ص ١٦٩ – ١٧١ عن التقويم اليهودى: أنه (قائم على أن خلق الكون والإنسان تم في أسبوع واحد) ويقول: تم تقدير عمر الأرض بحوالى ٤,٥ مليون سنة فيما يتعلق بأول

ظهور للإنسان الأول على الأرض فعلينا أن نتذكر ببساطة أنه منذ حوالى ٤٠ ألف سنة مضت كان بالفعل إنسان يشبه الإنسان الحالى).

وجلى لنا بحثه في الكتاب الأول تعدد السموات، وتعدد الكواكب، والنظام الشمسى والمجرات، ومفهوم تعدد العوالم والمواد الكونية المنتشرة من النجوم، ومقابلة ذلك مع المعطيات القرآنية عن الخلق، وعلم الفلك في القرآن.

وتحت عنوان: (تأملات عما في السماء) أورد آيات بنيان السماء وخلق السماء بغير عمد نراها، وحركة الشمس والقمر دائبين – الضياء والنور من الشمس، والنور من القمر.

وفي خصوص (الأرض) أورد الآيات ذات المرمى العام، وأورد الآيات الخاصة عن دور المياه والبحار والجبال والرياح اللواقح، والماء العذب، وتفجير العيون والجنات والزروع والتوافق بين الآيات والعلم الحديث، وتحدث عن التركيب المعقد للأرض وتضاريسها، وعن الجو الأرضى، والارتفاع في السماء، والكهرباء الجوية، والظل وعالم النبات.

وتحت عنوان: (أصل الحياة) يذكر آيات الزوجية في النبات والحيوان والإنسان.

وتحت عنوان: (التوازن في عالم النبات) يورد الآيات الخاصة بكل موضوع من تناسل النبات من كل زوج كريم، وتلقيحها، ثم تأملات في النحل والعناكب والطيور، وآية تكوين لبن الحيوان (من بين فرث ودم) ثم تكلم عن التناسل الإنسانى والمعجزات في آياته.

هكذا يشتمل الكتاب الأول على عشرات المسائل من أمهات العلم وكلها تقطع بأن بعض علم الله في القرآن هو الذى اكتشفه علماء أوروبة في العصور الأخيرة، في حين يقتصر الكتاب الثانى على تحقيق مسألة واحدة منها هى (أصل الإنسان) وفيه مقارنة جديدة بين نظرات كل من التوراة

والإنجيل ثم القرآن.

وربما أجزأ في تبيين مكانته العلميـة إشـراك الإكاديميـة الطبيـة الوطنيـة الفرنسية فيما وصل إليه (في كل من علم وظائف الأعضاء، وعلم الأجنة التى عـرض لهـا القـرآن منذ نحـو أربعـة عشـر قرنـاً سبقت الاكتشـافات العلميـة الحديثة) على ما عبرت مقدمة الكتاب، وفيها قوله:

(... إن ما جاء به القرآن من بيان عن أصل الإنسان سوف يثـير دهشـة كثير من الناس لا ريب.. أما القرآن فيحتوى – حقا – على آيات بينـات عن خلق الإنسان).

وفي الكتاب الأول خلص بوكاى في نهاية كتابه إلى قوله[٢١] (إن القـرآن – وقد استأنف التنزيلين اللذيـن سبقاه – لا يخلـو – فقـط – مـن متناقضـات الرواية...) وقوله عن القرآن الكريم.

(طابعه الخاص – هو التوافق التام من المعطيات العلمية الحديثـة – بـل اكثر من ذلك – وكما أثبتنا – يكتشف القارئ مقـولات ذات طـابع علمـى مـن المستحيل تصور أن إنسانا في عصر محمد قد استطاع أن يؤلفها، وعلـى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهـم بعـض الآيـات القرآنيـة التـى كـانت بـلا تفسير صحيح حتى الآن).

(إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات في القرآن تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التـوراة غير المقبولـة علميـا وبيـن مقولات القرآن التى تتوافق تماما مع المعطيات الحديثة).

ثم يقول في ختام هذا الكتاب:

(لذا فمن المشروع تماما أن ينظر في القرآن على أنه تعبير الوحـى مـن

---

(٢١) ص ٢٨٥

الله، وأن يعطى له مكانة خاصة جدا حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه، وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو كأنها تتحدى أي تفسير وضعى)[٢٢].

رابعاً: خلق الإنسان في كتاب الدكتور الطبيب محمد على البار:

ينقل الدكتور قول الفقيه الحافظ ابن حجر العسقلانى (٨٥٢هـ) في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد: (زعم كثير من أهل التشريح – الأطباء من أهل أوربة –: إن منى الرجل لا أثر له في الولد إلا في عقده، وأنه يتكون من دم الحيض)، وهذه نظرية أرسطو تسيطر على أهل أوربة من ألفى عام. ثم يقول ابن حجر (واحاديث الباب – سنن الرسول، ﷺ – تبطل ذلك)، فأحاديث الرسول تعلن أن الولد يخلق من نطفة الرجل ونطفة المرأة، والله – تعالى – يقول: ﴿**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج**﴾[٢٣] أى مخلطة من ماء الرجل وماء المرأة.

ولم تدرك أوروبة هذه الحقيقة إلا في عام ١٩١٢م عندما ثبت في علم الوراثة أن الصفات الموروثة تنتقل عبر الحيوان المنوى من الرجل والبويضة من المرأة.

والتعبير الإلهى عن خلق الإنسان يظهر مباشرة بعد خلق السموات والأرض حيث يقول – سبحانه – في سورة النحل: ﴿**خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون**﴾ ويتبعها بآية: ﴿**خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين**﴾[٢٤].

---

(٢٢) ص ٢٨٦

(٢٣) سورة الإنسان ، الآية ٣

(٢٤) سورة النحل ، الآيتان ٣، ٤

وليس خلق الإنسان من التراب ثم من النطفة أمورا أقل في الدلالة على جلال خالق السموات والأرض، وكل هذا بدرجاته ومراحل الحياة فيه أدركه العلم من أوائل القرن الحالى، وما يزال يستكمل فهم إبداعات السموات في شكل العلقة إذ تعلق ببويضة الأنثى، والمضغة التى تنتقل إلى أن تكون جنينا، وأن العظام تسبق اللحم في التكوين، وأن مصدر الخلق نطفة الرجل.. النص القرآنى صريح: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[٢٥].

وما يزال العلم القرآنى عن تكوين الجنين في نحو ٤٠ آية قرآنية مؤيدا بكل كشف جديد.

ومن قوله – تعالى – ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[٢٦] ينتفى عن الإنسانية مصدر القردة الذى يزعمه بعض أهل الغرب.

والفقه الإسلامي يكذب ما تزعمه أوربة نقلا عن أرسطو أكثر من نحو ألفى عام أن منى الذكر لا دخل له في تكوين الجنين.

والوصف الوارد في الآيات القرآنية ينطبق أدق انطباق على ما يثبته علم الأجنة الآن، وهو معجزة مستمرة ينتقل لأجلها الأطباء إلى الإسلام الآن.

خامساً: أستاذ الفلك بجامعة القاهرة:

كان الأفذاذ السابقون في الطب والصيدلة والطبيعة بحاجة إلى متخصص في الفلك، وأتاحت جامعة القاهرة هذه الفرصة على يد الدكتور/ محمد جمال الدين الفندى .. مد الله في عمره.

---

(٢٥) سورة المؤمنون ، الآيات ١٢ – ١٤

(٢٦) سورة التين ، الآية ٥

نبه أمره في الأربعينات من القرن الحالى حتى منحه ملك إنجلترا وسام الأمبراطورية البريطانية في العلوم من الطبقة الممتازة سنة ١٩٤٦ ثم رد على إنجلترا الوسام احتجاجاً على غزوها مصر سنة ١٩٥٦م.

وهو حاصل على جائزة فؤاد الأول للعلوم سنة ١٩٥٠م، وعضو في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، سلك مسلك الفلك في إثبات دلالة ذلك العلم على وحدانية الخالق، وعظمة ملكوته، وما يزال وافر العطاء، له في ذلك نيف وعشرون كتاباً تشرح الآيات القرآنية منذ الخمسينات من هذا القرن وأسهم في كتاب (مقدمة تاريخ العلوم عند العرب) وله تحقيق (زيج ابن يونس) بمركز إحياء التراث، وهو صاحب كتاب (البيرونى) الصادر سنة ١٩٦٨م، ومن بحوثه ما دار حول الأقمار الصناعية، وأجرام السماء، وقصة الفيزياء (الطبيعية) والصعود إلى المريخ، وعجائب الأرض والسماء، وله طلائع في المسلسلات الثقافية عن المريخ والفضاء الكونى، وغزو الفضاء والغلاف الهوائى.

ومن كتبه (القرآن والعلم) سنة ١٩٦٨م و(الكون بين الدين والعلم) و(روائع الإعجاز في القرآن الكريم)، و(الله والكون)، و(الإسلام وقوانين الوجود).

إليك أمثالاً نختارها من كتابه (القرآن والعلم) سنة ١٩٦٨، والباب الخامس فيه يبدأ بالطبيعة الجوية.

والباب السادس عن الطبيعة الأرضية... وفي الباب السابع علم الفلك في القرآن وأعمال الرياح والأمطار، وحقيقة تناقص الضغط الجوى مع الارتفاع.

١- فيبدأ بهذه الآية: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا

تسعاً﴾[٢٧] التى تحول ٣٠٠ سنة شمسية إلى سنين قمرية فتجعلها ٣٠٩، ويجرى الحساب، وينتهى إلى أن عدد الزيادة (يعادله ٩ سنوات كاملات).

٢- ثم آية: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾[٢٨] فهى تشير إلى بناء الكون المرئى.. بما فيه من ملايين المجرات التى تمثل وحدات الكون العظمى.. كل ذلك إلى جانب ما يعج به الفضاء من طاقات وإشعاعات يضاف إليه قوله: (وإنا لموسعون) إذ يتسع لكل المجرات مهما تباعدت، ولم يثبت حجم الكون على حال منذ قاس العلماء أبعاده.

٣- ثم قوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[٢٩]، فمواقع النجوم شيء جدير بأن يقسم به الخالق، وأقرب نجم إلينا داخل مجرتنا يبعد عنا بمسافة تقدر بعدد من السنين الضوئية، وعندما نخرج إلى خضم الفضاء الفسيح نجد أقرب المجرات إلينا تبعد عنا بعدة مئات الآلاف من السنين الضوئية.

في التعليق على قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾[٣٠] يقول: إن ﴿السلطان﴾ هنا هو العلم.

ويقول عن الذرة في الآيات المتعددة: إنها أصغر الأشياء. ثم يقول عن قوله – تعالى -: ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾[٣١] فهذا يدل على انقسام

---

(٢٧) سورة الكهف ، الآية ٢٥

(٢٨) سورة الذاريات ، الآية ٤٧

(٢٩) سورة الواقعة ، الآيتان ٧٥ ، ٧٦

(٣٠) سورة الرحمن ، الآية ٣٣

(٣١) سورة يونس ، الآية ٦١، وسورة سبأ ، الآية ٣

الذرة إلى أصغر، وهو ما لم يعرف إلا أخيراً.

وفي باب (القرآن وعلوم الحياة).

يتكلم عن الولادة، ويتكلم عن (البصمة) التى تختلف في خلق الله جميعا في آيتى سورة القيامة ٣، ٤، ثم إلى الآية ٥٦ من سورة النساء حيث تختص الآية الجلد بالإحساس الأشد بالألم، ثم ينتقل إلى الآية ٦٩ من سورة النحل، ومعجزات الشفاء فيما تخرجه.

ثم ينتقل إلى باب تاسع فثمة معجزات في سورة هود، ثم معجزات في الماء والهواء والرياح والبراكين، ثم إلى النجوم تحفر أنفاقها في قوله - تعالى-: ﴿النجم الثاقب﴾[٣٢] ثم الى بروج السماء في سورة البروج: وسورة الحجر: ١٦ ليعلمنا أن البروج مجموعات من النجوم تزين السماء.

والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر يتابع طبع مؤلفاته بالإنجليزية والعربية.

المبحث الرابع:

الإسلام دين السماحة والسلام لكل العالم

يقول عليه الصلاة والسلام: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان".

ويقول: "إذا لم تستح فاصنع ما شئت".

ولما جعل الرسول إماطة الأذى عن (الطريق) أدنى شعب الإيمان بين لنا أن حدود مسئولية المسلم تترامى إلى كل ما يصلح به مجتمعه، وأن طريق ذلك واسع، لكل امرئ فيه ما يقدر على القيام به.

---

(٣٢) سورة الطارق ، الآية ٣

وفي اتقاء الشبهات قال - عليه الصلاة والسلام-: "لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا لما به البأس".

وفي ذلك قول القائل: (إنى لأجعل بينى وبين الحرام سترة ولا أحرمها).

وفي تعريف الإيمان تتجلى سماحة الإسلام فهو "تصديق بالقلب وإقرار باللسان بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله".

وفي ذلك يدخل العمل الصالح.

ولا يخرج من الإيمان من يرتكب الإثم إذا تاب توبة نصوحا، وقد يغفر الله له: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[٣٣] وما دامت المغفرة مرجوة فلا (تكفير) لمن قل عمله أو كثر خطؤه.

وبهذا السلام الداخلى للإنسان وللعالم كله كان الإسلام دين السلام، وتعايشت فيه كل الأديان بالحكمة والموعظة الحسنة، أي بالدعوة "المفطورة على السماحة".

ذلك واضح من قوله - جل ثناؤه -: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾[٣٤]، والسمع والطاعة هما التنفيذ الرضى من الفرد والجماعة وهو تعالى يقول: ﴿ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً﴾[٣٥].

وهو القائل - تبارك وتعالى -: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾[٣٦]

---

(٣٣) سورة النساء ، الآية ٤٨

(٣٤) سورة البقرة ، الآية ٢٨٥

(٣٥) سورة الزمر ، الآية ٢٩

(٣٦) سورة يونس ، الآية ٢٥

و﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾[٣٧].

وينهى عن تأويل السلام والريبة فيه إذا صدر من الآخرين بقوله: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾[٣٨].

ولما أذن الله للمسلمين بالحرب أذن بها للدفاع عن النفس وفرض عليهم الاستجابة لطلب السلام فقال: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾[٣٩].

والسلام صفة الله - تعالى - واسمه: ﴿هو الملك القدوس السلام﴾[٤٠] وهو تحية الإسلام وفيه ابتدار بالأمان، والإنسان جدير به حيثما كان: في نفسه، وفي زوجه وبنيه ومخالطيه، وفي وطنه، فذلك قوله - تعالى -: ﴿ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾[٤١] وقوله: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[٤٢].

ومن السماحة المثلى يعترف الإسلام بالديانتين اللتين جاءتا قبله وإن كانتا لا تعترفان به.

وبالعفو والصفح يتدفق التراث الإسلامي من عمل النبى والخلفاء حتى اليوم في معاملات المسلمين للدول التى لا تعرف السلام ولا العفو ولا الصفح، بل تخون العهد وتنقض الصلح.

---

(٣٧) سورة الأحزاب ، الآية ٤٤

(٣٨) سورة النساء ، الآية ٩٤

(٣٩) سورة الانفال ، الآية ٦١

(٤٠) سورة الحشر ، الآية ٢٣

(٤١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٨

(٤٢) سورة الشعراء ، الآيتان ٨٨ ، ٨٩

كان أول عمل سياسى لرسول الله – عليه الصلاة والسلام – إذ دخل المدينة توقيع (معاهدة السلام) مع اليهود وغيرهم وفي العام السادس للهجرة عقد الصلح مع المشركين عند الحديبية.

وفي إبان عودة الجيش أنزل الله عليه سورة الفتح كاملة، واستفتحها بقوله عن هذا الصلح ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾[٤٣]، فهو (فتح بالصلح وبالسلام) للعرب وللعالم وقد أتبعه الرسول بدعوة ملوك العالم للإسلام.

وكانت رسائله إليهم تبدأ بقوله: (سلم أنت).

وفي إبان عقد صلح الحديبية سمع الرسول رجلاً يقول عن الصلح: (ما هذا بفتح، لقد صددنا عن البيت الحرام، وصد هدينا) فقال – ﷺ –: "بئس الكلام بل هو "أعظم الفتح"، قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح – جمع راحة اليد – عن بلادهم، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، ولقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم، وردكم سالمين، وردكم مأجورين، وهو أعظم الفتح".

وتتابعت ردود الملوك على الدعوات بالدخول في الإسلام، إلا بعضا، واستجابت له أممهم بعد أعوام في فارس والشام وآسيا الصغرى ومصر لينتشر في العالم ويدين به ربع سكانه.

وكان أبو بكر يقول: (ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية، والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العبد، حتى يبلغ الأمر ما أراده).

والإمام الزهرى يشرح ذلك بقوله في أواخر القرن الأول: (أمن الناس بعضهم بعضا وكلم بعضهم بعضا، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يُكلم أحد يعقل شيئا بالإسلام إلا بادر بالدخول فيه).

---

(٤٣) سورة الفتح ، الآية ١

وابن هشام يقول في أول القرن الثالث: (خرج رسول الله إلى الحديبية في ١٤٠٠ وخرج إلى مكة بعد سنتين في عشرة آلاف أمنوا مكة ولم يحاربوها).

والله تعالى يقول: ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾[٤٤].

ولقد حصل التاريخ الماضى للحضارتين الأوربية والإسلامية الإمام محمد عبده (١٩٠٥) في كلمات معلمة: (حمل الغرب على الشرق حملة واحدة، لم يبق ملك من ملوكه، أو شعب من شعوبه إلا اشترك فيها أكثر من مائتى سنة.. وجدوا حرية في دين "وعلماً وشرعاً وصنعة" مع كمال اليقين.. وتعلمت "دول أوروبة" أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان، ثم جمعت ما شاء الله من الآداب، وانطلقت به قريرة العين.. ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح بما لم يبعد عن الإسلام إلا قليلاً..)

وإنما قصد دعوات مارتن لوثر ١٥٤٦م وقد حوكم، كمحاكمة زونجلى ١٥٢١م من قبله ثم كالفن ١٥٦٤م من بعده، ثم كان قيام حرب الأعوام الثلاثين وانتهاؤها ١٦٤٨م ليأخذ البروتستانت حقهم في نصف أوروبة، وينتقل بعضهم إلى أمريكا، وتفقد الكنيسة سيطرتها على الشعوب.

كذلك ينقل لنا الإمام محمد عبده قول الفيلسوف الأوربى (ماكس نوردو) عن قومه: (إن الناس كانوا – وما زالوا – يطلبون الحق، ولم يكونوا في زمان أبعد عنه منهم في هذا الزمان.. إنك لو طرقت أي باب تسأل: هل مرت السعادة بهذا البيت؟ لأجابك مجيب: إذا شئت فاطرق باباً آخر، فإن السعادة لم تمر ببيتنا،..) ويقول محمد عبده ذلك بعد أن ذكر حال الأمم الأوربية جميعها.

---

(٤٤) سورة النحل ، الآية ١٢٥

أما الإسلام فدين السكينة والطمأنينة، والعزة مسلمة به: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾(٤٥).

والدكتور السنهورى من كبار أستاذة القانون المدنى الذى نقل إلى بلدان المسليمن من أوروبة يعنى أوروبة المعاصرة بقوله: (الإسلام قوى لا تهضمه الجنسية ولا الاستعمار ويحاول الغربيون أن يحولوا الإسلام إلى مجرد عقيدة ليسهل تفريق الأمة الإسلامية، وهضم ما استمرأوه منها).

والله تعالى لا يخلف وعده بنصرة دينه ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى با لله شهيداً﴾(٤٦).

وبهذا اليقين كان الرجل الواحد في سرية مؤته يقاتل مائة! فالمسلمون ثلاثة آلاف يقاتلون ثلاثمائة ألف! ويرجعون سالمين معهم غنائمهم إلا أحد عشر من الشهداء منهم أمراء الجيش الثلاثة!!

* * * * * * * * * *

وفي مستقبل حضارة الإسلام قول الكاتب الأمريكى جورج سارتون: (لقد سبق للعرب أن فاقوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم طوال ألفى سنة قبل أيام اليونان ثم في العصور الأخيرة مدة أربعة قرون، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن يقودوا العالم في المستقبل القريب أو البعيد).

وهو يعنى الحضارة المصرية من قبل التاريخ الميلادى بالآف الأعوام، كما يعنى قروناً عظيمة في تاريخ العالم سبقت النهضة الأوربية، ويعنى أن العلوم العربية كانت – ومازالت – فاتحة عصر التنوير هنالك.

---

(٤٥) سورة المنافقون ، الآية ٨

(٤٦) سورة الفتح ، الآية ٢٨

الفصل الثانى

في الاقتصاد الإسلامي والأخلاق

﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ (٤٧)

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا
وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن
الله لا يحب المفسدين ﴾ (٤٨)

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ (٤٩)

(٤٧) سورة آل عمران : الآية ١٩٥.

(٤٨) سورة القصص : الآية ٧٧

(٤٩) سورة المائدة : الآية ٢

الفرع الأول
في قواعد الاقتصاد الإسلامي والأخلاق

المبحث الأول

مصطلح الاقتصاد الإسلامي

يتسع مصطلح (الاقتصاد الإسلامي) للقيم العليا ولكل مسمى يبتغى به الإنسان الرزق الحلال، ولاقتصاد الدولة وماليتها، وتدبير الأسرة والرجل الواحد، وإلى أن يكون نقيض الإسراف على النفس، أو في المال، وأنه حرب على الحرام في المكسب أو المغنم، ويعنى أعظم العناية بالفقراء، ومن ثم يستحق وصفه الإسلامي.

ويرى بعض العلماء تسمية الاقتصاد الإسلامي (علم الإعمار) قياسا على (أعمره دارا)[٥٠] وأخذ بالنص القرآني: ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾[٥١]، وقوله تعالى: ﴿**إنما يعمر مساجد الله**﴾[٥٢].

ومن أقسامه – عز وجل -: ﴿**والبيت المعمور**﴾[٥٣] ومن آياته: ﴿**وأثاروا الأرض وعمروها**﴾[٥٤].

---

(٥٠) الدكتور رفعت العوضى، أستاذ الاقتصاد بجامعة الأزهر في مؤلفاته، وفي مجلة الاقتصاد الإسلامي.

(٥١) سورة هود الآية ٦١

(٥٢) سورة التوبة الآية ١٨

(٥٣) سورة الطور الآية ٤

(٥٤) سورة الروم الآية ٩

وربما أيد هذا النظر استعمال بناة الدول له. يقول طاهر بن الحسين لابنه عبد الله – الأول – قائد من قواد المأمون ولاه خراسان، والثانى نائب أبيه في القيام بهذه الولاية –: (وليكن كنز خزائنك في "عمارة" الإسلام وأهله) وهى وصية قائد منتصر تنسب إليه الدولة الطاهرية التى قامت بين عامى ٢٠٥- ٢٥٩هـ / ٨٢٠- ٨٧٣م في خراسان كما قاد جيش المأمون بمصر سنة ٢١٥هـ.

لكن تعبير (الاقتصاد) تعبير قرآنى في الموضوع لا ينبغى العدول عنه الى تعبير جديد يقول – جل ثناؤه –: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ر بهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء مايعملون﴾[٥٥] فهذا تعبير عن التوازن والاعتدال وحسن الإدارة في أمة لا تترفها النعمة.

والاقتصاد لفظ يتسع للإعمار وغيره كقوله – تعالى –: ﴿واقصد في مشيك﴾[٥٦] وقوله: ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾[٥٧] وقوله: ﴿وعلى ا لله قصد السبيل ومنها جائر﴾[٥٨]، وقوله: ﴿لو كان عرضاً قر يباً وسفراً قاصداً لا تبعوك﴾[٥٩] وقوله – تبارك وتعالى – في الإنفاق: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾[٦٠].

---

(٥٥) سورة المائدة الآية ٦٦

(٥٦) سورة لقمان الآية ١٩

(٥٧) سورة فاطر الآية ٣٢

(٥٨) سورة النحل الآية ٩

(٥٩) سورة التوبة الآية ٤٢

(٦٠) سورة الفرقان الآية ٦٧

ورسول الله يقول عن المال والعيال "ما عال من اقتصد".

والإمام جعفر الصادق يقول: (ضمنت لمن اقتصد ألا يفتقر).

والإسراف في اللغة: "تجاوز القصد"، والقصد في اللغة: الرشد. و"القصد في الأمر": توسط واعتدال وطلب الأسد، وعدم تجاوز الحد.

والطريق القصد، أو السفر القصد: هما الطريق السهل، أو السفر السهل، ومن حسن الإدارة وطيب العيش قيل: الاقتصاد نصف المعيشة.

المبحث الثانى:

في الأخلاق

الخلق: السجية. والله - تعالى - يقول لرسوله -ﷺ- مؤكدا ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[٦١].

ولما سئلت أم المؤمنين عائشة عن خلق رسول الله، أجابت: "كان خلقه القرآن" ومن ذلك حديثه: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وحديثه: "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس".

والخلق طريقة حياة. وسلوك والمسلم حثيما كان يتغيا رضوان الله بحسن السلوك.

والله يقول: ﴿ومن يتق ا لله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على ا لله فهو حسبه إن ا لله بالغ أمره قد جعل ا لله لكل شيء قدراً﴾[٦٢].

والتقوى رأس الأمر كله وفيما يلى بعض علامات على الطريق:

---

(٦١) سورة القلم الآية ٤

(٦٢) سورة الطلاق، الآيتان ١، ٣

يقول عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما -: كنا مع النبى -ﷺ- فقال: "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، تؤتى أُكُلها كل حين بإذن ربها وهى كالمؤمن، أخبرونى ما هى؟ - واستمر يروى الحديث -: فوقع الناس في شجر البوادى - وكنت صبياً - فوقع في نفسى أنها النخلة، ولكنى هبت رسول الله أن أقول وأنا أصغر القوم، فقال -ﷺ-: "إنها النخلة".

وأول ما نشهده في النخلة السمو والاستقامة والصلابة، واتجاه أوراقها في معاليها نحو كل الاتجاهات ليكون منها لكلها نصيب، وكأنما خلقها الله لتكون مثالا لأخلاق الإسلام في كل الأنحاء أما ثمرتها فتحوى من حلاوة السكر أكثر مما يحمله ثمر أي من الشجر (٩٠٪).

ويقول - عليه الصلاة والسلام -: "ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق" والله تعالى يحب معالى الأمور ويكره سفسافها، ومن ذلك يقول -ﷺ- لأبى ذر "أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن".

ويقول عن التجارة "إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يعسروا".

والخلق الحسن حيثما كان الإنسان من أظهر الدلالات على صدق إيمانه(٦٣).

---

(٦٣) وربما أغنى عن بحث الأخلاق في المجتمع الأوربى القائم على عبادة المال والعمل له دراسات تثبت تأثر الإنجليز بالدين ومحاربة أوربة له في الاقتصاد، وهى دراسات في كتاب جمع أبحاثاً في السبعينات والثمانينات من هذا القرن لمؤلفة على عزت بيجوفتش رئيس جمهورية البوسنة والهرسك تحت عنوان "الإسلام بين الشرق والغرب"، وفي الفصل الثالث عشر يقول: لن تستطيع حركة دينية في أوربا أن تبنى برنامجاً اجتماعياً،=

=وسيظل دين أوربا والحادها سادرين في طبيعتهما المتطرفة. ولكن يوجد جزء من العالم الغربى – بسبب موقعه الجغرافى متحرر من التأثيرات المباشرة لمسيحية القرون الوسطى، متحرر من العقد المستعصية لهذا العصر.

لقد قضى الإصلاح الدينى في انجلترا – بمنطق نظرى – على كل من الطرفين المضادين: (السيطرة البابوية والمَلَكية) وهذه الثنائية في أسلوب الحياة الإنجليزية يمكن فهمها إذا فهمنا موقف (روجير بيكون) الذى يعتبر مؤسس ورائد التقدم الروحى الإنجليزى الحديث، لقد أكد بيكون على المكونات الدينية وظل ثابتا على ثنائيته كما فعل الإسلام...

ولكن تبقى حقيقة هامة عن بيكون (روجير بيكون ١٢٩٤) لم تتم دراستها دراسة كافية والاعتراف بها. وهى أنه أب للفلسفة والعلوم الإنجليزية في حقيقة الأمر وكان تلميذاً مخلصاً للثقافة العربية وقد تأثر تأثيراً قوياً بابن سينا (٤٣٨هـ) الذى اعتبره بيكون أعظم فيلسوف ظهر بعد أرسطو...

ويقول على عزت بيجوفيتش إن التضاد بين الطبيعى وبين الأخلاقى الذى يتميز به المدخل المسيحى أصبح في الإمكان التوفيق بينهما عند عدد من المفكرين الإنجليز).

وبعد سرد موجز لرجال الفكر أصحاب الطريق الوسط يقول (يوجد من هذه النجوم إسم من ألمع الأسماء هو آدم سمث Adam Smith ألف كتابين بينهما تناقض ظاهرى ولكنهما متكاملان من حيث المضمون.

أحد هذين الكتابين هو (نظرية المشاعر الأخلاقية) والثانى هو (بحث في طبيعة وأسباب تقدم الأمم) ويعتبر الكتاب الأخير من أكثر الكتب تاثيراً في فكر القرن الثامن عشر ويعالج الكتاب الأول موضوع الأخلاق أما الثانى فيتناول الاقتصاد ويتخذ لفكرته الأساسية مبدأ الأنانية. وكان آدم سمث يدرس الأخلاق والاقتصاد والسياسة بجامعة جلاسجو كأجزاء متكاملة من برنامج دراسى متكامل..

ويقول نقلاً عن كروسمان (كان انتصار الليبرالية مؤديا إلى تجديد الدين في انجلترا في العصر الفكتورى (القرن التاسع عشر) ولم يكن هذا ليحدث في مكان آخر سوى أمريكا، بينما نجد أن التقدم والديمقراطية عند الليبراليين الألمان والإيطاليين هى=

وفي الثواب عليه يقول - تعالى -: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[٦٤] و﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفكسم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[٦٥]، ومن الشح اللدد، ورفض الصلح، والامتناع عن العفو.

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: سمع رسول الله -ﷺ- صوت قوم بالباب عالية أصواتهم، وإذا أحدهما يسترجع الآخر ويسترفقه في شيء وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج عليهما رسول الله -ﷺ- فقال: "أين المتألى على الله لا يفعل المعروف؟" فقال: أنا يارسول الله، وله (لخصمه) أى ذلك أحب.

=موضوعات قاصرة على العلمانيين، فالمؤمنون بالكاثوليكية يعتقدون أنه لا يوجد جسر على الثغرة الفارقة بين الإيمان بالمسيح والإيمان بالتقدم، والمؤمنون بالتقدم يعتقدون أن الدين لا علاقة له بالتقدم أو الحرية).

ويقول عن انجلترا (حتى الاشتراكية الإنجليزية هى الأخرى من نوع مختلف. نستمع من منصة حزب العمال اقتباسات من الكتاب المقدس مثلما نسمعها من منبر الكنيسة هناك).

وقد وضحنا في كتابنا القرآن والمنهج العلمى المعاصر تأثير المسلمين وعلومهم في القديسين البرت الكبير وتلميذه توماس الاكوينى وهما يمثلان الدومانيكان كما أشرنا إلى إعظام روجير بيكون للفلسفة العربية وهو القائل عن ابن رشد (إنه فيلسوف متعمق صحح الكثير من أغلاط الفكر الإنسانى وأضاف الى تراث العقول ثروة لا يستغنى عنها وأدرك كثيراً مما لم يكن قبله معروفاً لأحد)، وكان بيكون من كبار الدارسين للكندى وابن القيم، وبيكون يمثل مبادئ الإصلاح الدينى الانجليكانى، وبهذا يجتمع على إعظام الفلسفة العربية القسمان في المسيحية

(٦٤) سورة يونس الآية ٢٦

(٦٥) سورة التغابن الآية ١١

وسب رجل رجلاً عند رسول الله فجعل الرجل المسبوب يقول للرجل: عليك السلام. قال -ﷺ-: "أما إن ملكا يذب عنك، كلما يشتمك هذا قال له: بل أنت، وأنت أحق به".

وفي إحياء علوم الدين للغزالى روى عن ابن قتيبة ... مر بى بشر بن عبد الله ابن أبى بكرة فقال: ما يجلسك ها هنا؟ قلت خصومة بينى وبين ابن عم لى. قال: إن لأبيك عندى يدا، وإنى أريد أن أجزيك بها، وإنى والله ما رأيت شيئا أذهب للدين ولا أنقص للمروؤة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة.

فقمت لأنصرف، فقال لى خصمى: إنك عرفت أن الحق لى.

قلت لا: ولكن أكرم نفسى عن هذا.

قال: فإنى لا أطلب منك شيئا. هو لك.

ومن الأمانة الصدق والوفاء والرحمة والحياء والتكافل والسخاء والعفة وصلة الرحم وطيب المطعم والمعونة على النوائب والبر بالغير، والإنفاق في الخير، والمساهلة في المعاملة.

والدين أمانة والتزام بكل الإسلام، وأخلاق التاجر المسلم وجه من وجوه عبادته لله، ولذلك أدخلت تجارات المسلمين في الإسلام أكثر الأمم التى أسلمت، ولم تعد الانتصارات الحربية أن كانت أصواتا تنطق في مواقعها أو في قريب منها.

والمسلمون عليمون أن الله يرزق الناس بعضهم من بعض، وأن الرزق كله من عنده، وأنه يجزى الحسنة الواحدة عشر حسنات، وربما شاء فأعطى أكثر، والمسلمون على ذكر دائم له - سبحانه - بالعبادات والمعاملات، والرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول: "إياكم والطمع، فإنه الفقر الحاضر".

والطمع إحساس بالحاجة إلى مزيد، والغنى الحق هو عدم الحاجة.

والرسول يقول: "إن من موجبات المغفرة إدخال السرور على قلب أخيك المسلم". "وإن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم".

ويبشرنا بقوله: "إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق".

ويقول "أفضل الصدقة جهد المقل".

وكان -ﷺ- يقول: "الضعيف أمير الركب" وكان يتجوز في صلاته إذا سمع بكاء طفل لشدة وجد أمه من بكائه، ويقول: "من اطلع في كتاب أخيه المؤمن بدون إذنه فقد أطلع في النار" ويقول "حديثكم بينكم أمانة ولا يحل لمؤمن أن يرفع على أخيه المؤمن".

وينهى عن الكبر بقوله: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان".

نهى – يوما – عن مجالسة الموتى، فساله رجل: ومن الموتى؟ فقال: "كل غنى قد أبطره غناه".

وعندما قدم أبو عبيدة بمال كثير من البحرين قال للناس: "أظنكم سمعتم بقدوم أبى عبيدة وأنه جاء بشيء، فأبشروا، وأمِّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخاف عليكم ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم فتَنَافسوها كما تنافسوها وتلهيكم كما ألهتهم"، فهو يسمى المال الكثير شيئا، ويحذرنا من أن تلهينا الحياة، وينشيء أمته على ما تراه من عمله وخلقه العظيم كما وصفه الله سبحانه.

* * * * * *

وهو غوث للمستغيثين ولو كانوا أعداء يتربصون به وبالمسلمين؛ استغاثت به قريش ليتوسط لدى أهل نجد ليرسلوا إليها قمحا منعوها منه، فتوسط ليطعموا من جوع ولم يأخذهم بذنوبهم حين أجاعوه وأهله بحصارهم في الشعب حتى أكلوا أوراق الشجر، وبهذه الوساطة علمنا أن الإسلام "أخوة إنسانية" وأن الكريم يعفو ولا يهفو.

ومن أوامره لأمته: "أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك".

وهو ولى الأمر الذى يؤثر على نفسه فقراء قومه، جاءته هدية فقال: اذهبوا بها إلى دار عبادة بن الصامت، فذهبوا، قال عبادة: - وهو يعول اثنى عشر من أهل بيته - أذهبوا بها إلى من هو أحوج منا، فصاروا يرسلونها من فقير إلى فقير حتى رجعت إلى دار عبادة. وقد شهد الجميع أنه أحوج الجميع.

ومن دروسه في حساب الدنيا والآخرة يسأل صحبه "أتدرون من المفلس؟ قالوا: من لا درهم له ولا متاع. قال: المفلس من يأتى بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار".

ومن دروسه في هذا الحساب ما يجمع الفقه والقضاء وكنوز الدنيا وبيع العقارات: قال لصحبه: "اشترى رجل ممن كان قبلكم عقارا من رجل، فوجد الذى اشترى العقار في عقاره جرة من ذهب، فقال للبائع: خذ هذه عنى، إنما أشتريت العقار ولم أبتع الذهب، قال بائع الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل، فقال الذى تحاكما إليه: ألك ولد؟ فقال أحدهما: لى غلام، وقال الآخر: لى جارية، فقال: أنكحوا الغلام الجارية وتصدقوا.

والأسرة السعيدة، والإحصان والترويج مقاصد شرعية في صدارة الاجتماع والاقتصاد.

يقول لرجل يريد الزواج: "هل عندك شيء تصدقها إياه"؟ قال الرجل: ما عندى إلا إزارى، قال -ﷺ-: "إن أعطيتها إزارك جلست ولا إزار لك فالتمس شيئا" قال: "ما أجد شيئا" قال: "التمس ولو خاتما من حديد" فلم يجد. قال: "هل معك شيء من القرآن؟" قال: نعم. سورة كذا وكذا، قال نبى الرحمة: "قد زوجتكها بما معك من القرآن" أو قال: "علمها القرآن".

وتجيئه فاطمة بنت قيس تقول: "إن لى سبعين مثقالاً من ذهب. فيقول لها: "اجعليها في قرابتك. أو تجيئه مستشيرة في خطيبين خطباها من عظماء الصحابة فيقول لها: "أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو حذيفة فلا يضع عصاه عن عاتقه" وأمرها بأسامة بن زيد فتزوجته، وبورك لها من كل وجه، تزوجت حِبه وابن حبه، وفي دارها اجتمع أصحاب الشورى الذين اختاروا أمير المؤمنين عثمان للخلافة، واقترنت بأصغر قواد الرسول شباباً، وآخرهم قيادة، وهو أول قواد أبى بكر؛ إذ أنفذ جيشه إلى العدو، وعاد مكللاً بالنصر.

وعلى الجملة:

فالقرآن الكريم يخاطب الإنسان حيثما كان ويجمع بين التصديق والعمل والالتزامات القانونية في أخلاق الفرد والدولة أو المجتمع وفي حقوق العدو والصديق وحياة الأسرة ونشاط السوق. وبالأتمار بالمعروف والابتعاد عن المنكر تنسجم إرادة المخلوق مع إرادة الخالق ﴿صنع ا لله الذى أتقن كل شيء﴾(٦٦) و﴿صبغة ا لله ومن أحسن من ا لله صبغة﴾(٦٧).

---

(٦٦) سورة النمل الآية ٨٨

(٦٧) سورة البقرة ١٣٨

المبحث الثالث:

العمل والرزق

الرزق رزق الله، وهو بعض التوفيق في الحياة الدنيا، والإنفاق منه وأجب بالنص. يقول تعالى عن المتقين إنهم: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾[٦٨] ويقول - تبارك وتعالى -: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾[٦٩].

وهو - سبحانه وتعالى - ﴿الرزاق ذو القوة المتين﴾[٧٠] يقول: ﴿قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾[٧١].

والعمل أو التجارة لا يضمن الزرق، وإنما يضمنه الله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾[٧٢].

ويقول: ﴿وكأين من دآبة لا تحمل زرقها الله يرزقها وإياكم﴾[٧٣]، فالرزق من الله وحده لكل خلقه.

قال - تبارك وتعالى -: ﴿ليجز يهم الله أحسن ما عملوا ويز يدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[٧٤].

---

(٦٨) سورة البقرة الآية ٣

(٦٩) سورة الذاريات الآيتان ٢٢ - ٢٣

(٧٠) سورة الذاريات الآية ٥٨

(٧١) سورة الجمعة الآية ١١

(٧٢) سورة سبا الآية ٣٩

(٧٣) سورة العنكبوت الآية ٦٠

(٧٤) سورة النور الآية ٣٨

والتوكل على الله مأمور به، يقول – تبارك وتعالى –: ﴿وكفى با لله وليا وكفى با لله نصيراً﴾[٧٥]، ويقول: ﴿ودع أذاهم وتوكل على ا لله وكفى با لله وكيلا﴾[٧٦] ويقول: ﴿ومن يتوكل على ا لله فهو حسبه﴾[٧٧]، ويقول: ﴿فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا ا لله ونعم الوكيل﴾[٧٨] وهو القائل: لعباده ﴿أليس ا لله بكاف عبده﴾[٧٩].

والوكالة من الله كفالة وحفظ، وهو تعالى يقول: ﴿ا لله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل﴾[٨٠].

ومن مجموع هذه النصوص معان قطعية جماعها أن الرزق عطاء السماء، وأن النعمة رزق، ومنها الصحة، والحياة، والفضائل.

والعمل للرزق مأمور به، ورسول الله يقول "خير الرزق بيع مبرور، وعمل الصانع بيده"، ورأى يد صاحب له قد أثر فيها العمل بها، فقبلها وقال: "هذه يد لا تمسها النار".

ولما أخبروه عمن انقطع للعبادة سأل "من يعوله؟" قالوا: أخوه. قال: "أخوه أعبد منه".

فالعمل عبادة. يقول أمير المؤمنين عمر:

---

(٧٥) سورة النساء الآية ٤٥

(٧٦) سورة الأحزاب الآية ٤٨

(٧٧) سورة الطلاق الآية ٣

(٧٨) سورة آل عمران الاية ١٧٣

(٧٩) سورة الزمر الآية ٣٦

(٨٠) سورة الشورى الآية ٦

(لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، يقول: اللهم ارزقنى؛ فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة)، ويقول: (والله لو جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل، لهم أولى منا بمحمد يوم القيامة).

والسعى للرزق مشغلة الإنسان الكبرى، ولم تتركه السماء سدى، بل تعهده الكتاب الكريم بالتهذيب والتربية ليرضى ويشكر.

والأوامر والنواهى تتواتر في هذا الباب على معانى الرضا والشكر ﴿ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾(٨١).

ومن النواهى: **﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنسآء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيءٍ عليماً﴾**(٨٢).

والرضا والشكر مفتاحان للسلام النفسى الكامل، وللسلام الاجتماعى والعالمى جميعا.

يروى عبد الله بن مسعود قال رسول الله -ﷺ- لأمته: "إن الله قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه، قالوا: وما بوائقه؟ قال: غشمه وظلمه، ولا اكتسب عبد مالاً حراماً فتصدق به وبارك الله فيه، ولا يدعه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار".

(٨١) سورة الأنفال الآية ٢٦

(٨٢) سورة النساء الآية ٣٢

المبحث الرابع:

العمل والمال

الذين يقطعون الصلة بين المعاملات وبين الدين يفصلون بين شطرى الإيمان وهما: الإقرار بالشهادتين، والعمل الصالح، والله قد جعل العمل دليلا على صدق العقيدة. في سائر الفرائض عمل، فالصلاة دعاء وذكر على مدار العمر، والصوم عمل بالجوع أو المشقة على مدار شهر في كل عام، والحج عمل شاق فيه دربة وتعليم وعبادة وتكافل، والزكاة عمل بالمال وتوزيع له على من يعمل به، أو يسد به حاجة.

والله تعالى يقول: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[٨٣].

ولما جاء بيت الرسول من يستقلون عبادته شرح لهم المنهج عملياً ليوجه القعدة إلى أن يعمل.

ويقول عليه الصلاة والسلام: "طلب الحلال فريضة بعد الفريضة" و"إن الله يحب العبد المحترف".

وعمر يقول للمتماوتين: "لا تميتوا علينا ديننا"

كان المهاجرون من مكة إلى المدينة يتواترون زرافات ووحدانا، ثم قدم رسول الله إلى "المدينة" فأصبح أهل المدينة "الأنصار" يقاسمون المهاجرين الأرزاق "بالعمل" في مال الأنصار: كان لسعد بن الربيع زوجتان، فقال لعبد الرحمن ابن عوف: ايهما تختار؟ قال: لا، ولكن دلني على السوق، فدله، ولم يلبث طويلا حتى أبلغ رسول الله أنه تزوج، ومهر زوجته نواة من الذهب.

ومن عمل المهاجرين في زراعات الأنصار كان عقد المزارعة في الشريعة أسبق في الوجود من عقد الإجارة.

---

(٨٣) سورة التوبة الآية ١٠٥

وأسهمت تجارات السوق "المحلية" ثم السوق الخارجية، وأرباح الصحابة الكبار في حمل أعباء الحروب، وهكذا نشأ النشاط الإسلامي في الاقتصاد بالمدينة نشأة تعاون بين الناس، أو مع الدولة، فأصبح العمل - والعمل بالمال مع التعاون - في شتى وجوهه - أركاناً أساسية للاقتصاد الإسلامي حتى الآن.

والتعاون فرض كفاية، وإن وجب بعضه، وليس الواجب على سبيل الكفاية أقل شأناً من الفرض الملزم.

ومن أمثال الواجب على سبيل الكفاية واجب الجهاد وطلب العلم، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وصلات ذوى الأرحام، والإنفاق في سبيل الله بوجه عام، لو لم يقم بها المجتمع كان مرتكبا للمعصية، وإنما يجزئ عن المسلمين قيام بعضهم بها، وكثيرا ما يتعين على أمرئ بذاته أن يقوم بها كالمتخصص أو القادر وحده.

يقول - تعالى -: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[٨٤] ليعلمنا أن العمل لا يسبقه شيء إلا أن يقف الإنسان بين يديه، وأن علينا ذكر الله وشكره باستمرار.

* * * * * *

ولقد كان رسول الله -ﷺ- أكثر الناس عملا في الحرب والسلم والفكر والفعل.

وعمل أبو بكر الصديق بالتجارة قبل الهجرة وبعدها، وفي خلافته لرسول الله آية على أن الصدق وأمانة الأداء تتصدران كل عمل.

---

(٨٤) سورة الجمعة الآية ١٠

وهو عليم بحديثه -ﷺ- "إن من الذنوب ذنوبا لا تكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة، وإنما يكفرها الهموم في طلب المعاش" وحديثه: "إن الله يحب أن يرى عبده تعبا في طلب المعاش" وحديثه "الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله".

كان قبل الخلافة يحلب لجيرانه نياقهم، ويسأل اللواتى يجئن إليه: أأرغى أو أصرح؟[٨٥] ولم تلهه (حروب الردة) عن أن يحلب لهن.

وخرج بعد استخلافه يحمل ثيابا يبيعها، ليقوت أهل بيته، فمنعه المسلمون وقدروا له درهمين عن كل يوم ليخلص للخلافة.

وذات يوم سقط خطام ناقته من يده فنزل والتقطه.

قالوا: هلا أمرتنا؟!

قال: أمرنى رسول الله -ﷺ- ألا أسأل الناس شيئا أى: (ما يقدر على عمله بنفسه) وبهذا يأمر -ﷺ- أن يعمل كل أمرئ بيده فيما يخص نفسه ما يقدر على عمله، وإن كان يستطيع تكليف غيره به.

ومن بعد خليفة رسول الله عمل عمر لله وللناس في خلافته، يسهرليناموا، ويحمل على كتفه الدقيق ويصطحب زوجته ليساعدا امرأة في ولادتها في الليل البهيم، ويعس ليتفقد أحوال الأمة بنفسه، ويجوع كما يجوع الناس، ويعلن لهم أن عليه أن يعنى بالناس وأن يعنيه ما يعنيهم، واشتد جوعه حتى هزل جسمه.

ومن بعد الفاروق جاء عثمان – ذو النورين – وكان يحدر إلى الثمانين أو منها، وكانت أمواله من تجارته عونا للأمة في سلمها وحربها، حتى قال فيه رسول الله -ﷺ-: "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم" وقال لأبى موسى

---

(٨٥) الإرغاء تكوين الرغوة، والتصريح: ألا توجد رغوة

الأشعرى إذ يستأذن لعثمان في الدخول عليه: "بشره بالجنة على بلوى تصيبه" ويشره أبو موسى فدخل وهو يقول لأبى موسى: "الله المستعان" وبهذه البلوى تسور الثوار داره ظالمين، فأمر ألا تراق لأجله قطرة دم مسلم، واستشهد!!

وكان عثمان بن عفان يروى عن رسول الله -ﷺ- قوله "الصبحة[٨٦] تمنع بعض الرزق" وقوله: "إذا صليتم الفجر فلا تناموا عن أرزاقكم".

وجاء دور أمير المؤمنين على، وهو بطل حروب النبى، احتكم هو وزوجته فاطمة الزهراء إلى رسول الله -ﷺ- فقضى أن عليه العمل في خارج الدار، وعليها العمل في داخلها، فكان يحمل الدقيق على كتفه ويقول:

لا ينقص الكامل من كماله ∴ ما جر من نفع إلى عياله

ولما تكاثرت على فاطمة الأعباء بولادة البنين واحدا إثر واحد طلبت إلى أبيها أن يخدمها واحد من سبى الغنائم، فوصاها بالصبر، ثم جاءته مع بنتى ابن عم له تطلبان أن يخدمهما بعض السبى فنصحهما بتسبيح الله مائة مرة، وأخبرهما أن التسبيح خير لهما من خادم.

هؤلاء أربعة من العشرة المبشرين بالجنة.

والخامس: عبد الرحمن بن عوف، لم يُر في عصره تاجر مثله؛ قاسم الله ماله الوفير مرات أربعة وكان يجلس بين عبيده فلا يعرف بينهم، وأعتق في مرة واحدة ثلاثين عبداً.

وكما عمل هؤلاء في خدمة الإسلام عمل السادس والسابع من المبشرين بالجنة: طلحة بن عبيد الله، وقد أصيب يوم أحد بسبعين جراحة!! وكانت تجارته الخارجية تستخدم القوافل[٨٧] والزبير بن العوام، وكانت له مجزرة

(٨٦) الصبحة النفوة في الصبح

(٨٧) كانت غلة طلحة في اليوم ألفا أوقية، وكانت تركة الزبير ٥٧ ألف ألف درهم، أما عثمان فكانت آخرة صدقاته للمسلمين ١٤٠ ألف دينار، سبقتها حمولة قافلة ٧٠٠ =

بالمدينة، والزبير فارس النبى وفاتح حصن بابليون ليستسلم الرومان بمصر، وهو واحد من القواد الأربعة للجيش الذى أمد به عمر عمراً لفتح مصر، وقال له عنهم: كل واحد منهم بألف.

وأبو عبيدة وسعد بن أبى وقاص هما فاتحا الشام وفارس، لم يعرف للأول مال ولما فاجأه عمر في بيته وهو أمير الشام خرج يقول: (كلنا غرته الدنيا إلا أنت يا أبا عبيدة).

ولما عزم سعد أن يوصى للمسلمين بماله قال له -ﷺ- الثلث والثلث كثير ...

أما سعيد بن زيد فكان يعمل لرزقه ويتعبد.

ورسول الله -ﷺ- لا يترك نصف الناس - وهو النساء - دور تكليف بالعمل، وفي ذلك قوله: "نعم لهو المراة في بيتها المغزل" وقد كرمهن يوم وفدت على مجلسه وافدة النساء تطلب أن يأذن لهن بأن يعملن كالرجال معه "وعددت أعمالا" وآجابها بأن حسن تبعل المراة لزوجها، وحملها منه يعدل ذلك كله.. وهى إحدى بطلات الحروب كما تنبئنا كتب السيرة.

ومن دروس أمير المؤمنين على للأمة أن صحابيا جاء يشكو أخاه إذ تزهد وترك العمل. فقال: علَى به.

وجئ به، فقال له: (يا عدو نفسه: لقد استهام بك الخبيث (الشيطان) أما رحمت أهلك وولدك؟! أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك).

=بعير ارتجت لها أنحاء المدينة، فجعلها لأهلها، ومن صدقات عبد الرحمن بن عوف في غزوة تبوك ٧٠٠ أوقية من الذهب سلحت ثلث الجيشى (٣٠ ألفا) وكان تمويل عثمان لهذا الجيش أكثر، ومن صدقات عبد الرحمن جهاز المحاربين بخمسمائة وألف فرس، وأربعين ألف دينار

والإمام جعفر الصادق إمام أهل البيت يحبب العمل إلى الناس فيقول عن شدائد العمل في الدنيا: (ليس لأحد وإن ساعدته الدنيا بمستخلص غضَارة العيش إلا من خلال مكروه).

والإمام مالك يوسع أبواب العمل للمسلمين بقوله: (طلب الرزق ولو في شبهة أحسن من الحاجة إلى الناس).

وسفيان الثورى - وهو إمام في التصوف، والفقه، والزهد - يقول عن أموال تجيئه من مشاركة قليلة في الربح: (لولا هذه الدنانير لتمندل علينا الملوك).

والعمل للنفس كالعمل للناس سواء عند الله والناس، والسنة تأمر بأن يعطى الأجير أجره قبل أن يجف عرقه، وأن يعرف هذا الأجر قبل أن يبدأ العمل، وهو -ﷺ- يوصى بتعلم الحِرَفِ، وحسبنا في هذا مثل واحد يوم جاءه من البدو رجل يسأله، فقال -ﷺ- له: "أما في بيتك شيء؟ قال: بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه. فأمره رسول الله -ﷺ- أن يأتيه بهما، فأتاه بهما، فقال للجالسين "من يشترى هذا؟

قال رجل: أنا. بدرهم.

قال -ﷺ-: من يزيد؟ قالها مرتين أو ثلاثا.

قال رجل: أنا. بدرهمين.

وأخذهما رسول الله وقال للرجل: "اشتر بأحدهما طعاماً، وبالآخر فأساً فأتنى به".

فأتاه به، فشد الفأس على عود، وأعاده إليه وقال له: "اذهب واحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوماً".

وعاد الرجل في الميعاد ومعه مال اقتصده. فقال له رسول الله -ﷺ-: "هذا خير من أن تجئ المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة".

فهو لم يعط صدقة يشترى بها أكلة أو أكلات، بل علمه حرفة مكتوباً لها الدوام. وعلم الأمة بيع "من يزيد".

ورأى عمر قوماً قعوداً بطالين[^88]، فنادى: من أنتم؟

قالوا: نحن المتوكلون.

قال: بل أنتم الذين تأكلون أموال الناس بالباطل.

المبحث الخامس:

العمل بالمال وتكليف العامل بابتغاء الآخرة

يكفى الباحث في أمر المال في الإسلام آيتان:

١- ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملاً﴾[^89].

٢- ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾[^90].

وهذا القول موجه إلى قارون وقد آتاه الله من الكنوز ﴿ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولى القوة﴾ وقال له قومه ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾.

فالمال في الآيتين مفضول بالعمل الصالح وصاحبه مكلف فيه بابتغاء الآخرة.

والاقتصاد الإسلامي مفتوح للعمل الصالح والمال الطيب، وللوفرة والثروة إذا أدى الإنسان لأصحاب الحقوق ما يستحقون ومنه الإنفاق في

[^88]: من البطالة
[^89]: سورة الكهف الآية ٤٦
[^90]: سورة القصص الآية ٧٧

الزكاة وفي الصدقات وهى قيد عام على المال, بمثل أن الجهاد والاجتهاد أمران مندوب إليهما لكنهما يصيران فرض عين في حالات خاصة، وقد تتكاثر الحالات فيشترك في الالتزام بها كثيرون.

والمعاملات تجارة مع الله والناس، واكتساب الرزق فيها نهوض بحاجات الجماعة وأفرادها، وفيها مرافق ومهن في الزراعة والصناعة والتجارة وأداء الخدمات ... وكان الأولون يؤثرون الصانع على الزارع، ومن الأقاليم ما يحوج إلى الزراعة فتكون طلبة المجتمع، لكن التاجر الصدوق يحترف أشرف الحرف. فمن العشرة الذين بشرهم صاحب الشريعة بالجنة خمسة بلغوا شأوا عاليا في التجارة، وكانت تجارة مع الله ورسوله ومع الناس، وكانوا يعملون بأنفسهم في أموالهم، أو بوكلائهم...

وفي الإنفاق تبعات على صاحب المال: فيتعين أن يكون اكتسابه من حلال، وإنفاقه في حلال، وألا يتخذ ذريعة لحرام، أو يكنز ليتكاثر، أو يمن به على أحد عند إنفاقه، أو يكون سبباً للبطالة. وهذه واجبات ستة.

وهو – تعالى – يقول: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم﴾[٩١] ليعلمنا أنه رقيب على كل نشاط، وأنه يجزى على كل عمل.

ورسول الله –ﷺ– يقول: "إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المكفى الفارغ".

وللنقود في الإسلام وظيفتها التى تواضع الناس عليها: أنها أداة تعامل، وليست سلعا تباع، أو يكون لها فائدة فيما عدا استعمالها كأثمان للعمليات الاقتصادية، ولذلك يأمر القرآن الكريم بعدم حجبها عن الأسواق من كنز أو شح، جاء في سورة التوبة: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في

---

(٩١) سورة آل عمران الآية ١٨٦

سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[٩٢].

وقيمة المال في استعماله، وهو يتناقص بعدم الاستعمال أو سوء الاستعمال، ولذلك يأمر رسول الله -ﷺ- بالعمل في مال اليتيم حتى لا تأكله الزكاة في انتظار أن يبلغ اليتيم رشده.

ودوران النقود في مجال التعامل أداة تفريج عن الناس، وتمكين لهم من حوائجهم.

ومن أجل ذلك كان في كنز المال إفساد للتعامل بحرمان السوق - أو الناس - مما يكنزه الكانزون، إلى جوار حرمان الكانزين أنفسهم من تثمير المال، وليس أبأس من الذين يملكون العون ولا يعينون، والكانزون والمرابون والسارقون في صعيد واحد من العذاب.

المبحث السادس:

مال الدولة

إذا كان المسلم يحاسب على ماله في الدنيا والآخرة فالدولة مسئولة عن حساب عمالها، وهي بدورها خاضعة للحساب.

كان عمر ينهى عماله عن الاتجار بمال الرعية، ويشاطرهم ما زاد عندهم من المال، وكان لا يدخل الخراج بيت المال إلا إذا شهد جماعة من الصالحين أنه لم يجمع بإعنات أو إرهاق.

وكما كان أعدل الناس في جمع أموال الأمة كان أفطنهم في المحافظة عليها:

---

(٩٢) سورة التوبة الآيتان ٣٤، ٣٥

كتب إليه عمرو بن العاص بعد فتح مصر أن حاكمها المنهزم (المقوقس) يسأله أن يبيعه سفح "جبل المقطم" بسبعين ألف دينار!.

ورد عمر فأرسل إليه يسأله: لماذا يشترى جبلاً ليس فيه بئر ولا ماء؟

فسأل المقوقس. فأجاب: لأننا نجد صفته في كتبنا أن في أرضه غراس الجنة.

ولما بلغ هذا الجواب عمر كتب إلى عمرو: "إنا لا نعرف غراس الجنة إلا للمؤمنين، فاقبرفيها مَنْ قِبَلَكَ من المسلمين".

وأمير المؤمنين يدرك بأساء المنهزم، وتعلقه بما خلفه، وأحلامه في العودة إليه، لكنه يحسن الجواب لعمرو، ويلقن هذا السياسى الأشهر بين ولاته أن المسلمين أحق بوطنهم من المقوقس أو دولته.

المبحث السابع:

التداين والقرض الحسن

للناس على صاحب المال إذا أقرضهم أن يكون "قرضاً حسناً" أي: غير مشروط بمنفعة للمقرض عند اقتضاء دينه، وإلا كان قرضاً محرماً، لما فيه من "الربا"(٩٣).

وفي مقابل ذلك يلتزم المقترض بالرد في ميعاده، ولتيسير الرد على المقترض كانت نظرة الميسرة، وإذا تخلف عن الرد مع اقتداره على السداد كان ظالما وحق تعزيره، والعجز عن السداد في الميعاد عذر، لكن الامتناع عند القدرة مطال، أو بادرة غدر يحل به عرضه باللوم، وتحق مسئوليته بالإجبار على السداد، ولو احتاجوا لتعزيره عزروه.

---

(٩٣) وهو موضوع الفصل الثانى من الباب الرابع من هذا الكتاب

والقرض الحسن مال طيب، والوفاء به وفاء بعهد، والله – تعالى – يأمر بالوفاء بالعهود، ورسوله –ﷺ– يقول لأمته: "عِدَة المؤمن دين"، وفي غزوة بدر كان –ﷺ– أحوج القواد إلى جندى واحد، لكن حذيفة قال له: إنه وأباه قد قطعا عهداً للمشركين ألا يحارباهم وتركوهما ليهاجرا إلى المدينة، وأضاف هو وأبوه: إن شئت قاتلنا معك.

قال –ﷺ–: بل تفيان، ونستعين الله عليهم.

وأعان الله بانتصار بدر.

ورسول الله يشجع على الوفاء بقوله: "من مشى إلى غَريمه بحقه صلت عليه دواب الأرض وأنبت الله له بكل خطوة شجرة في الجنة".

وقوله: "لَى الواجد ظلم يبيح عرضه وماله" وقوله: "مطل الغنى ظلم" ويحذر من المطال فيقول: "إن لصاحب الحق مقالاً".

ويحذر من الاستدانة مع نية عدم السداد، فيقول: "من ادان دينا وهو يحدث نفسه بقضائه أعانه الله، أما من ادان دينا وفي نيته عدم الوفاء فهو سارق".

ولا يبرأ المدين من المسئولية عن الوفاء إذا مات عن غير مال يسدد به دائنه فرسول الله يسأل إذا جاءه القوم بميت للصلاة عليه: هل ترك ديناً وليس في تركته ما يسدده؟ فإن قالوا: نعم قال لهم: صلوا على صاحبكم، ورفض أن يصلى عليه.

وروى أبو سعيد الخدرى: كنا مع رسول الله في جنازة، فلما وضعت قال هل على صاحبكم دين؟ قالوا: نعم، درهمان... فقال عِلى: هما علَى يا رسول الله.

قال –ﷺ–: "جزاك الله عن الإسلام خيرا، وفك رهانك كما فككت رهان أخيك".

والله – تعالى – يقول: ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾[٩٤] فالنظرة حتى يزول الإعسار لطف من الله بالمعسر حتى يستعيد قدرته على الوفاء، ونبى الله يحث على إنظار المعسرين بقوله: "من أنظر معسرا – بعد حلول الدين – جزاه الله بكل يوم صدقة".

والفقهاء على أن المدين لا يخرج من حالة الإعسار إذا كان يملك دارا، أو ثياباً تجمله، أو يستخدم خادما أو أداة انتقال أو حرفة أو أكثر ما دامت به حاجة إليها.. وهكذا يرتفع الفقه بالحد الأدنى لمعيشة المسلم.

والقرض أداة إسهام في "تدفق المال" في مصلحة المقترضين والمساكين والمحتاجين، كسائر الصدقات، فهذه معونات، منها المرئى، ومنها ما لا يعرفه إلا الله، وهو خير الصدقة.

والرسول الكريم يشجع على سداد الدين بقوله: "أفضل الأعمال أن تدخل في أخيك سروراً، أو تقضى دينه، أو تطعمه خبزاً".

وقد خص الشارع سداد الدين بسهم من أسهم الزكاة، لأثر القرض الحسن في سداد الحاجات للضعفة العاجزين عن السداد، وهو وجه سيولة للنقود تنتعش به الأسواق والمجتمعات، وكلما سدد مدين قرضه أمكن المقرض أن يتصدق من جديد إن لم يكن محتاجاً للمال.

ورد الدين قضاء حق ووفاء بعهد، والأصوليون ينقلون عن "سحنون" واضع مدونة مالك قوله: "رد دانق – سدس درهم – مما حرم الله تعالى أفضل من سبعين ألف حجة تتبعها عمرة مبرورة، وسبعين ألف فرس في سبيل الله، وسبعين ألف بدنة، وسبعين ألف رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل".

---

(٩٤) سورة البقرة الآية ٢٨٠

قالوا: لأن رد الدانق رد مظلمة فهو واجب، وما عداه تطوع، والتطوع - وإن كثر - لا يقوم مقام الواجب وإن قل.

ولما فتح الله الفتوح على المسلمين كان -ﷺ- يقول: "أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفى من المؤمنين فترك دينا فعلى قضاؤه".

وإنما تساهلوا عند العجز عن السداد تضامنا مع المعوز، وتشددوا مع المماطل ليشجعوا المقرضين على التعاون بالإقراض وبالرد، وكانوا يؤثرون في صدقاتهم الإقراض والرد، ثم إقراض المال نفسه ثم رده.

فهذه دورة للمال مندوب إليها، أو دورات.

والإمام جعفر الصادق يقول: ألف درهم أقرضها مرتين أحب إلى من أن أتصدق بها.

والرسول -ﷺ- يقول: "أعطوا السائل ولو جاء على فرس".

وسأل الإمام جعفر الصادق - شيخ أبى حنيفة ومالك - واحدا من شيعته: ما بال أخيك يشكوك؟ وأجاب الرجل: يشكونى إذ استقصيت عليه حقى عنده.

قال الإمام: كأنك إذا استقصيت حقك عليه لم تسئ إليه؟ أرأيت ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب؟ فمن استقصى فقد اساء، وتلا قوله - تعالى - ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾(٩٥).

السؤال: وكان الإمام جعفر يقول: إنما المعروف ابتداء، فأما ما أعطيت بعدما سال السائل فإنما هو مكافأة مكان ما بذل من ماء وجهه.

ولحفظ ماء الوجه سمواً السؤال في القرن الثانى للهجرة الزوار.

---

(٩٥) سورة الرعد الآية ٢١

ورسول الله -ﷺ- يستقبح أن يكون السؤال حرفة ويحدد حالاته بقوله لصاحبه: "يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حَمالة، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجة من قومه: لقد أصابت فلانا فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما وسدادا من عيش. فما سواهن يا قبيصة سحت، يأكل صاحبها سحتا".

المبحث الثامن:

المِلك

١- حصل الفقه أصل الملكية في القاعدة ٨٦ من قواعد ابن رجب الحنبلى فيما يلى: إنما مالك الأعيان خالقها - سبحان وتعالى - وإن العباد لا يملكون سوى الانتفاع بها على الوجه المأذون به شرعا، فمن كان مالكا لعموم الانتفاع فهو المالك المطلق، ومن كان مالكا لنوع فيه فهو ملك مقيد، ويختص باسم خاص كالمستأجر والمستعير، وغير ذلك.

٢- والحيازة في المنقول سند ظاهر للملكية حتى يثبت الغصب أو النصب او السرقة.

٣- والملكية مصونة (وللملك حرمة) بمثل ما أن (للنفس حرمة) والإسلام يعاقب على سرقة المال بحد يلى حد الزنا في الشدة، لما في الجريمتين من عدوان على النفس أو العرض أو النسب أو المال، وإذا عفا المجنى عليه في السرقة، أو تصالح قبل التبليغ ففى الصلح خير، والعفو أعلى درجة.. وفي عام المجاعة لم يتحقق معنى السرقة للجياع الذين سرقوا ناقة ليأكلوها.

٤- والشارع - بوجه عام - يحمي الملك بآية السرقة ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾[٩٦] ولما سرقت فتاة من قريش وسط القوم إلى رسول الله أسامة بن زيد، فقال له -ﷺ-: "أتشفع في حد من حدود الله؟" ثم قام خطيباً فقال: "يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها".

وفي أحكام القرآن للجصاص عن عبد الله بن مسعود قال: "لا تقطع اليد إلا في دينار أو عشرة دراهم".

٥- ومعنى السرقة: أخذ المال على وجه الخفية والاستتار، ومسارقة النظر إذا كان يستخفي بذلك، فإن اختطف أو اختلس لم يكن سارقاً، وهناك قول فقهي بقطع يد المختلس، والفقهاء على غير ذلك، لروايات عن رسول الله -ﷺ-: منها "وليس على الخائن ولا على المختلس قطع" وعن جابر أنه قال "ليس على المنتهب قطع".

فالسرقة إذن: أخذ في خفاء. وإذا لم تنطبق شروط الحد وقعت عقوبة التعزير.

والإمام أحمد بن حنبل يروى عن أم المؤمنين عائشة قولها: "إن المخزومية التى قطع رسول الله يدها كانت تستعير المتاع وتجحده، فأمر النبى بقطع يدها.

ويقول الإمام أحمد عن هذا القول "لا أعرف شيئا يدفعه".

(٩٦) سورة المائدة الآية ٣٨

والفارق بين السرقة وبين جحود الودائع والديون والعوارى كبير، فالسرقة أخذ للشيء، وما عداها منع للحقوق، وأكثر أهل العلم يشترطون أن يكون المسروق في حرز، ويخرجه السارق منه... أما الظاهرية فيقررون أن السرقة بحسب النص هى كل أخذ للشيء على سبيل الاستخفاء.

فمعنى هتك الحرز واضح في الفقه، وهو موضع الأمانة التى ينتهك السارق حرمتها، فإذا لم يتحقق هذا الانتهاك تحققا كاملا فلا تقطع اليد، ويجوز عندئذ التعزير.

ولا قطع لمن سرق من بيت المال، لأن للمسلم فيه حقا، فيكون شبهة في توقيع الحد، ورسول الله -ﷺ- يقول "تدرأ الحدود بالشبهات"(٩٧).

٦- والشارع يحمى الملكية الأدبية، وقد خلف لنا التاريخ في ذلك قضية التلاميذ في جامع عمرو بمصر: كان عبد الرحمن بن القاسم - من كبار تلاميذ مالك - يعلم الفقه المالكى، وجاءه أسد بن الفرات بأسئلة تعلمها على محمد بن الحسن صاحب أبن حنيفة في بغداد، التمس فيها إجابات من ابن القاسم، ونقل الإجابات تلاميذ ابى القاسم بغير موافقة أسد فشكاهم إلى القاضى، فحكم له ضدهم، وسألهم: لماذا لم تكتبوا مثله.

لكنه في خارج الجلسة علم أسدا ألا يضن بالعلم عليهم، فأذن لهم.

وعاد أسد "بالأسدية" إلى تونس يعلم فقه مالك، ويعلم فقه الدولة الرسمى بمذهب أبى حنيفة، ونقلها تلميذه "سحنون" وخف بها إلى مصر يعرضها على ابن القاسم، فأجرى فيها تصحيحات أو تعديلات، وأضاف إليها سحنون إضافات وسماها "المدونة" فصارت السجل الكامل لفقه مالك للآن، وانتقلت إلى

---

(٩٧) ومن المعاصرين من أحصى توقيع الحد في الزنا والسرقة وقرر أن الحد لم يطبق فيهما إلا بضع مرات على مدى قرون "العدد الأول لمجلة اتحاد الجامعات الإسلامية"، بحث الدكتور عبد المجيد محمود مطلوب

المغرب والآندلس وجعلها القضاء شعارا للحضارة الفقهية، فكان الأندلسيون لا يأذنون لعالم أن يعلم سواها. وأسد هو قائد الأسطول الذى فتح صقلية للإسلام وفيها قبره.

٧- ويجوز أن يقطع الإمام الأرض لمن يعمل فيها إذا كان لها ساكن وانقرض، فصار أمرها إلى الإمام، أو كانت من الأرض الموات التى لم يحيها أحد بوضع اليد أو بالشراء أو بالميراث، مسلما كان أو معاهدا. ويشترط بعض المذاهب إذن الإمام، وبعضها لا يشترط، وقد وهب رسول الله -ﷺ- أمية بن خلف واديا بتمامه ليس له مالك... وجاءه الداريون بعد انصرافه من "تبوك" قال زعيمهم لنا جيرة من الروم لهم قريتان، هما جيرون، وبيت عينون، فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لى، قال -ﷺ-: (هما لك) وأقام الوفد بالمدينة حتى توفى رسول الله -ﷺ- فكتب لهم أبو بكر كتابا بذلك.

٨- ولما جاء فاتحو العراق إلى أمير المؤمنين عمر مطالبين بملكية الأرض المفتوحة باعتبارها من غنائمهم استشار المهاجرين الأولين، فاختلفوا، ورأى عمر بقاء الأرض لأصحابها، وفرض الخراج أو الجزية عليهم، فأرسل إلى عشرة من الأنصار: خمسة من الأوس، وخمسة من الخزرج، من أشرافهم وكبرائهم واجتمع المهاجرون والأنصار للأمر العظيم في تاريخ الإسلام، قال لهم: إنى واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفنى من خالفنى، ووافقنى من وافقنى، معكم اليوم كتاب ينطق بالحق "يقصد القرآن" فوالله ما أريد إلا الحق.

وبقيت المسألة ثلاثة أيام حتى فتح الله عليه بالقرآن - كما رواه الزهرى - بالاستناد إلى الآيات من ٦ - ١٠ من سورة الحشر، مع الآية الأولى من سورة الإنفال.

ثم قال: أرايتم هذه الثغور؟! لابد لها من رجال يلزمونها؟ أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابد لها من الشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم؟ فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ويجر عليهم ما يتقوون به؟

٩- وفيما عدا الأرض فالإمام مخير في الغنائم، يقسمها أو يتركها للفاتحين، إن قسمها فبقول الله تعالى في سورة الأنفال، وإن تركها فبعمل رسول الله في فتح مكة، وإن قسم على قوم معينين فبعمله في أرض خيبر.

١٠- ومن حرمة الملكية جاز القتل دفاعا عنها، وقال الرسول الكريم: "من قُتل دون ماله فهو شهيدا".

المبحث التاسع:

حسن استعمال المال والرحمة بالحيوان

والحقوق في الإسلام تنشأ مقيدة بتقوى الله فيها، ومن أظهر هذه القيود حسن الاستعمال، ومنها كانت الرحمة بالحيوان واجبا على الإنسان.

والرحمة حق الله على خلقه، يقول - جل ثناؤه -: ﴿الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾(٩٨) ويقول: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾(٩٩).

ويقول: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾(١٠٠) وهو تعالى قد كتب على نفسه الرحمة.

وكان -ﷺ- يقول: "من لا يَرحم لا يُرحم".

---

(٩٨) سورة الشورى الآية ١٧

(٩٩) سورة الأنبياء الآية ٤٧

(١٠٠) سورة الأعراف الآية ١٥٦

سمع أعرابياً يقول: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، فقال له: "لقد حجرت واسعا يا أعرابي" .. وأي حجر!!.

ويقول -ﷺ- لصحبه: "بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، وجد بئراً فنزل فيها وشرب منها، ثم خرج فإذا كلب يلهث، فنزل البئر وملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب فغفر الله له".

ولقد سألوه يوماً: يا رسول الله، إن لنا في البهائم لأجرا؟ وأجاب: "في كل ذات كبد حدى أجر".

وهو القائل: "دخلت النارَ أمراةٌ في هرة حبستها ولم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض" وشهده المسلمون يصغى الإناء للهرة لتروى حتى تشبع.

ولقد شهده المسلمون على رأس عشرة آلاف مقاتل لفتح مكة، لهم ضجة ورجة، رأى كلبه تسهر على أولادها فألزمها جعيل بن سراقة حتى يمر الجيش دون أن تصاب بأذى، أو يصاب صغارها.

وسمعوه إذ مر ببعير لصق بطنه بظهره من الجوع، فقال "اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة".

وكان ينهى عن ضرب الحيوان في وجهه، أو وسمه في وجهه، ويقول "إن الله يحب الإحسان في كل شيء، فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته".

ورأى رجلاً أضجع شاة يحد شفرته فقال له: "أتريد أن تميتها موتاتٍ؟! هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها؟!".

وجاءه أعرابي بفراخ طائر وضعهن في كسائه، وجاءت أمهن فطارت فوق رأسه، وأمره النبي -ﷺ- بوضعهن فوضعهن، وجاءت الأم فأبت فراقهن، قال -ﷺ-: "أذهب فضعهن حيث أخذتهن والذى بعثني بالحق للهُ

أرحم بعباده من أم الفراخ بفراخها، ارجع بهن فضعهن من حيث أخذتهن، وأمهن معهن".

١- وتأسى المسلمون بهذه الأُسى العظيمة لنجد الإمام أحمد بن حنبل - بعد نيف وقرنين - مدعوا لدى الخليفة المتوكل، فاصطحب تلميذاً له وضع معه طعامه الخاص، وفيما هو في الطريق جلس الإمام وتلميذه يطعمان (كوز ماء ورغيفاً) وأغرت سماحة وجهه كلباً شهدهما، فوقف أمامهما وحرك ذنبه كالمستأذن، فراح أحمد يقاسمه غذاءه: لقمة لقاء لقمة، وخاف التلميذ أن يضر الكلب بقوت الإمام، فنحى الكلب من بين يديه، واحمار وجه إمام المسلمين، ولم يعز تلميذه في الخطاب، واكتفى بأن قال له يعلمه: "لها أنفس سوء".

٢- حتى دودة القز يرحمها أحمد في معرض استعمال الحقوق، سألوه عن تشميس دودة القز لتموت في نسيجها قبل أن تقرضه؟ فأجاب إذا لم يجدوا منه بُداً، ولم يريدوا تعذيبه بالشمس، فليس به بأس. فهو لا يبيح تعريض الدودة للشمس إلا لضرورات الصناعة، وهو المبدأ في التعامل مع الحيوان: يستخدم لمصلحة، وبإحسان.

٣- والأصل في هذا قوله -ﷺ- "مِن قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله - عز وَجل - يوم القيامة يقول: يارب قتلني عبثاً ولم يقتلني لمنفعة".

ومن حسن استعمال الحق نرى الإنسان مكلفا بأن ينتفع به الانتفاع الذى أعد له، وهو بوجه عام ممنوع من إتلافه كمنعه من إتلاف ملك غيره، أو ما ليس مملوكاً لأحد، فالله قد خلق الأشياء لحكمة، وهو يقبل التغيير للمنفعة، وهو - تبارك وتعالى - يقول: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[١٠١] ويقول: ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم اللعنة ولهم سوء

(١٠١) سورة العنكبوت الآية ٣٦

الدار﴾[١٠٢].

والخلافة في الأرض تمنع من الفساد، والسوى لا يتلف الأشـياء لشـهوة، وإنما يغيرها أو يطورها لمصلحة له أو للناس.

وإذا كان الإسراف في الماء – ولو على نهر جار – وجه إتلاف، فكذلك كل إتلاف أو إسراف.

(١٠٢) سورة الرعد الآية ٢٥

الفرع الثانى
منظومة التعاون

المبحث الأول

تعاون المجتمع

يقول بعض المعاصرين إن الاقتصاد الإسلامي قائم على التعاون، فالعمل بين أن يكون عملا بنفس العامل أو عملا من صاحب المال به أو بشركة مع غيره كالمقارضة بين صاحب المال للعامل به، أو الشركة التى يضع الشركاء شروطها.

والمسلمون عند شروطهم.

والتعاون في هذا الفرع ليس مقصوداً به أن الإنسان مدنى بالطبع وإنما المقصود به معنى اقتصادى فيه حقوق وواجبات وأسس لبناء الأمة والدولة.

والتعاون ظاهر في وجوه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو تعالى يأمر به المسلمين أمرا حاسما، بقوله - تعالى - ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[١٠٣]، وقوله: ﴿واعتصموا بحبل ا لله جميعاً ولا تفرقوا﴾[١٠٤] وقوله: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعضٍ﴾[١٠٥] وقوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[١٠٦] وقوله: ﴿إن هذه

(١٠٣) سورة المائدة الآية ٢

(١٠٤) سورة آل عمران الآية ١٠٣

(١٠٥) سورة التوبه الآية ٧١

(١٠٦) سورة آل عمران الآية ١١٠

أمتكم أمةً واحدةً﴾[١٠٧].

والأمة الإسلامية أمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

١- الواجبات الكفائية تجعل المسلمين متعاونين في فروض من ألزم الفروض وأعظمها خطرا كالجهاد والتعليم. والواجب العينى نفسه يجعلهم متعاونين، وكصلاة الجمعة كل أسبوع، وصلاة الجماعة في كل الفروض، وهى تعدل صلاة الفرد سبعا وعشرين مرة.

وفي كل عمل جماعى وجه تعاون.

٢- في فرض الزكاة معونة من القادر لغير القادر، تحددت السهام، وتعددت المصارف ليصيب منها أكثر المحتاجين في الأمة، ثم أطلق الشارع الصدقات وكثرها وحسنها وأثاب عليها، ليقبل عليها المسلم كإقباله على صلاة الجماعة.

٣- التعاون على تحرير الرقاب مفروض على مالك الرقبة، وقد جعله الله مصرفاً من مصارف الزكاة، وأمر بمكاتبة الرقيق إذا طلب، كما جعل التحرير كفارة. وتكاثرت سنن الرسول في هذا الشأن، وهو -ﷺ- يجعل جزاء ظلم العبد عتقه، ويلزم كل صاحب رقيق أن يطعمه مما يطعم، ويلبسه مما يلبس، كعضو في العائلة له حقوق مقررة.

قال - تبارك وتعالى - ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم﴾[١٠٨].

وفي هذا الباب الواسع وضع عمر قاعدة للتفريج على المكاتبين بالإذن بإيداع المقابل في بيت المال إن رفض السيد تسلمه تعطيلا للتحرير.

---

(١٠٧) سورة الأنبياء الآية ٩٢

(١٠٨) سورة النور الآية ٣٣

كان الصحابة زعماء في التحرير، وقد خلد التاريخ صنيع أبى بكر بمقولة تجرى على الألسن: "أبو بكر سيدنا، وقد حرر سيدنا" يقصدون مؤذن الرسول بلال بن رباح.

٤- وفريضة الشورى تعاون وفي البيعة للإمام وطاعته وجوه تعاون.

٥- وفريضة الصوم توجيه للتعاون مع الجياع والظماء.

٦- وفريضة الحج أداة تعاون من كل فج عميق.

٧- ونفذ الرسول الكريم وصحبه التعاون في الضرورات وفي الحاجات والمباحات إليك بعض الأمثال:

أ - يقول - عليه الصلاة والسلام -: "إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو حملوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموا بينهم في إناء واحد، فهم منى وأنا منهم" وقد أمر بمثل ذلك في بعض الغزوات.

ب - ويروى عنه أبو سعيد الخدرى: "من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له..." قالوا: فمازال يعدد المال حتى ظننا أن ليس لأحد منا حق في فضل.

ج - والحديث الثالث نختاره من عمله -ﷺ- في غزوة خيبر: كان البرد زمهريرا، وأمرهم رسول الله -ﷺ- بقوله: "من له لحاف فليلحف من لا لحاف له". ولم يكن لتابعه أبى رافع لحاف، فألحفه - عليه الصلاة والسلام- معه بلحافه الكريم.

٨- كان أبو بكر أنموذج تعاون المسلم مع جيرانه كما أسلفنا، ولما حارب حروب الردة من أجل الزكاة كان يدافع عن التعاون.

٩- وعلى هذا النهج سار عمر:

أ - رأى رجلا يشترى لحما يومين متتابعين، فقال له: (هلا طويت بطنك لجارك وابن عمك؟!).

ب – ورأى رجلا من أهل الذمة جائعاً – وكان طاعناً في السن – فأخذ بيده إلى صاحب بيت المال وقرأ عليه (إنما الصدقات للفقراء والمساكين..) وهذا من مساكين أهل الكتاب، فأعطاه حقه منه، ورفع الجزية عنه.

ج – وفي طريقه إلى دمشق مر بمرضى من النصارى "فأجرى" عليهم القوت، فصار راتبا لهم، وأمر بأن يُعَاوَنُوا من صدقات المسلمين.

١٠– وكان الصحابة يعيشون متعاونين – مهاجرين وأنصاراً – في العمل والملك والتناصح، لا يفترقون إلا أن يتلوا معاً سورة العصر: ﴿والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ والتواصي تعاون.

١١– والتناصح تعاون قال رسول الله –ﷺ–: "الدين النصيحة. قالوا: لمن يارسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم".

والله – تعالى – هو القائل: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾، والولاية قرابة أو مناصرة.

١٢– والله – جل شأنه – جعل عدم الحض على طعام المسكين تكذيبا بالدين، فقال في سورة الماعون ﴿أرأيت الذى يكذب بالدين، فذلك الذى يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين﴾[١٠٩] بل جعل عدم التحاض جريرة عامة في الأمة، حيث قال: ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحاضون على طعام المسكين﴾[١١٠].

يقول الإمام محمد عبده: "وإنما ذكر التحاض على الطعام، ولم يكتف

(١٠٩) سورة الماعون الآيات ١ – ٣

(١١٠) سورة الفجر الآيتان ١٧ – ١٨

بالإطعام .. ليصرح لك بالبيان الجلى أن "أفراد الأمة متكافلون" والتكافل آية تعاون.

ولقد ذم الله – تعالى – أمة بأنهم ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾[111] ولما استثنى الله من الخسران استثنى ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[112].

والتواصى بالحق وجه تكافل، وتداول للأشياء وتفاعل.

١٣– والمعروف – عند المفسرين –: أمر جامع لكل ما عرف من طاعة الله من وجوب أو ندب، والمنكر كل ما طلب الشارع تغييره على سبيل التحريم أو الكراهة، ومن المعاصى صغائر يجعلها التكرار كبائر بالتكاثر إذ تصبح سوء سلوك، في حين يتواءم المجتمع بالنزاهة ويتلاحم ويتصاون للحفاظ على القيم الصحيحة ولو كان في ذلك وجه مشقة.

١٤– وفي الأسرة يقول صاحب الشريعة: "أفضل الصدقة الصدقة على ذى الرحم الكاشح" ويقول "الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم تنتان".

١٥– ونظام الميراث يجمع على تركة واحدة فروع شجرة الميراث والنسب والقرابة بنظام بالغ الإحكام في التعاون.

١٦– ومثله نظام النفقات فكل من ينطبق عليه وصف الوارث يحق له – أو عليه – أن ينفق – أو ينفق عليه – من شجرة الأسرة.

وفي تضامنها يقول الشيخ أحمد إبراهيم في كتابه (نظام النفقات) "القاعدة الكلية لذلك أن غنى الأسرة ينفق على فقيرها، سواء أكان الغنى صغيراً أم كبيراً، عاقلاً أم مجنوناً، والفقير كذلك، واعتبر الشارع نفقة الغنى

---

(١١١) سورة المائدة الآية ٧٩

(١١٢) سورة العصر الآية ٣

على أقاربه الفقراء بما يدفع حاجة الفقير بمنزلة نفقته على نفسه، وهذا صنيع حسن جداً يقضى به "تضامن" الأسرة كلها".

وفي التزامات الزوج بأصناف النفقات تمكين للأسرة، وتوزيع بديع للتبعات يقتضيه حسن التبعل، ومن هذا الباب الواسع تؤخذ نفقة الحامل المتوفى زوجها من نصيب حملها المحجوز له حتى يولد.

١٧- حقوق الجار ميدان فسيح للتعاون: يقول اللـه تعالى ﴿وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب﴾(١١٣) فالجيران طوائف لا طائفة واحدة.

أ - وقد شرح رسول الله -ﷺ- وصاة الله تعالى بالجار أبلغ الشروح حيث قال: "مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" وإنما أراد معنى عاماً: هو أن يجعله كواحد من الأسرة، أو أن يجعل له حقا في مالها، ولقد أدخله -ﷺ- في صميم الإيمان بقوله: "ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم".

- بل يحلف بالله مثنى وثلاث على حقوق الجار "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن"، قالوا: من يارسول الله؟ قال: الذى لا يأمن جاره بوائقه".

فهذان حقان في الطعام والأمان التام والله تعالى يصف نفسه بأنه ﴿الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾(١١٤).

- وحق ثالث: هو حقه في العفو عنه، فمن مكارمه -ﷺ- سؤاله عن الجار اليهودى الذى تعود أن يضع الشوك في طريقه، وهداه الصفح فدخل في الإسلام.

(١١٣) سورة النساء الآية ٣٦

(١١٤) سورة قريش الآية ٤

- ويشرح القسطلانى وصية جبريل بالجار فيقول: "يوصينى بالجار مسلما كان أو كافراً عابداً أو فاسقاً، صديقاً أو عدواً، غريباً أو بلدياً، ضاراً أو نافعاً، قريباً أو أجنبياً قريب الدار أو بعيدها".

وفي شرح حديث آخر يقول القسطلانى: "الجار ذو الرحم له ثلاثة حقوق، والجار القريب المسلم له حقان، والجار فقط له حق واحد، وهى كأخوة الإسلام التى جاء بها جبريل".

وفي هذا الإطار ندرك تعبد عبد الله بن عمر - وكان أكثرالناس تتبعا لآثار رسول الله - حيث كان عبد الله يقول لخادمه: "إذا ذبحت فابدأ بجارنا اليهودى" ونرى هنا إيثاراً لليهودى أو الذمى إذا كان بين الجيران، وما هو إلا اتباع لرسول الله -ﷺ- إذ نهى عمر عن تهديد يهودى خاشن الرسول بالمطالبة بدين لم يحل أجله، فقال -ﷺ-: ""أنا وصاحبى" أحق بغير هذا منك، تأمرنى بالأداء، وتأمره بحسن الاقتضاء" ولما حل الأجل وفي الدينَ وزاد الدائن، فأسلم الرجل.

ب - وهو - عليه الصلاة والسلام - يزيد عدد الجيران على عاتق المسلم ليزيد مجتمعه قوة وسعة فيقول "إن أربعين دارا جار".

والدار - كما يعرفها الدامغانى في الأشباه والنظائر في القرآن - "قد تكون البيت، وقد تكون المدينة".

فللأسرة مسكن أو بيت، وقد يكون في الدار بيوت، وقد يكون في البيت الواحد غرف، أو مساكن في كل منها أسرة، وقد يكون في الدار الواحدة بيوت كثيرة أو حوانيت.

والأوزاعى إمام الشام في القرن الثانى الهجرى يروى بدلا عن الأربعين: مائة، ويضيف أنها مائة من كل ناحية أي: تصبح أربعمائة...وأى هذا كان فأربعون داراً أو مائة يمكن أن تكون بلدة أو مدينة.

١٨- المواطنة: الإسلام يجعل "المواطنة" لحمة، والمسلمون يقولون: حب الوطن من الإيمان، والمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا، ولغير المسلم وعليه ما للمسلمين وعليهم في هذا الباب.

ويقول رسول الرحمة "..ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره..".

١- والمواطنة جيرة في كثير من الأمور وأكثر المواطنين بين مسلمين وأهل ذمة، وأكثر من عداهم "مستأمنون" لهم أوضاع الضيوف الجديرين بالعناية الخاصة، وللضيف أن نعتبره واحداً من أهل الدار، ما أقام فيها وعندئذ ينعم الأجنبى بالمساواة في الحقوق إلا ما يحرمه منه النظام الإدارى أو السياسى.

٢- ومن الفقه ما يصل أهل الذمة بأموال "الزكاة". وتكاثر استخدام الأجانب والتعويل عليهم يؤدى الى أحسن النتائج بالنسبة إليهم، وإن لم تكن دولهم تعامل المسلمين بالمثل.

ولقد طالما أكرمت الدول الإسلامية منذ العصر الأول مثواهم بالمدينة المنورة وفي بغداد ودمشق والقاهرة، وما تزال الدول الإسلامية على العهد من حسن التعاون مع العالم.

وعندما يسجل التاريخ لثغرتنيس بمصر أن ألف سفينة تجوب البحار بينها وبين شواطئ البحر المتوسط بتجارات هذا البحر، فهو يعلن السماحة والأمان والسلام بألف دليل، في عصر لاحق لغزو الصليبيين لمصر والشام.. كما يسجل سماحة مصر للذين حاربوها حروبا أربعة في ربع قرن في القرن العشرين للميلاد متعبدة بقول صاحب الشريعة: "أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك".

١٩- والتكافل لحمة: في القرن الحادى عشر الميلادى "الخامس الهجرى" أعلن ابن حزم من تطبيقات حديث رسول الله - عليه الصلاة والسلام - "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه" فقال: "إن فرضا على الأغنياء من "كل بلدة" أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك" وقال "يقام لهم ما يأكلون من القوت الذى لا بد منه، ومن اللباس في الصيف والشتاء، وبمثل ذلك من مسكن يكنهم من المطر وحر الصيف، ومن عيون المارة، فإن من ترك أخاه يجوع ويعرى فقد أسلمه"، ثم يستشهد بكلام أمير المؤمنين على: "أن الله فرض على الأغنياء في أموالهم ما يكفى فقراءهم، فإن جاعوا وعروا فبظلم الأغنياء".

٢٠- ومن التكافل عند المسلمين كانت الصدقة الخفية في البيع والشراء، والمساهلة في المعاملة، والسخاء في العطاء يقول - عليه الصلاة والسلام -: "من قلل قلل له، ومن كثر كثر له".

وكان الإمام أحمد بن حنبل يأتدم بالخل، ويعيش على درهم في اليوم، لكنه إذا أولم لضيف أولم بشاة مصلية تحف بها ألوان الطعام، وحضر مرة وليمة للعلماء ظهر البذخ فيها فقال: "لو أن الدنيا جمعت حتى تكون في مقدار لقمة ثم أخذها مسلم ووضعها في فم أخيه المسلم لما كان إسرافا".

٢١- والكلمة الطيبة صدقة ولو قيلت لغنى موسر.

٢٢- ومن ترك مسلما في حرج دون أن يمد له يدا فهو مسؤل عن تركه كمسئوليته عن دفع الضر عنه، والدعاء للمسلم صدقة والرحمة بالغير صدقة. والضيافة منها ما يكون صدقة. وقبول الدعوة معروف وتأليف للقلوب.

- روى عبد الله بن بشر: كنا قاعدين على باب دارنا إذا أقبل رسول الله -ﷺ- على بغلة، قال أبى: ألا تنزل يا رسول الله فتطعم وتدعو لنا

بالبركة؟ فنزل وطعم وقال: "اللهم ارحمهم واغفر لهم وبارك لهم في رزقهم" فما زلنا نعرف من الله – تعالى – السعة في الرزق.

– ودعا – عليه الصلاة والسلام – للمدينة قبل ذلك: "اللهم بارك لنا في مدنا وصاعنا، واجعل لنا مع البركة بركتين" وما تزال بركة المدينة تفيض على أهل الإسلام: راحةً من عَنَاء، وطيبَ هواء، والمسلم يجد فيها أحسن موطن له.

٢٣- ونظام الديات لحمة حتى "لا يطل دم في الإسلام" كما قال – عليه الصلاة والسلام – فعاقله الجانى أهله أو قبيلته تسدد الدين ليتحمل عدد أكبر من قومه مسئولية تضمين الضرر، ثم إن مقدار الدية واحد في شأن الأمير – ولو كان خليفة المسلمين – وفي شأن رجل من السوقة، كلهم عند الله سواء.

٢٤- ونظام القسامة لحمة تحفظ أمن الجماعة، وتضمن ما أحدثه المجهول من ضرر إذ يحلف خمسون من أهل المحلة التى وقع فيها القتل، يختارهم ولى الدم وهو لا يختار إلا الكبراء والأثرياء، أنهم ما قتلوا، ولا علموا بالقاتل، وبعد ذلك تحق عليهم دية القتيل، ومن نكل منهم يحبس حتى يحلف وإن لم يتم العدد تكرر الحلف حتى تتم أيمان خمسون.

وإن كان القتل خطا من معلوم دفعت عاقلته الدية.

٢٥- ومن أوليات النظام الفقهى أن يتحمل من أحدث ضرراً بإنسان مسئولية تضمينه دون أن يلتزم بإثبات خطأ من الجاني.

وبهذه البديهية الإسلامية يتجلى النظام الشرعى الإسلامي بوجهه الإنسانى الذى تحاول أمم الغرب أن تبلغ بعضه، وما هى ببالغة.

٢٦- وأي إنسانية كإنسانية خليفة المسلمين على رأس القرن الأول: عمر بن عبد العزيز (٩٨ – ١٠١هـ) كتب إليه عامله في أحد الأصقاع أنه لم

يجد فقراء يقسم عليهم حقوقهم، فكتب إليه: أنفقها في عتق الرقيق. فأعتق. واستمر الوالى ينفق وتبقى بقية ويسأل حتى أجابه أمير المؤمنين: "أنفقها في جزية من لم يستطع دفع الجزية من أهل الذمة" فهو هنا يؤثر بالصدقة أهل الذمة على بيت مال المسلمين.

٢٧- وإلى جوار الإنسانية من الدولة ومن الأفراد واجب الضيافة الذى يجعل الغريب كالقريب، يقول رسول الله -ﷺ- "من كان يؤمن بالله واليوم الآخرة فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة" والضيافة ثلاثة أيام فيما بعد ذلك بل يقول ابن حزم (٤٥٦) عن ذلك: "فرض على البدوى والحضرى، والفقيه والجاهل: يوم مبرة وإتحاف، ثم ثلاثة أيام ضيافة، فإن منع "هذا الحق" أخذها المرء ممن منعها بالقوة، وكيف أمكنه، أو يقضى له بها القاضى".

٢٨- ويرتفع مستوى الصدقات إلى مستوى الكفارات، وهى أحكام يقضى بها القضاء، وكلها للضعفة أو العجزة من الناس، وفي الطعام واللباس والإعتاق، وكثرتها توجب تكاثر الإنفاق. ومنه ما هو إطعام ستين كحالة الإفطار العمد، وحالة الظهار "القسم على الزوجة بتشبيهها بالأم أو الأخت" ومنه ما هو إطعام عشرة أو كسوتهم وهو كفارة اليمين، ومنه ما هو مرسل لمن شاء وكما شاء المكفر، وكلها تذكر بحق الفقير، والإطعام والكسوة والإكرام قاسم مشترك فيها.

٢٩- ولو استقصى الباحث معانى التعاون لما وقف عند حد في السرد أو في العدد. وحسبنا هنا أن نورد سؤالاً وجوابه لأحمد بن حنبل، إذ سائل: الرجل يكون له عقار يستغله، أو ضيعة تساوى عشرة آلاف درهم أو أقل من ذلك أو أكثر، ولكنها لا تقيمه؟.

وأجاب يأخذ من الزكاة، وقرأ حديثه -ﷺ-: "ليس المسكين الذى ترده الأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذى له غنى، ويستحى أن يسأل الناس

إلحافاً"(١١٥).

وفي موطا مالك: "ليس المسكين الذى يطوف على الناس فترده اللقمة أو اللقمتان.. ولكن المسكين الذى لا يجد له غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس".

وبهذا تتضح مكانة الإنفاق التطوعى في الاقتصاد الإسلامي، وعليه شواهد تملأ أنهار الصحف اليومية الآن.

٣٠- أما سؤال الناس فحكمه وارد في السنة الشريفة، وهى توجب العمل لابتغاء رزق الله، ولما علم رسول الله صاحباً له أن يجمع الحطب ليعيش بدلا من أن يسأل الناس أنهى تعليمه بقوله: له "هذا خير من أن تجئ المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة".

وهو - عليه الصلاة والسلام - يقول "السؤال آخر كسب العبد".

وفيما عددناه من أنواع الاستقراء ما يهدى إلى اتساع التعاون لغير ما ذكرنا.

(١١٥) الآية ٢٧٣ من سورة البقرة: ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾.

الفرع الثالث

الصدقات تعاون مستمر ومال سائل

المبحث الأول:

الصدقات تعاون مستمر ومال سائل

يقول – عليه الصلاة والسلام –: " كل معروف صدقة " والمسلمون مامورون بأن يتداعى المسلم إلى المسلم كما يتداعى أعضاء الجسد بالسهر والحمى، وهذا تكافل يهدف إلى التكامل.

ومن ذلك أن يلقى المسلم السلام ولو على قوم لئام، والبدار به خير، وأن يلقى المرء غيره بوجه طلق، وأن الصدقة الخفية أحب إلى الله من الصدقة المعلنة، ولا يدرك كثيرون" القيمة الاقتصادية " لهذا المقدار من وثاقة العلاقة بين أفراد المجتمع، فى حين يدخل الجار فى أمم الغرب داره غير عابىء بما أصاب جاره.. فى هذه الدار.

والصدقات فى المجتمع الإسلامى رافد اقتصادى يصب فى بحر العلاقات الذى يتدفق فى المجتمعات الإسلامية، سواء بالعمل المالى أو العمل الإنسانى الذى لا يحسب أو يعد كالنقد، وإنما يوزن بمقداره من التعاون والتواصل بالجاه أو بالمال أو بالعلم أو بمودة القلوب، وبسمة الوجوه، ومظاهر الرضا والشكر..

وعندما يصبح إسداء المعروف عادة يتأكد بها ركن من أركان العبادة. هو ذكر الله على أوسع نطاق. وهو- جل شأنه -القائل: ﴿فاذكرونى أذكركم﴾[116].

يقول - سبحانه وتعالى -: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾[117] ويقول: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾[118] ويقول: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾[119] ويقول: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾[120] ويقول: ﴿إن الفضل بيد ا لله يؤتيه من يشاء﴾[121].

ومن العفو والفضل ينبع المعروف ويجرى بين الناس، ويعود الإنفاق على المنفق بنصيبه من فضل الله على عباده فى دنياهم وآخرتهم، ذلك بعض المعنى فى قوله- تعالى-: ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه ا لله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[122] وهو تبارك وتعالى يقول: ﴿ومنهم سابق بالخيرات بإذن ا لله ذلك هو الفضل الكبير﴾[123].

(116) سورة البقرة، الآية: 152

(117) سورة البقرة، الآية: 219.

(118) سورة الأعراف، الآية: 199

(119) سورة آل عمران، الآية: 134.

(120) سورة البقرة، الآية: 237

(121) سوروؤة آل عمران، الآية: 73.

(122) سورة البقرة، الآية : 272.

(123) سورة فاطر، الآية : 32

وفى سورة النور قوله: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾[124].

والرسول الكريم يقول :"إن الله ليدفع بالصدقة ستين سيئة" وهذا رقم يدل على العدد قدر ما يدل على الكثرة.

والصدقات باب واحد من وجوه البر، ولما أجمل القرآن العبارة للتنبيه عليه كان يطلق للإنسان العنان فى وجوهه، ولما فصل كان يأتى بالأمثال على سبيل لفت الأنظار للأولى بالإنفاق.

يقول- تبارك وتعالى -: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[125].

فكل إجراء فيه نصفة أو مرحمة أو معونة أو تفريج كربة من الكرب أو تحية أو وجه مسرة أو إحسان فى الطريقة أو إتقان فى الأداء وجه من وجوه البر، فالمسلم مطالب بالبر بنفسه إذ ينجيها من العثرات، وبغيره من الناس، والمخلوقات، حيوانات كانت أو جمادات...

والعطاء والجود والبر من صفات الخالق سبحانه...

وفى إنفاق الفضل إغراء للمنفق وللناس بتبادل المعروف، تدعوهم إليه أنبل ما وهب الله خلقه من الملكات.

---

(124) سورة النور، الآية : ٢٢

(125) سورة البقرة، الآية : ١٧٧

ولدى كل مكفى فضل يزيد عن حاجتـه تستحب النفس السوية أن ينـال الناس منه، فهم كصاحب الفضل خلفاء لله تعالى فى أرضه.

وليس الفضل فـى "المـال" وحـده، بـل منـه"الجـاه" و"الحكمـه" و"المعرفـه" و"المحبة" للناس"والرحمة" بهم حتى كانت الكلمـة الطيبـة صدقـة، والعمـل بهـا أعظم منها.

ومن فضائل الإنفاق تعـدد وجوهـه قـدر مـا تتعـدد وجـوه الاشـتراك مـع الغير فيما يعالجه، وشموله للخير مع اختلاف المصادر أو المقادير أو الغايـات أو الاوقات، كأنها روافـد صغيرة أو كبيرة تصـب فـى المجـرى العميـق مـن حاجات الضعفاء، ولكل قطرة فيها أثر، والثواب عليها مؤكد...

فهذان تيـاران يتواصـلان بـالخير فـى الأمـه مـن حسـن العطـاء وحسـن التلقى.

ولقد يكون إنفاق الفضل أعظم روافـد الميزانيـة العامـة للأمـة لـو أمكـن حصره، وهو ليس مقصورا على عزهـا ومنعتهـا بـل هـو مستمر حيثمـا كـان "خلق المسلم".

انه – تعالى – يعـالج الأنفس بـالعفو منهـا، أو بـالعفو عنهـا أو بالإنفـاق منها أو عليها، فى غير موضع من كتابه العزيز، وهـو القـائل: ﴿وانفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون. إن تقرضوا الله قرضـاً حسـناً يضاعفـه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم﴾[١٢٦] والقائل ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسـناً

[١٢٦] سورة التغابن، الآيتان : ١٦، ١٧ وفي سورة البقرة : الآية ٢٤٥ ﴿من ذا الـذي يقـرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾.

فيضاعفه له وله أجر كريم﴾[١٢٧] ومع أن المسلم منهى عن الإسراف بوجه عام، فرسول الله يخص الخير بقوله: "ليس فى الخير إسراف".

والصحة تعدى كما يعدى المرض، وللقدوة أثرها فى تربية الأمة.

× × × × × ×

ومن الفقه ما يمنع بيع الدار لسداد الدين، ويإذن لصاحبها أن يسدد من مال الزكاه أو من الصدقة، ومنه ما هو أوسع فيعطى الفقير المطعم والملبس" وسائر "ما لابد منه"، ليعود إلى حاله" مالكاً كان أو غير مالك.

والإمام الشافعى يرى جواز إعطاء نفقة العمر.

وتكرار الصدقة لواحد بعينه واجب مادام يستحق، فقد أعطى أمير المؤمنين عمر وقال: كرروا عليهم الصدقة، ولأكررن وإن راحت عليهم مائة من الأبل.

وكان عمر بن عبد العزيز يسأل أشياخه فيمن يستحقون الصدقة، فكتب إليه ابن شهاب الزهرى يعدد أصناف المستحقين حتى وصل إلى من به عاهة فى" عمله" أو فى إبان " جهاده" وأضاف السائلين حتى" لا يحتاجوا للسؤال" فهذا منع للفقر قبل أن يقع.

---

(١٢٧) سورة الحديد، الآية : ١١ وفي تفسيرها نقل الدكتور عبد الرحمن يسرى في كتابه (قضايا اقتصادية وحرية معاصرة) عن .. عن عبد الله بن مسعود "لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الأنصارى: يارسول الله وإن الله يريد منا القرض؟ قال: "نعم ياأبا الدحداح". قال: أرنى يدك يارسول الله فناوله يده قال: أقرضت ربى حائطى. وبه حائط (حديقة) فيه ستمائة نخلة، أم الدحداح فيه وعيا لهما، فجاء أبو الدحداح فناداها: ياأم الدحداح قالت لبيك. قال اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل. وقيل إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: "رب نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبى الدحداح في الجنة"

ولعمر بن عبد العزيز نصان: أمر وإليه (عدى بن أرطأة) أن يقرأهما على الناس ليصبحوا على بينة منهما فيطلبوهما لأنفسهم من المسؤلين عنها.

١) (أنظر من عندك من أهل الذمة وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت المال" ما يصلحه")

٢) (وقد بلغنى أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل المدينة يسأل على أبواب الناس فقال:" ما أنصفناك، أخذنا منك الجزيةفى سنيك الأولى، ثم ضيعناك فى كبرك" وأخذه إلى بيت المال وفرض له ما يكفيه).

وعلى هذا ذهب بعض أهل الفقه إلى حق أهل الذمه فى الزكاة.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى واليه وقاضيه على المدينة أبى بكر بن حزم: (من هلك وعليه دين لم يكن فى خرفة (سعة) فاقض دينه من بيت مال المسلمين).

والمسلمون مأمورون بسداد دين المدين من سهم الغارمين فى الزكاة إن لم يسددوه، فى حين نقرأ فى الشريعة الرومانية منذ الألواح الأثنى عشر النص التالى: (إذا عجز المدين عن سداد دينه يسترق إن كان حراً، أو يحبس أو يقتل إن كان رقيقاً).

المبحث الثانى:

زكاة التجارة

حسبنا كلمات قليلة تتصل (بفريضة الزكاة) فى التجارة، وقد تتابع الأمر بالصدقة من أول نزول القرآن بمكة، مقترنة بالصلاة ، لكن الآية التى انتظمت أحكام الزكاة جاءت فى سورة التوبة: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين

والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل ا لله وابن السبيل فريضة من ا لله وا لله عليم حكيم﴾[١٢٨].

ويقول– تعالى–: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾[١٢٩] وهذا نص فى وجوب الزكاة على"كل" مال يكتسب من حلال.

ورووا عن سمرة بن جندب: "كان رسول الله يأمرنا أن نخرج الصدقة مما نعد للبيع"

ويشترط لذلك شروط زكاة النقود: من حولان الحول، وبلوغ النصاب المعين – وهو ما يعادل ٨٥ جراماً من الذهب – والفراغ من الدين، والفضل عن الحوائج الأصلية كما يشترط أن يكون العمل بالبيع والشراء بقصد الربح.

والمراد بالسلعة التجارية: السلعة التى أعدت للبيع والشراء لأجل الربح، لا المبانى أو الأثاث أو الأدوات أو السجلات ونحوها مما ليس معداً للبيع والشراء.

والتاجر المسلم يضم: رأس المال، والأرباح، والمدخرات، والديون غير الميؤس من سدادها، ويقوم ذلك مضافاً إلى ما لديه من النقود سواء أستغلها فى التجارة أم لم يستغلها، ويستنزل من مجموع ذلك قيمة ديونه، ثم يخرج الزكاة: ربع العشر ٢,٥٪، فإذا استد بدين كان ميئوساً منه زكاه.

والمعاملات بين أهل الذمة والمسلمين حلال إلا فى السلع المحرمة، فالنبى عامل أهل خيبر على أموالها بنصف ما يخرج منها، على أن يتعهدوها، فهذه شركة فى الزرع والغرس، وفى الثمن.

---

(١٢٨) سورة التوبة، الآية : ٦٠.

(١٢٩) سورة البقرة، الآية : ٢٦٧.

والإمام أحمد يرى أن فصل المال الحرام من المال الحلال يجعل المال الباقى حلالاً.

* * * * * *

لقد نشأ العالم الأوروبى نشأة وثنية تعبد الذات، أو تعبد القوى، أو تعبد الأصنام، وتعكس هذا ثقافة الأغريق والرومان. ثم سقطت روما سنة ٣٩٥م وانهارت الامبراطورية سنة ٤٧٦م لتستغلظ بها ظلمات العصر الوسيط وفيها أنفجر الفجر بالإسلام وأشرقت شمس العلم وشنت أوربه الحروب الصليبية وما تزال تشنها بالوثنية الظالمة لتستعمر الشعوب وتستعبد الناس.

وفى أواخر القرن الثامن الميلادى قسم شارلمان ملك السماوات والأرض مع الكنيسة.

وفى القرن الثامن عشر إزدهرت المعاملات، وكان لأراء (الفريوقراط) ما روج له فى الاقتصاد آدم سميث (١٧٢٣-١٧٩٠) على أساس الحرية الكاملة فى التعامل وفى التربح، فليس للمال- عند الأوروبيين- رائحة وليس لغير صاحبه حق فيه.

وبدأ عصر الآلات فى القرن التاسع عشر الميلادى، وراجت أسواق الإستعمار قروناً حتى أخذت المذاهب الهدامة فى الانتشار "منذرة" بصراع الطبقات ودكتاتورية العمال. والتدخل الحكومى فى النشاط الفردى، واستغل السوفيت حاجة الدول العربية إلى التسليح لخوض الحروب الأربعة التى فرضها على مصر الدفاع عن الأمة العربية فى هذا القرن ابتداء من عام ١٩٤٨ إلي عام ١٩٧٣م.

ومنذ أوائل القرن الحالى نودى بقيام مؤسسات إسلامية للاقتصاد، ووجدت مصارف فيها فروع للاقتصاد الإسلامى تتنامى فى جو غير موات لها يستبد به اقتصاد ربوى عالمى.

وسنرى فى العصر الحالى لمجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر قرارات وللمؤتمر العالمى قرارات ولمجمع الفقه بجده قرارات لا تنظر للتفصيلات، وإنما تعنى بالأصول وتعلن تكريم الخالق- سبحانه – للمسلمين بالوصف" الإنسانى" للاقتصاد الإسلامى وتنبه على الحلال والحرام، ومنها ما ينص على الآداب الشرعية من الرفق والقناعة وعدم التدخل فى شئون السوق إلا لخلل فيها.

الباب الثانى

بين العقيدة والتطبيق الدقيق

" إن الرعية مؤدية إلى الأمير ما أدى الأمير إلى ا لله "

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

الفصل الأول

بين العقيدة والتطبيق الدقيق

" من كد على عياله فهو كالمجاهد في سبيل ا لله "

حديث شريف

(لا خير فيمن لا يجمع المال من حله يكف به وجهه)

سعيد بن المسيب

الفرع الآول
عصر الصحابة والتابعين

المبحث الآول:

عصر الصحابة

فى الفصل الحالى سياحة فى ضمير الزمان، نستعرض تطبيقات رسالة الإسلام منذ نزلت.

كانت غزوة تبوك آخرة الغزوات وأكثرها جنداً، وأشقها حشداً، قصد بها عليه الصلاة والسلام إلى تخوم الروم حيث كان "هرقل" إمبراطور الرومان يحتشد ولم يكتم النبى الكريم استعداده كما هى العادة، وعلم هرقل فانسحب إلى ممتنع بلاده، واكتفى ﷺ بانسحاب العدو إلى داخل بلاده، ورجع بالجيش ظافراً بالسلام، يؤمن القبائل، معلناً أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين وهى حقيقة كبرى تعلنها تجارب أربعة عشر قرناً ولن يتخلف الإعلان حتى آخر الزمان.

الخلفاء الراشدون:

في عصر الصحابة والتابعين وتابيعهم اتخذت الانتصارات سبلها في القارات الثلاث المعروفة في ذلك الزمان:

يقول – عليه الصلاة والسلام –: "خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم" والقرن: الجيل.

ويقول عن صحبه: "أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم".

والله – جل ثناؤه – يقول فيهم: ﴿محمد رسول ا لله والذين معه﴾[130].

ومن هذه "المعية" كانت صلتهم وتقى بالقرآن، إذا افترقوا تلوا سورة العصر وأقسموا قسمها: ﴿والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[131].

والإمام الشافعي يقول عنها: لو لم ينزل غيرها من القرآن لكفت.

ومن كمال العقيدة فيهم كانوا يعتبرون الرياء هو "الشرك الأصغر" ومع ذلك صبر رسول الله على المنافقين، ولم يهتك لهم ستراً، والمقطوع به أن بعضاً حاول ذلك بذكر أسماء له وأستأذنه فلم يأذن. وهى علامة على عالمية المجتمع وسماحة الدين وسيادة الحرية الفكرية والشخصية فيه.

والله – تعالى – يجمع المشركين والمنافقين حيث أراد. قال سبحانه-: ﴿إن ا لله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾[132].

١- لم يكد أبو بكر يتلقى البيعة حتى ثارت القبائل ترفض الطاعة أو التكليف المالى في العبادات، فحاربهم أعظم حروب الإسلام شأناً، ثم وجه جيوشه إلى خارج الحدود للدفاع عن الإسلام، فوحد الأمة تحت راية منتصرة.

وكان أبو بكر في الجاهلية والإسلام تاجراً صدوقاً يعيش من عمله، وقد يرحل إلى الشام ليكسب ما ينفقه، وكان يحكى لرسول الله ﷺ أنباء رحلاته ورفقاء الرحلة من الصحابة، وإذا جند الرسول جيشاً جاءه أبو بكر بكل ماله، ويقول رسول الله له: "ماذا خلفت لأهلك؟" فيقول: خلفت لهم الله ورسوله.

---

(١٣٠) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(١٣١) سورة العصر.

(١٣٢) سورة النساء ، الآية : ١٤٠.

٢- وسار عمر في طريق أبى بكر، بالعدل والمساواة وبالرحمة مجتمعة، فجاع مع الأمة إذ جاعت حتى هزل جسمه.

وكان قائداً أعلى لقواده العظماء، وهم أمين الأمة أبو عبيدة، وسعد بن أبى وقاص فاتح العراق وفارس وعمرو بن العاص - فاتح مصر حتى طرابلس - ومن تعاليمه لهم أقواله الخالدة: (إن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم). وما هى إلا إعلانات في ساحات القتال عن عدم الانفصال بين العقيدة والعمل بها في السلم والحرب والمسلمين وغير المسلمين.

٣- وخلفه صهر النبى عثمان بن عفان، وازدادت في عهده الفتوح في الشرق والغرب والشمال والجنوب، وكان يعمل بالتجارة في حياة الرسول ومن بعده.

وصعدت روحه وجيوش الإسلام تنتصر في آسيا وأفريقية وفي أرمينية.

٤- وجاء دور على بطل حروب النبى، وإمام العلم والزهد والقضاء، وبناء دول يفصح عن عظمته عهده للأشتر النخعى إذ ولاه مصر.

أما بقية العشرة المبشرين بالجنة فهم:

١- **عبد الرحمن بن عوف**: وكان حظه من التجارة عظيماً، وقد قاسم الله ماله مرات أربعة في حياة رسول الله ﷺ في عشرات آلاف الدنانير. وقيل: إنه أعتق في حياته ألف عبد.

وقد أوصى للأحياء من أهل بدر، وكل أخذ نصيبه بما فيهم أمير المؤمنين عثمان.

٢- **طلحة بن عبيد الله**: هو كعبد الرحمن من أوائل المسلمين، ومن أبطال أُحُد، أصيب عبد الرحمن بعشرين جراحة صار بعدها أعرج، وأصيب طلحة بسبعين، كلها في الصدر، ومشاركاته بماله من عهد الرسول معروفة، فهو من أجواد العرب.

٣- **الزبير بن العوام:** ابن عمة رسول الله ﷺ. كان عبيده لا يحصون، وقد أثرى بعد وفاة رسول الله، وهو أول فارس من فرسانه ﷺ وفاتح حصن بابليون بمصر.

٤- **سعد بن أبى وقاص:** قائد فتح العراق وفارس، لم يعرف عنه أنه كان ذا مال كثير، ولاه عمر القيادة، فظفر بجيش الفرس، وكان من أخوال رسول الله.

٥- **أما سعيد بن زيد بن نفيل:** فكان ربانياً مجاهداً، لم تشغله الدنيا، وإن قرآنا عنه أنه في أول الإسلام كان في قافلة من قوافل التجار.

٦- **وأما أبوعبيدة بن الجراح:** فقائد الجيوش المنتصرة في الشام على الرومان، ولما زاره عمر في بيته خرج يقول: كلنا غيرتنا الدنيا إلا أنت ياأبا عبيدة.

وإذا كانت سمة القرن الأول هى فتوح الإسلام التى ليس لها في التاريخ نظائر، فإن سمة القرن الثانى ليست أقل عجباً؛ لأنه قرن العلم الذى ليس له نظائر، فأبوحنيفة من آخر مواليد عصر الصحابة، وجابر بن حيان - أول كيماوى في التاريخ - من آخر مواليد عصر التابعين، وهو طليعة "العلم التجريبى" الذى ورثه العالم الحديث عن المسلمين...

وفي أواخر القرن الثانى وضع الشافعى أصول الفقه، فغدت أصولاً للفهم وللفكر وللعلم، وعليها بنى علماء الاسلام، وفيهم الفلكيون والأطباء والمهندسون والجغرافيون والفلاسفة الذين آلت علومهم إلى أوربة، وكلهم قرآنى أو دارس للقرآن وللسنة.

ومنهم علماء فى كل المذاهب.

ولا عجب إذا أشارت أسماء العلماء إلى عشرات الحرف فى التجارات والصناعات من البقالة إلى الحلوى إلى الصابون حتى تجارة اللؤلؤ

والصرافة، إلى صناعة الأرسان في دولة للعلم، نما فيها الاقتصاد حتى قال (هارون الرشيد) للسحابة المارة: اذهبى حيث شئت يأتى خراجك.

المبحث الثانى:

عصر التابعين وتابعيهم وأئمة الفقه الأربعة

١- ربما ساغ لنا أن نتخذ من سعيد بن المسيب (٩٤هـ)

مثالاً لفقهاء التابعين في القرن الأول، فهو ملقب (بعلامة التابعين) وهو واحد من المعلمين السبعة للمدينة في القرن الأول، وأبوه مخزومى، صحب رسول الله ﷺ.

لم يبايع سعيد لولاة بنى أمية مع ضربه سبعين سوطاً في رفضه الأول، وستين سوطاً في رفضه الثاني، وما رفض إلا لسوء رأيه في الدولة الأموية والدولة المروانية، بل كف عن قبض عطائه زهداً في الدولتين، واكتفى بمرابحة من أربعمائة دينار.

وسيقتفى أثره في الزهد والتعليم والعيش من المرابحة سفيان الثورى ومالك بن أنس، وآخرون من الزهاد والفقهاء.

وبهذا الاستثمار نشهد تطبيقاً للشريعة بنظام الشركة الذى آل إلينا من فقه القرنين الأول والثانى معاً، ومن مأثورات سعيد قوله: (لاخير فيمن لايجمع المال من حله يكف به وجهه عن الناس) وقوله عن مرابحته: (اللهم إنك تعلم أنى لم أمسكه (المال) بخلاً ولا حرصاً ولا محبة للدنيا، ولكن لأعود به على الأرملة والفقير، وإنما أريد أن أصون به وجهى عن بنى مروان).

والغنى عند الأئمة غنى عن المال، وفي ذلك شعر للإمام الشافعى (وليس الغنى إلا عن الشيء لا به).

٢- والإمام جعفر الصادق (١٤٨هـ):

نتاج قرن من العظائم، وهو إمام سياسة وفقه واقتصاد، يقدم نفسه للناس بقوله: (ولدنى رسول الله ﷺ مرتين "من قبل آبائه" وأبو بكر مرتين "من قبل أمه" وكسرى يزدجرد مرتين (لما تزوج ابن أبى بكر -جده - من بنت كسرى) وإليه تنتمى فرق الشيعة الإمامية أو الإسماعيلية.

وهو - بعد - إمام لمالك بن أنس، وشيخ لأبى حنيفة، وهذان إمامان لأهل السنة، وعليهما تعلم باقى أئمة السنة، فالشافعى تلميذ لمحمد بن الحسن - صاحب أبى حنيفة - ولمالك بن أنس، والشافعى شيخ أحمد ابن حنبل.

وقد شرحنا منهج الإمام جعفر الاقتصادى والسياسى بتفصيل في كتابنا عنه[١٣٣]، وحسبنا هنا مايدخلنا في صميم الاقتصاد و(علم المالية) وماهو إلا منهج جده لأبيه أمير المؤمنين على، وعليه قامت دول كبرى للإسلام في آسيا وأفريقية، وفي الأندلس بأوروبة.

يقول أمير المؤمنين على لواليه على مصر الأشتر النخعى عن مالية الدولة واقتصاد الأفراد:

١- (وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله؛ فإن في صلاحه صلاحاً لمن سواهم؛ لأن الناس عيال على الخراج).

---

(١٣٣) الإمام جعفر الصادق - طبعة دار المعارف.

٢- (وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في جباية الخراج؛ لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، وأهلك العباد ..).

٣- ويقول في خصوص التجارة: (ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات وأوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه.. وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشى بلادك .. واعلم أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً، واحتكارا للمنافع، فامنع الاحتكار).

٤- (ثم اللهَ اللهَ في الطبقة السفلى من الذين لاحيلة لهم، والمساكين والمحتاجين، وأهل البؤس والزمنى .. واجعل لهم قسماً من بيت مالك..).

وتعاليم الإمام جعفر في المال تسقى من هذا الينبوع. وإليك أمثالاً:

١- (مصيبتان لم يسمع بهما في الأولين والآخرين للعبد في ماله عند موته: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله).

٢- (أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق).

٣- (والرفق في تدبير المعيشة خير من السعة في المال).

٤- (ضمنت لمن اقتصد ألا يفتقر).

والتعاون أساس في المذهب.

يقول عنه:

٥- (ليُعنْ بعضكم بعضا، فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول: "إن معونة المسلم للمسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر، واعتكاف شهر في المسجد الحرام".

٦- (إياكم وإعسار أحد من إخوانكم المسلمين؛ فإن أبانا رسول الله كان يقول: "ليس لمسلم أن يعسر مسلماً").

٧- (قيل: يارسول الله، أفى المالى حق سوى الزكاة؟ فأجاب: "نعم، بر الرحم إذا أدبرت، وصلة الجار المسلم، فما أقر بى مسلم شبعان وجاره المسلم جائع" ثم قال: "مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه").

٨- ولما قال تلميذ لجعفر: إنى لا أتغذى إلا ومعى اثنان أو ثلاثة قال: (فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم، إذا دخلوا دخلوا بالرزق الكثير).

٩- (المعروف زكاة النعم).

فما أكثر ما يلزمنا من المعروف. وصدق الله العظيم: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[١٣٤].

١٠- قال صاحب له: رأيت عنده ضيفاً قام يوماً في بعض حوائجه، فنهاه، وقام بنفسه إلى هذه الحاجة. وقال: نهى الرسول عن استخدام الضيف.

١١- والإمام يعمل بيده عند اللزوم، ويلوم من لا يعملون. يعمل بالمسحاة في بستان له، وتنساب حبات العرق على وجهه، ويتسارع الناس لمعاونته فيقول: (إنى أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة) ويقول: (إنى لأعمل في بعض ضياعى؛ ليعلم الله أنى أطلب الرزق الحلال).

١٢- أما العمل في التجارة فنوعان عنده: تجارة مع الله، وأخرى مع الناس. يقول: (إنى لأملق أحياناً فأتاجر مع الله بالصدقة، فيرزقنى وأتسع).

ومن آباء الشيعة سلمان الفارسى وقد عمل لأمير المؤمنين عمر على أصفهان، وكان يهب رزقه من الولاية للناس، ويعمل الخوص بيديه ليعيش.

والإمام جعفر يعلمنا أخلاق التجارة فيقول: (كل ذى صناعة مضطر إلى ثلاث خصال: أن يكون صادقاً، مؤدياً للأمانة، مستميلاً لمن استعمله) وما هذه إلا حسن الخلق.

---

(١٣٤) سورة إبراهيم، آية ٣٤، وسورة النحل آية ١٨.

وكما يترفق الإمام بيده ويضطرب بماله، يوصى بالآمرين:

جاءه من يرجوه أن يدعو الله له ألا يكون رزقه على أيدى العباد، فأجابه: (أبى الله عليك ذلك، أبى الله إلا أن يجعل رزق العباد بعضهم من بعض، ولكن ادع الله أن يجعل رزقك على يد خيار خلقه، فإنه من السعادة، ولا يجعله على أيدى شرار خلقه، فإنه من الشقاوة).

وهو يعلم العاملين أن يقبلوا المصاعب، بقوله: (ليس لأحد - وإن ساعدته الدنيا- بمستخلص غضارة العيش إلا من خلال مكروه).

ويرى العمل بالسوق عزاً وكرامة، ويوصى بالسوق وارتيادها، أى: بالتجارة ويقول: (لا تدعوا التجارة فتهونوا).

حدث واحد من أتباعه فقال: رآنى أبو عبد الله يوماً وقد تاخرت عن السوق فقال: (أغدُ إلى عزك).

وقال له آخر: هممت أن أدع السوق. فقال له: (إذن يسقط رأيك ولا يستعان بك في شيء).

وقال لمن ترك التجارة: (لاتتركها؛ فتركها مذهبة للعقل. اسع على عيالك، وإياكم أن يكونوا هم السعاة عليكم).

وتعاليم الإمام في صدد الأسرة دروس مستمرة للمسلمين. يقول:

(البنات حسنات، والبنون نعم، والحسنات يثاب عليها الإنسان، والنعم هو مسئول عنها).

ويجمع بين تخفيض المهور وبين كرامة المرأة وإكرام الجار فيقول: (الشؤم في المرأة كثرة صداقها، وعقوق زوجها، وفي الدار ضيق مساحتها، وشر جيرانها).

ويقول في الاقتصاد العائلى: (إصلاح حال التعايش على مكيال، ثلثاه فطنة وثلثه تغافل).

ويقول: (جاهل سخى أفضل من ناسك بخيل).

وحديث جابر بن حيان – أول صيدلانى في التاريخ – طويل عن شيخه الإمام جعفر الصادق، وجابر ينسب إلى الإمام أسباب توفيقه في تجاريبه.

يخاطب الإمام في أول (كتاب الأحجار) بقوله: (وحق سيدى، لولا أن هذه الكتب باسم سيدى لما وصلت إلى حرف من ذلك إلى الأبد).

ويحصل جابر طريقته في عبارته المأثورة: (عملته بيدى، وبعقلى، وبحثته حتى صح .. وامتحنته فما كذب).

وفي هذا المقام يقول أستاذ الفلسفة المعاصر د. زكى نجيب محمود: (..فلو شئت تلخيصاً للمنهج الديكارتى RénéDescartes – كله لم نُجد خيراً من هذا النص الذى أسلفناه عن جابر)[١٣٥].

وحديث مالك عن الإمام جعفر بالمدينة طويل كذلك – كان مقره المدينة المنورة، والإمام الشافعى يروى حديثه عن أبيه عن جده، ومن بعده كل الفقهاء والمحدثين.

وتعاون الجماعة لايجد مثلاً عليه أكثر وضوحاً من عمل الإمام جعفر.

وهو يدخل التاريخ باعتباره بناء دول، وإمام فكر حر، وقدوة في التعاون كمنظم داخلى للاقتصاد..

وسنقرأ فيما بعد بياناً عن بعض قوافله التجارية.

٣- الإمام الأعظم (لأهل السنة) أبو حنيفة (١٥٠هـ):

ربما نسبت هذه الدرجة في العظمة لأبى حنيفة لأسباب – أو لواحد منها–: أن مذهبه يدعى (مذهب السلطان) وقد دأب صاحبه (أبويوسف) على

(١٣٥) كتابنا (الإمام جعفر الصادق) طبعة دار المعارف.

تعيين القضاة من المذهب، أو لكثرة الآخذين به من الأمة في مجموعها، أو لأن أئمة المذهب متعددون، وهو إمامهم الأكبر، أو أنها صيغة في التضخيم من شعوب دأبها التضخيم لما يهوون تضخيمه.

وهو القائل: (إذا كان التابعى رجلاً فأنا رجل).

وبهذا تفتحت الأبواب على مصاريعها للاجتهاد.

وإنه لأحق بالعظمة لأنه – على غرار رسول الله عليه الصلا والسلام – كان "رحمة بالأمة" حيث قال أبو حنيفة: (الإيمان يتم بالتصديق بالقلب والإقرار باللسان).

وأعلن أن مرتكب الكبيرة لايفقد الأمل في عفو الله، فقد يغفر الله له إذا استغفره، يقول: (إن الأجمل بالناس أن يستغفروا الله لمرتكب الخطيئة، فذلك أفضل لخصلتين:

١) لأنه مؤمن.

٢) لأننا لانستيقن أن الله معذبه عليها.

(والدعاء لأهل الشهادة بالمغفرة أفضل، وعسى الله أن يتوب على العباد.

وحساب الناس عن أعمالهم "مرجأ" إلى يوم الحساب.).

وبهذه المبادئ كان أبو حنيفة إماماً في السماحة، نجا بها كثيرون من الخطر، فغلق الأبواب في وجه زبانية العذاب الذين يتصيدون الناس بسقطات اللسان، أو بالإهمال، أو بفساد الأعمال، في زمن كان فيه الشك في الإيمان تهمة رائجة.

ومن مبادئه: أن اليقين لا يزيله الشك.

وأبو حنيفة هو القياس الأعظم بالتجائه في الاجتهاد إلى القياس، وهو من أسس التطور.

ومن مبادئه حرية الاجتهاد وحرية الاختلاف، إذ يقول: (علمنا هذا رأى، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه) قيل له: فلان يقول: (لا أدرى نصف العلم) فقال ساخراً: (ليقلها مرتين ليكون له كل العلم).

وهو إمام بشجاعة الاستشهاد من أجل رأيه يوم أبى أن يلى القضاء لأبى جعفر المنصور، وآثر أن يموت في سجنه، فمات وهو ساجد!!.

والذين يتساءلون: كيف اجتمع له أن يكون علمى الطريقة، ربانى السلوك، لا يستبقى لنفسه إلا نفقة عياله؟ قد لايعرفون أنه نُتج في حلقة الفقه لحماد بن إسماعيل قادماً إليها من "السوق" وهو مدرسة الدنيا.

وليس لدينا من التفصيلات عن تجارة أبى حنيفة كثير، والقليل الذى وصلنا منها ينبئ أنها تجارة مع الله والناس، جماعُها تطبيق الشريعة تطبيقاً صحيحاً في العبادات، دقيقاً في المعاملات:

١) يتنازل عن الصفقة المشوبة وأرباحها، ولايتصدق بها، فهذا مال مشوب بالحرام.

٢) وإذا لم يبين شريكه العيب رد الصفقة، وإن كانت بعشرات الألآف، أو باع الثوب بثلاثين ألفاً وتصدق بثمنه.

٣) واللهَ اللهَ في النساء بائعات له أو مشتريات منه.

٤) كان الدكان الذى اختاره لنفسه في دار عمرو بن حريث صاحب النبى - ﷺ - وقد بنيت في أول بناء مدينة الكوفة، وكانت معاملات الدكان جديرة بهذا المكان:

١) جاءته إحداهن بثوب خز تبيعه بمائة، قال: هو أكثر من مائة.

قالت: بعت بمائتين. قال: هو أكثر.

قالت: أتهزأ بى؟ قال: هات رجلاً.

فجاءت برجل قَومَهُ بخمسمائة، فاشتراه.

٢) وإذا راح يقتضى ديناً له لم يجلس في "ظلال الدار" لأنه لايريد أن يقتضى أكثر من الثمن، وحتى لايضيف إلى عسر المدين ترصد الدائن له.

٣) وهذا تلميذ له كان يحل محله في الحانوت - فالشيخ لايضن على التلاميذ بالتدريب - باع للمشترى سلعة بألف درهم واف، وخدع في ثمنها المشترى. فأبى الشيخ إلا استرداد المبيع ورد الثمن .. قال المشترى: إن في الثوب ما يستبقيه لأجله، وأصر على اقتنائه، فتراضيا على ثمن جديد أقل.

وازدهرت تجارة أبى حنيفة حتى كانت منها نفقة التلاميذ الفقراء في الحلقة - وهى كبيرة - دامت أعواماً ثلاثين.

٤) وربما أجزأ في شأن هذا الحانوت قول شَرِيكٍ لأبى حنيفة: على مدى ثلاثين عاماً: لم أجد أحداً يتوقى مما لا خطر له مثله .. وإذا دخلت عليه شبهة من شيء أُخرج من قلبه ذلك الشيء ولو بجميع ماله.

١) سجل التاريخ لحلقة أبى حنيفة "ابتكار" تدوين الفقه، وأنهم كانوا إذا انتهوا إلى مسألة قال الإمام لواحد منهم: اكتبها في الباب الفلانى.

٢) كما سجل التاريخ لها قول الجاحظ عنها: (قال عمر: "تفقهوا قبل أن تسودوا") وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، ويجالس الفقهاء خمسين عاماً، وهو لايُعد فقهياً، ولايجُعل قاضياً، وماهو إلا أن ينظر في كتب أبى حنيفة ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال "كبار الموظفين" وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار، أو بلد من البلاد).

٤- الإمام مالك: إمام أهل المدينة (١٧٩هـ):

لمالك في شئون الاقتصاد دروسه في المعاملات. وكتب مذهبه - وهى تمثل الفقه العملى - أو علم المدينة وعملها به.

وبفقه مالك عملت المقاطعات الجنوبية لفرنسا، وقد عاش فيها المسلمون أكثر من قرنين من الزمان، وأثر ذلك ظاهر في قانون نابليون.

كما عملت به الأندلس طوال عصرها الذهبى، وبقيت حضارتها غالبة حتى بدايات القرن السابع عشر حين جلا عنها العرب والمذهب معمول به في دول شمال افريقية.

ولقانون نابليون مصدران: الفكر الكنسى من شمال فرنسا، والعادات من جنوبها، والحضارة الأندلسية كلها في جوار الجنوب ثمانية قرون.

وعندما أدخل قانون نابليون إلى مصر أجرى بعض علماء مصر مقارنة بين قانون نابليون في المعاملات ومذهب مالك.

الفرع الثانى
الاكتساب والزهد

المبحث الأول

الإمام محمد بن الحسن - صاحب أبى حنيفة - وكتاب الاكتساب

ربما كان كتاب (الاكتساب) الكتاب الفقهى الثانى للاقتصاد، حيث الأول كتاب الصاحب الأول لأبى حنيفة أبى يوسف للرشيد (الخراج) وهو كتاب في "مالية الدولة" وهى فرع في الاقتصاد.

فمحمد في كتابه بين لنا فقه السلف الصالح، ويختار لنفسه مذهبا فيه.

لم تطل تلمذه محمد بن الحسن الشيبانى للإمام أبى حنيفة، كما كانت أقصر من تلمذته على أبى يوسف، والتاريخ يطلق عليهما أنهما "صاحبا الإمام"، فالأول: هو الذى جعل الفقه الحنفى مادة القضاء في أوسع دول العالم. والثانى: هو الذى حرر المذهب فضمن له مكانته الرفيعة وأسبيقته بين المذاهب، وكان بارعا في العربية معروفاً بالورع، أنفق الآلاف التى ورثها ليتعلم، وأنفق أكثر منها على تعليم الآخرين، وهو يمتاز عن أبى يوسف بأنه كان أزهد منه في مقاربة السلطان، ومع زهد محمد قبل العمل في القضاء، فأحدث السلام بينه وبين الخليفة الرشيد ودولته، وعاملهما باستقلال.

وقد يكفينا من تمثيله لصميم الإسلام موقفه العلمى من المذاهب كافة، وموقفه الأبوى لرجالها: إذا كان "موطا مالك" بن أنس أعظم كتب مذهب مالك فلمحمد رواية خاصة للموطأ تمتاز بأنها مقارنة بينه وبين ما عاصره من المذاهب، وكان محمد من تلاميذ مالك مثلما كان الشافعى تلميذا لمالك، وله على الشافعى فضل كبير، إذ نجاه من الإعدام في إحدى محاكمات الرشيد

المباغتة للشيعة في اليمن... ومحمد جالس إلى جوار الرشيد فشهد له (أن ما رفع عليه ليس من شأنه) وأنه (من أهل العلم) لا من الثوار.

ثم جلس الشافعى الى محمد، ثم فصل عن العراق، وقد حمله محمد حِملَ بعير من كتب أبى حنيفة، وسنرى أثر ذلك في كتب الشافعى.

ولم يلبث الشافعى طويلا حتى أرسل رسالته الى عالم بغداد (عبدالرحمن ابن مهدى) وفيها أصول الفقه التى أمست أصول الفكر.

وأثر محمد في المذهب المالكى يتأكد من تعليمه لأسد بن الفرات حين جاء من تونس للقاء مالك، فوجده قد قضى نحبه، فصار إلى بغداد يقضى مع محمد بن الحسن الليالى الطوال، ثم يرجع إلى الفسطاط بمصر ليلقى (عبدالرحمن بن القاسم) فيلقى عليه أسئلة من دروسه على محمد ثم يجمع الأسئلة. ثم زاد عليها سحنون ما زاد وأسماها (المدونة) فأصبحت السجل العلمى الخالد بالفقه المالكى حتى الآن.

ومحمد أول من ألفوا المجلدات المفصلة لمذهب أبى حنيفة وإليه يرجع أول كتاب ينعى على الزاهدين في العمل مسلكهم متأثرين بالأفكار الهندية أو الفارسية.

وهو كتابه عن (الاكتساب للرزق المستطاب).

شهد محمد بن الحسن مع الدولة العباسية الحديثة تياراً وافداً عليها من صميم آسيا في الهند وخراسان، تعاظم أمره مع تفاقم الأحداث في الدولة والمجتمع، وقرن رجاله الزهد في الدنيا بالزهد في العمل، فندب نفسه لمقاومة التيار قبل أن يتسع خطره.

١- كان إبراهيم بن آدم (١٦٢هـ) من كبار الزهاد في عصره، يقول لتلميذه في الزهد "شقيق البلخى" (١٩٤هـ): ما بدء أمرك الذى أبلغك هذا؟

وأجابه شقيق - وهو شيخ حاتم الأصم، وهو فقيه صوفى = مررت ببعض الفلوات فرأيت طائراً مكسور الجناحين في فلاة من الأرض، فقلت لنفسى: من أين يرزق هذا؟! فقعدت بإزائه، فإذا طير أقبل وفي منقاره جرادة، فوضعها في منقار الطير مكسور الجناحين، فقلت في نفسى: إن الذى قيض هذا لهذا قادر على أن يرزقنى حيثما كنت، فتركت التكسب واشتغلت بالعبادة.

قال إبراهيم: ولم لا تكون أنت الطير الصحيح الذى أطعم الطير العليل حتى تكون أفضل منه؟ أما سمعت أن النبى -ﷺ- قال "اليد العليا خير من اليد السفلى"؟

٢- وفي القرن الثالث عاش زعيم المتصوفة "معروف الكرخى" وقد سئل عنه الإمام احمد بن حنبل هل كان عنده علم؟ فأجاب: كان عنده رأس الأمر كله. تقوى الله.

وأحمد (٢٤١هـ) من أئمة الصوفية الكبراء، يعمل بيده ليعيش، ويرحل أبعد الترحال في طلب العلم، ويعمل حمالا، أو ينسخ صحفا بأجر، أو يرهن أشياءه، وهو شيبانى من علية العرب، يأبى الاتصال بالخلفاء، ويأبى صلات الناس له إلا أن يكافئ عليها.

و"الجنيد" شيخ الصوفية في القرن الثالث يقول: كان أحمد بن حنبل ها هنا، وبشر بن الحارث "بشر الحافى" ها هنا، وكنا نرجو أن يحفظنا الله بهما، ثم إنهما ماتا وبقى "سَرِى" فأرجو الله أن يحفظنى "بِسَرِى".

ولعل "سَريا السقطى" - خال الجنيد - كان يعمل في التجارة لينفق الكثير على الزاهدين المتعطلين.

٣- بل سنقرأ في القرنين الرابع والخامس أن من المتصوفة من كانوا معطلين للعقيدة ذاتها، يقولون بسقوط التكليف عن بعضهم، كقول سعيد بن ابى الخير (٣٥٧ - ٤٤٠).

وفيهم قول الغزالى "إنه مذهب ظاهره الرفض، وباطنه الكفر المحض" بل سنرى "الباطنية" يجيئون بمعان جديدة للصلاة والزكاة والتوحيد، فالصلاة معناها: طاعة الله - لا الصلاة - والزكاة معناها طاعة الإمام - لا توزيعها على أصحاب السهام - وفي قرن تال أدخل "ابن عربى" معانى أخرى للصوفية، فللعلم الإلهى عنده (ثلاث طرق: التذوق، والكشف، ثم البحث والنظر، ثم ما يجئ به الأنبياء من أخبار).

وسنقرأ في القرن العاشر نقل عالم من العلماء هو الشعرانى (٩٧٥هـ) عن الولى (على أبى الوفا): أنه "رفع" كما رفع عيسى إلى السماء!!

فلا تعجب إذا كان الصوفية يشكون ابن تيمية فيحاكم، ويحبس مرة إثر أخرى! ومن بعده سنرى بعضهم في تكية من التكايا يلقون الإمام السيوطى بكامل ثيابه في الميضأة.

* * * * * *

تصدى محمد بن الحسن لهذا التيار قبل أن يتفاقم خطره باستعراض فقه الإسلام، فقال عن كتاب "الاكتساب" (وهذا الذى ثبت في هذا الكتاب هو قول عمر وعثمان وعلى وابن عباس وغيرهم من أصحاب رسول الله -ﷺ- ورضى عنهم أجمعين، وهو مذهب أبى حنيفة وأبى يوسف وزفر ومن بعدهم من الفقهاء - رحمهم الله - وبه نأخذ)[١٣٦] والكتاب رد من محمد بن الحسن

(١٣٦) يقول السرخسى في المبسوط ج ٢٤ - وقد توفى في القرن الخامس -: إن محمد بن الحسن وضع كتابا في الإكراه، وقد ابتلى بسببه - على ما حكى محمد بن سماعة تلميذه، قال لما صنف محمد - رحمه الله - هذا الكتاب سعى به بعض حساده إلى الخليفة "هارون الرشيد" (وقد صار محمد قاضياً للرشيد بعد أبى يوسف) قالوا للرشيد إن محمداً صنف كتاباً سماك به "لصاً" فأمر بإحضاره، فجاء به شخص، فأُدخله على الوزير أولا في حجرته، فجعل الوزير يعاتبه على ذلك، فأنكره محمد أصلاً، فلما علمت السبب=

على الذين يقعدون عن العمل بدعوى الزهد – وقد مارسه بعضٌ في مجابهة الإسراف إذ ظهرت بوادره.

تبادرنا في الكتاب رواية محمد لحديث رسول الله -ﷺ- "طلب الكسب فريضة على كل مسلم" وقوله: "إن العمل لكسب الرزق مأمور به في الكتاب والسنة لحفظ النفس، ونماء المجتمع، والقيام بالعبادات ذاتها، مثل ما أن الماء ضرورة للوضوء والصلاة"، وما لا يتأتى الفرض إلا به يكون فرضا في نفسه، وهو – يعد – ضرورة بقاء ونماء وجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف وإزالة المنكر، ويروى عن أبى ذر قوله: "أفضل الأعمال بعد الإيمان الصلاة، وأكل الخبز، ولولا الخبز ما عبد الله تعالى" يقصد القدرة على العمل مع القناعة والطاعة.

٢- ويستطرد كتاب "الإكتساب" فيطرح قضية المفاضلة بين الغنى والفقر، ويعلن فيها رأيه بقوله: "ولو أن الناس قنعوا بما يكفيهم، وعمدوا إلى الفضول فوجهوها لأمر آخرتهم لكان خيرا لهم" والمسرف يأكل فوق حاجته

=أسرعت الرجوع إلى داره وتسورت حائط بعض الجيران، لأنهم كانوا قد سمروا على بابه، فدخلت داره، وفتشت الكتب حتى وجدت كتاب "الإكراه" فألقيته في جب الدار، لأن الشرط أحاطوا بالدار قبل خروجي منها، فلم يمكنى أن أخرج، واختفيت في موضع حتى دخلوا وحملوا كل كتبه إلى دار الخليفة بأمر الوزير، وفتشوها فلم يجدوا شيئا، فندم الخليفة على ما صنعه به، واعتذر إليه فلما كان بعد أيام أراد محمد – رحمه الله – أن يعيد تصنيف الكتاب فلم يجبه خاطره إلى مراده، فجعل يتأسف على ما فاته من هذا الكتاب، ثم أمر بعض وكلائه أن يأتى بعامل ينقى البئر، لأن ماءها قد تغير، فوجد الكتاب في آجُرةٍ أو حجر بناء من طى البئر لم يبتل، فسر محمد – رحمه الله – بذلك، وكان يخفى الكتاب زماناً، ثم أظهره، فعد ذلك من مناقب محمد، وما يستدل به على صحة تفريعه لمسائل هذا الكتاب.

فيبشم.

وفي واجب العمل يروى حديث تقبيل رسول الله -ﷺ- يد سعد، بن معاذ الأنصاري إذ رأى يديه قد أكتبتا من ضربه بالمر والمسحاة في نخيله للإنفاق على عياله، وقال "إن الكسب طريق المرسلين والصالحين من آدم إلى نوح - وكان نجاراً - فإدريس - وكان خياطاً - وإبراهيم - وكان بزازاً - وداود كان يأكل من كسبه، وسليمان - كان يصنع المكاتل - "المكتل: زنبيل من الخوص" ونبينا -ﷺ- رعى الغنم بمكة وهو صبي، وازدرع في أرض الجرف بالمدينة، وتاجر قبل النبوة، وقال عنه شريكه "السائب بن شريك": كان لا يداري ولا يماري "لا يلاح ولا يخاصم" قيل: في ماذا كانت الشركة؟ قال: في الأدم "الجلد".

وكسب المرء لنفسه مباح بإطلاق - بل فرض عند الحاجة - أما "قول أهل التقشف وحماقى أهل التصوف إنه حرام لا يحل إلا عند الضرورة وينزل بمنزلة أكل الميته زعما بأنه ينفي التوكل على الله، فمردود بقوله تعالى ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾[١٣٧] ورسول الله يقول: "لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقتم كما يرزق الطير تعدو خماصا وتعود بطانا".

وحجتنا عليهم قوله - تعالى -: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾[١٣٨] وقوله ﴿إذا تداينتم﴾[١٣٩] وقوله: ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض﴾[١٤٠] وقوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة﴾[١٤١] وقوله: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من

(١٣٧) سورة المائدة الآية ٢٣

(١٣٨) سورة البقرة الآية ٢٧٥

(١٣٩) سورة البقرة الآية ٢٨٢

(١٤٠) سورة النساء الآية ٢٩

(١٤١) سورة البقرة الآية ٢٨٢

فضل الله﴾[١٤٢] والمراد: التجارة.

ورسول الله -ﷺ- يقول: "إن أفضل ما أكلتم من كسب أيديكم، وإن أخى داود كان يأكل من كسب يده" والإكتساب طريق المرسلين".

ومر عمر بقوم من القراء "قراء القرآن" فرآهم جلوسا نكسوا رؤوسهم، فسأل: من هؤلاء؟ فقيل: هم المتوكلون؟ فقال: كلا، ولكن هم المتأكلون، يأكلون أموال الناس. ألا أنبئكم من المتوكل؟ هو الذى يلقى الحب في الأرض ثم يتوكل على الله - عز وجل -...

وكان أبو بكر بزازا، وعمر كان يعمل في الأدم، وعثمان كان يجلب الطعام ويبيعه، وعلى أجر نفسه غير مرة... وأتعجب من أمر المتصوفة أنهم لا يمتنعون عن أكل الطعام ممن أطعمهم من كسب يده، وربح تجارته، مع علمهم بذلك، ولو كان الاكتساب حراما لكان المال الحاصل به حرام التناول.

ثم المذهب عند جمهور الفقهاء أن الكسب بقدر ما لابد منه فريضة وبعد ذلك يسأل" هل الاشتغال بالكسب - بعد تحصيل ما لابد منه - أفضل أو التفرغ للعبادة أفضل؟" ويجيب: "قال بعض الفقهاء: الاشتغال بالكسب أفضل، وأكثر مشايخنا أن التفرغ للعبادة أفضل".

وشرح وجهتى النظر بقوله

٣- "وجه القول الأول: أن منفعة الإكتساب أعم.. والذى يشتغل بالعبادة إنما ينفع نفسه، وما كان أعم نفعا فهذا أفضل، لقوله -ﷺ- "خير الناس من ينفع الناس" ولهذا كان الاشتغال بطلب العلم أفضل من التفرغ للعبادة، لأن منفعة ذلك أعم، وإلى هذا المعنى أشار رسول الله في قوله "العبادة عشرة أجزاء" وفي قوله "الجهاد عشرة أجزاء، تسعة منها طلب الحلال"[١٤٣].

---

(١٤٢) سورة الجمعة الآية ١٠

(١٤٣) في كنز العمال "العافية عشرة أجزاء، تسعة في طلب المعيشة، وجزء في سائر الأشياء.

وبالكسب يتمكن المرء من أداء أنواع الطاعات: من الجهاد، وبر الوالدين، وصلة الرحم، والإحسان إلى الأقارب والأجانب، وفي التفريغ للعبادة لا يتمكن إلا من أداء بعض ذلك: كالصوم والصلاة.

٤- وجه القول الثانى وهو الأصح... لابد من القول بأن ما يكون بخلاف هوى النفس ابتداء وانتهاء فهو أفضل...وهذه المسألة تتبنى على مسألة أخرى اختلف فيها الفقهاء: هل صفة الفقر أعلى من صفة الغنى؟ فالمذهب عندنا أن الفقر أعلى، ولو أن الناس قنعوا.. وما زاد يحاسب المرء عليه، ولا يحاسب أحد على الفقر.

ولا شك أن مالا يحاسب عليه المرء يكون أفضل مما يحاسب المرء عليه.وأما من فضل الغنى فيقول: "الغنى نعمة.. قال - تعالى - ﴿وابتغوا من فضل الله﴾[١٤٤] هذا وارد في غير موضع، ورسول الله -ﷺ- يقول: "الأيدى ثلاثة: يد الله، واليد المعطية، واليد المعطاة فهى السفلى إلى يوم القيامة" وفي حديث آخر: "اليد العليا خير من اليد السفلى" وقوله لسعد بن أبى وقاص: "إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس".

وحجتنا في ذلك أن الفقر أسلم ما يكون للعبد، وأعلى الدرجات ما يكون أسلم، ورسول الله يقول: "حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات".

٥- ويواجه محمد المتصوفة الجدد في زمانه بقوله -ﷺ- "من امتنع عن الأكل والشرب حتى مات وجب عليه دخول النار" أما من سعى لرزقه بما يسد رمقه ويقوى به على الطاعات فهو مثاب عليه، وفيما زاد على ذلك إلى حد الشبع هو مباح له، لكنه محاسب ومطالب بأمرين:

١- شكر النعمة فذلك حق الله.

---

(١٤٤) سورة الجمعة الآية ١٠

٢- وحق الجائعين فيها.

وفيما زاد عن الشبع هو معاقب، فذلك شهوة غير نبيلة، والأكل فوق الشبع حرام.

ويذكر محمد أنهم قالوا لأمير المؤمنين عمر: ألا تتخذ لك جوارشا؟ قال: وما يكون الجوارش؟ قالوا هاضوم يهضم الطعام. قال: سبحان الله، أوَ ياكل المسلم فوق الشبع؟!

ومحمد يرى أن الله - تعالى - قد ضمن توزيع العمل، وتخصص الناس وتقسيم العمل بينهم بقوله: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ وفي توضيحه يقول الرسول -ﷺ- "إن الله - تعالى - في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم".

وقال -ﷺ- لعبد الرحمن بن عوف: "ما بطأ بك عنى؟! إنك آخر أصحابى لحوقا بى يوم القيامة، فأقول: ما حبسك عنى؟ فيقول: المال. كنت محاسَباً محبوساً حتى الآن".

ولقد قاسم (عبد الرحمن) الله ماله أربع مرات: في المرة الأولى كان ماله ثمانية آلاف درهم، تصدق بأربعة، وفي الثانية كان ثمانية آلاف دينار[١٤٥]، تصدق بأربعة. وفي الثالثة كان ستة عشر ألفا، تصدق بثمانية. وفي الرابعة كان اثنين وثلاثين ألفا فتصدق بنصفها...

وكان رسول الله يقول: "اللهم احينى مسكيناً، وأمتنى مسكيناً، واحشرنى في زمرة المساكين".

والأفضل لنا ما سأله رسول الله -ﷺ- لنفسه.

ويبين ما ذكرنا أن رسول الله ما تعوذ من الفقر المطلق، وإنما تعوذ من

(١٤٥) المفروض أن الدينار يساوى عشرين درهما، وكان تقديره عادة أقل

الفقر المنْسى، فقد قال: "اللهم إني أعوذ بك من فقر يُنسى، ومن غنى يطغى".

٦- وقد اختلف العلماء في أيهما أفضل: الشكر على الغنى أم الصبر على الفقر؟ والمذهب عندنا (عند محمد) أن الصبر على الفقر أفضل، قال -ﷺ- "الصبر نصف الإيمان" ولأن في الصبر معنى الابتلاء والغنى يحتاج إلى الفقير، والفقير لا يحتاج إلى الغنى إذ يلزمه اداء حق المال إليه، فالفقير الصابر خير من الغنى الشاكر.

٧- والمذهب عند الفقهاء أن المكاسب كها على الإباحة سواء. وحجتنا في ذلك قوله -ﷺ- "إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصوم ولا الصلاة" قيل: ما يكفرها يا رسول الله؟ قال: "الهموم في طلب المعيشة" وقال: "أفضل الأعمال الإكتساب للإنفاق على العيال" ولو لم يكن فيه إلا التعفف عن السؤال لكان مندوبا إليه، فإن رسول الله يقول: "السؤال آخر كسب العبد".

ثم المكاسب أربعة: الإجارة (إجارة الأشخاص، أي: أداء الخدمات) والتجارة والزراعة، والصناعة.

وحجتنا في ذلك أن النبى ازدرع بالجرف، وقال: "الزارع يتاجر ربه".

قال بعضهم: التجارة أفضل، لقوله – تعالى -: ﴿وآخرون يضربون في الأرض﴾[١٤٦] وقوله -ﷺ- "التاجر الأمين مع البررة الكرام يوم القيامة"[١٤٧] (وأكثر مشايخنا على أن الزراعة أفضل من التجارة، لأنها أعم نفعا.. والاشتغال بها أعم، ولأن الصدقة في الزراعة أطهر، وعمل العالم بالعلم معروف والعمل بخلافه منكر..).

ومحمد يأمر بحفظ المال من الإفساد والإسراف والمخيلة والتفاخر

(١٤٦) سورة المزمل الآية ٢٠

(١٤٧) السفرة: ملائكته. وفيه إشارة إلى قوله – تعالى -: ﴿بأيدى سفرة، كرام بررة﴾ الآيتان ١٥، ١٦ سورة عبس

والتكاثر ويقول: "الاقتصار على أدنى ما يكفى المرء عزيمة، ومازاد على ذلك من التنعم رخصة والرسول يقول: إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه".

٨- كان أبو حنيفة يتسع وينفق على التعليم، والمؤكد أن محمداً لم ير الإمام جعفراً إذ كان يتسع وينفق، وكلاهما مات عن غير مال، ولعله رأى صاحبه أبا يوسف مات عن مليونين، فساءه عدم إنفاقه، وكانت بينهما جفوة، ولقد نُشئ محمد في النعمة فأنفق مواريثه على تعليم نفسه وتعليم أهل الإسلام.

ورأى محمد من بذخ الرشيد ما لايرضاه منه، فربما رأى في مساهلة أبى يوسف للرشيد ما جعل بين (الصاحبين) جفوة، ولا ريب في أن إشادته بتوجيه (فضول المال) لأمر الآخرة خير يعم الأمة...

وأن محمداً شهد من إنفاق أبى حنيفة على مدرسته ما وقر في ذهنه. وأيادى محمد على الذين احتاجوا إليه درس تعلمه في حلقة الإمام الأعظم.

المبحث الثانى:

من الزهاد العاملين

١- الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)

الإمام أحمد مثل عظيم من الأئمة، أبرزه الإخلاص لجمع السنة، ليجعل مسنده إماماً للفقه، وأفرزه بين العلماء زهده، ومازه من علماء عصره أنه - وحده - ثبت في رفض القول بأن القرآن مخلوق، وطلبه المأمون ليقتله، ولما بلغ مقد المأمون مات المأمون. وعذبه المعتصم، فتركوه بعد إغماء ظنوا أنه الموت.

يقول -ﷺ-: "قليل الدنيا يلهى عن طريق الآخرة" وأحمد يقول: "ما قل

من الدنيا كان أقل في حساب الآخرة" وهو القائل: "الصبر على الفقر عناء لا يقدر عليه إلا الأكابر".

ومن الأرقام التى يحفظها الإمام أحمد عدد آيات الصبر، يقول: "ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في ٩٠ آية، وهو واجب بالإجماع، وهو نصف الإيمان، والإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر".

والشكر يتضمن الصبر والرضا وزيادة، وحسبك قول الله – تعالى –: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[١٤٨].

وفقه أحمد في المعاملات فقه الحريات، جماعه قول صاحب الشريعة –ﷺ– "المسلمون عند شروطهم إلا شَرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً".

وبفقه هذا الحديث تزدهر المعاملات كل الأزدهار

اما التجارة ففيها جوابه عن سؤال في الزكاة عن (درهم من تجارة برة، ودرهم من صلة الإخوان، ودرهم من التعليم..؟)، "ما منها شيء أحب إلى من التجارة، ولا فيها شيء أكره عندى من صلة الإخوان، وأما التعليم فإنى أرجو ألا يكون به بأس لمن احتاج".

يقول هذا عن أجر المعلم، وعن الصلات التى كانت ترد الى الفقهاء، ويأباها لنفسه ولو جائته من الخليفة.

وكان يأمر أولاده بالعمل، والمبدأ عنده: "ترك المكاسب مع الحاجة كسل، والقعود مع تضييع العيال جهل".

وكان يقترض، وأهمت ديونه بعض القوم، فبعث إليه رجل بضعة آلاف من الدراهم قائلاً: إنه يعلم ما على أحمد من الدينْ، فلعله يسدد الديْنَ ويوسع على عياله.

---

(١٤٨) سورة إبراهيم الآية ٧

وأجاب أحمد: إن العيال بنعمة من الله، وإن الدائن لا يرهقه طلبا، ورد العطية، وبعد عام كان يقول عنها لبنيه: "لو كنا قبلناها لكانت ذهبت".

ويقول ابنه عن ظروف هذه الرسالة: كنا في أيام الواثق (٢٢٧ - ٢٣٣هـ) والله يعلم في أي حالة من الضيق نحن!!.

ومن بعد الواثق فتح الخليفة المتوكل لأحمد أبواب قصره، وتمنى المتوكل لو طهر نفسه وقلبه بقبول أحمد لماله، أو تعليم أولاده، وذهب أحمد، وأقام أياماً في غرفته، يأكل من طعامه الذى جاء به إلى دار الخلافة بين متاعه، ولما أدركوا أنهم يعذبونه كأنه في السجن تركوه.

ومن ماثور قوله: (نعم الإدام الخل).

يقول فيه تلميذه إبراهيم الحربى (٢٨٥هـ) وهو محدث وفقيه زاهد من عظماء القرن الثالث: "رأيت رجالات الدنيا فلم أر مثل ثلاثة: أحمد بن حنبل - ويعجز النساء أن يلدن مثله - ورأيت بشر بن الحارث من رأسه إلى قدمه مملوءاً عقلاً، ورأيت أبا عبيد القاسم بن سلام، وكأنه جبل نفخ فيه علم".

وهذا الجبل من العلم (أبو عبيد القاسم بن سلام) يقول: (جالست أبا يوسف ومحمد بن الحسن، ويحيى بن سعيد "من علماء المدينة" وعبد الرحمن بن مهدى "محدث العراق" فما هبت أحدا منهم ما هبت أحمد بن حنبل، ولقد دخلت عليه السجن لأسلم عليه، فسألنى رجل في مسألة فلم أجبه هيبة لأحمد".

ولا جرم أن الزهد تمكن من نفس الإمام أحمد لما كان في عصر الرشيد وبنيه من بذخ وإسراف وابتذال وبهرجة لكنه يعمل ويأمر بالعمل ولا يرى بأساً في المال الحلال.

وأحمد عليم بما في كتاب محمد بن الحسن عن الاكتساب وبما كان من جفوة بين محمد والرشيد، لما كان يقارفه الرشيد من خطايا للدفاع عن دولة بنى العباس.

٢- السرِى بن المغلس السقطى (٢٤٥هـ):

زميل أحمد في الطلب على هشيم الواسطى، وأبى بكر بن عياش، ويزيد ابن هارون، وسرى هو خال الجنيد (٢٩٧هـ) ومعلمه، والجنيد إمام الصوفية في عصره، وفيما بعده.

والجنيد يرجع تصوف القرن الثالث الهجرى إلى أهل بدر، فيقول عن نفسه وعن خاله: (أخذت عن أبى الحسن "السرى بن المغلس السقطى" وأخذ السرى عن معروف الكرخى، وأخذ معروف عن فرقد السنخى، وأخذ فرقد عن الحسن البصرى، ولقى الحسن سبعين من البدريين).

ويتحدث الجنيد عن خاله وأحمد بن حنبل وعن بشر بن الحارث (الحافى) فيقول: (كان أحمد بن حنبل ها هنا وبشر بن الحارث ها هنا، وكنا نرجو أن يحفظنا الله بهما، ثم إنهما ماتا وبقى سرِى، فارجو الله أن يحفظنى بسرى).

وكان سرِى ينفق أرباح تجارته على الزاهدين وكأنه يعمل لهم بأموالهم لا بأمواله ولم يكن بشر بن الحارث[١٤٩] يقبل من الناس شيئا، بل هو تنازل عن ثرائه للناس، وعزف عن الجلوس للتعليم، واختار الزهد طريقا لحياته، وانقطع عن الناس مع أنه كان فقيها.

قال بعض الناس أريد أن أعرف من أين يأكل؟ فخبره من يَخْبُرُ أمر بِشْرِ أن له صديقاً عاقلاً لم يكن يظهر أمره هو سرى بن المغلس السقطى.

---

(١٤٩) قال بعض أصحاب بشر بن الحارث: دفناً له بضعة عشر قمطراً وقوصرة "خزانة" ملأى بالكتب التى لم يحدث بها، إلا ما سمع منه نادرا، وإن كان يفتح الكتب في بعض الأحيان، ويحدث عن الفتح الموصلى (٢٢٠هـ) من زهاد الموصل العظماء، ولعله كان يلتمس العلم عنده

وكان بشر يقول: ما سألت أحداً إلا سَرِياً(١٥٠).

وأحمد بن حنبل يقول عن سَرِيٍ ذلك الشيخ الذى يعرف بطيب الندى

(١٥٠) وكان بشر يوصى الناس بالعمل وطيب المطعم وإنفاق المال في المستحقين، جاءه رجل عزم الحج يودعه، قال له كم أعددت للنفقة؟ قال ألفى درهم. قال بشر فأي شيء تبتغى بحجك؟ قال: مرضاة الله، قال بشر: فإن أحببت مرضاة الله وأنت بمنزلك وتكون على يقين من مرضاة الله أتفعل ذلك؟ قال نعم، قال بشر اذهب فأعطها عشرة أنفس: مدين يقضى بها دينه، وفقير يلم بها شعثه، ومُعْيِل يعول بها عياله، ومربى يتيم يفرحه... وإن قوى قلبك أن تعطيها لواحد فافعل، فإن إدخالك السرور على قلب أمرئ، وتغيث لهفان.. أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام.. وإلا فقل لنا ما في قلبك. قال الرجل: سفرى أقوى في قلبى. فتبسم بشر وقال: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرا يشرع اليه فظاهرت. وكان بشر يأكل الطعام بغير إدام ويقول "أذكر العافية فأجعلها إداما" بل كان يقول "تعلمت من أختى فإنها كانت تجتهد ألا تاكل ما للمخلوق فيه صنع" وأخته تصنع الغزل وتبيعه بين أتقياء الفقهاء.

روى عبد الله بن أحمد بن حنبل: دق علينا الباب دَاق، فإذا أمراة تستأذن على أبى، فأذن، فسألته أنا أمراة اغزل بالليل فِي السراج، فربما أطفئ السراج فأغزل في القمر، هل على أن أبين غزل القمر من غزل السراج؟ قال إن كان عندك فرق فبينى ثم قالت: يا أبا عبد الله، هل أنين المريض شكوى؟ قال أرجو ألا يكون شكوى، ولكنه اشتكاء إلى الله، ولما خرجت قال: يا بنى ما سمعت إنسانا قط سأل مثل هذا، اتبع هذه المرأة اين تدخل؟ فأتبعتها، فإذا هى قد دخلت بيت بشر، وإذا هى أخته، فلما قلت لأبى قال: "محال أن تكون هذه إلا أخت بشر بن الحارث".

ويلاحظ أنها لم تسأل بشرا عن هذا البيع، ولا هذا الأنين، وإنما سألت الإمام أحمد، وبشر بحر في الفقه، وإنما انقطع عنه لما فيه من تكريم الفقهاء.

ولتلاحظ أن هذا كان في القرن التاسع الميلادى، وفيه كان شارلمان امبراطورا لأوروبا لا يقرأ ولا يكتب.

(الكرم) وتصفية القوت، ونظافة الثوب، وشدة الورع.

وسَرِى يحاول أن يتقرب إلى الله بالبر بأحمد بن حنبل، ويرده أحمد.

قال له سَرِى أحذر آفة الرد فهى أشد من آفة الأخذ.

قال أحمد: أعد على ما قلت، فأعاده، وشرح أحمد صدرا بمقال سرى، ثم أجاب: ما رددت عليك إلا لأن عندى قوت شهر، فإذا كان بعد شهر فأنفذه لى.

وكان أحمد يعيش من إجارة حوانيت ورثها، قيمتها نحو دينار في الشهر، ولم يحتج لمال أحد.

يقول سرى: (حمدت الله مرة، فأنا استغفر الله من ذلك الحمد ثلاثين سنة: كان لى دكان فيه متاع، فوقع الحريق في السوق.. فخرجت أتعرف خبر دكانى، فلقيت رجلاً قال: أبشر فإن دكانك قد سلم، فقلت: الحمد لله، ثم إنى فكرت فرأيتها خطيئة).

وربما سوغ له ذلك أنه لم يَشْرَكْ جيران السوق في بأسائهم، أو اتماز من بينهم بفضل الله والنجاة، أو كان لرأيه سبب من "مروة" الصوفية المتنادحة الأتجاهات والملاحظات، والمثل التالى يجلى لنا بعض حقائق تجارته أو سمسرته، أو السوق وسعر السوق:

اشترى السرى يوما لوزا بستين دينارا، وعزم أن يبيعه بثلاثة وستين.

وجاء دلال يطلبه بسبعين دينارا.

قال سرى: خذه بستين وثلاثة.

قال الدلال: إن الثمن سبعون.

قال سرى: إنى عقدت بينى وبين الله عقداً أن أبيعه بستين وثلاثة.

قال الدلال: وأنا عقدت بينى وبين الله عقداً ألا أغش مسلماً[١٥١].

وهذا خلاف يشرح الصدر لدقة السوق وعمالها، ويفتح الأعين على الاكتفاء بالربح المعقول ٥٪ وعلى أمانة الدلال أو تاجر الجملة يتمسك بسعر السوق، وعلى منزلة السوق ممن يبيعون ويشترون، فهو سعر شاركت فيه آليات السوق – كما يسمونها الآن – وحركة المعاملات، وكمية السلع وجودتها وتقدير سعرها تقريره الصحيح، والجميع يعبدون الله، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.

يقول إبراهيم النخعى أستاذ مدرسة الكوفة: كان الصانع أحب إليهم من التاجر، وفي الصناعة إضافة إلى المال، وفي التجارة زراعة وصناعة وتجارة ولكلٌ فضلٍ.

ولئن حببت التجارة إلى إمام أهل السنة في القرن الثالث، إن الصناعة كانت أحب في القرن الأول لأهل العراق.

(١٥١) في بحث الإمام الأكبر الشيخ/ محمد محمد الفحام بكتاب المؤتمر الخامس لمجمع البحوث في الأزهر ص ١٩٨٣ أورد اسم السرى السقطى بين العلماء الذين زاروا بيت المقدس: الإمام الشافعى، الإمام الليث بن سعد، الإمام سفيان الثورى، بشر الحافى السرى السقطى وكيع بن الجراح، الإمام الغزالى، أبو بكر الجرجانى، أبو بكر بن العربى

الفرع الثالث
الحسبة ومالية الدولة

المبحث الأول:

الحســـــبة:

١- ولى رسولُ الله -ﷺ- الحسبة بعد فتح مكة سعيد بن العاص، فكان واحدا من بنين أربعة لسعيد جاءوا خليفة رسول الله أبا بكر بعد أن استخلفه المسلمون قائلين للخليفة: نحن لا نعمل إلا لرسول الله، فقبل منهم، لكن العمل أثبت حاجة المسلمين إليهم فعملوا، ومنهم من استشهد في خلافة أمير المؤمنين عمر.

٢- وولى عمر في خلافته عدوية من قومه من المسلمين الأولين، زوجها "حسنة" من جلساء عمر، وابنها "شرحبيل بن حسنة"، قائد واحد من جيوش عمر الأربعة التى انتصر بها خالد في اليرموك، ولم تكن تعفى عمر من ملاحظاتها، بل بدا لها يوماً أن تلاحظ على رسول الله أنه لم يستجب لشكايتها، إذ احتاجت ودخلت دارها فرأت شرحبيل قاعداً والقوم في الخارج يصلون، فاعتذر لها بأن الرسول الكريم لبس قميصه وخرج يؤم القوم.

فاستغفرت لربها، وقالت: كنت ألومه ولا أعلم أن هذه حاله.

وبورك في الأرزاق وتكاثرت السلع والمعاملات فولى عمر السائب بن يزيد وسمراء بنت نهيلة أيضاً.

وولى عمر بن عبد العزيز سليمان بن يسار حسبة المدينة وكان من فقهاء المدينة المشهورين. وعين الرشيد محتسباً في مدة خلافته.

والحسبة في جملتها: تنفيذ واجب الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهى عن المنكر إذا ظهر فعله، وهى واسطة بين القضاء في المعاملات،

وبين الحكم في المظالم، وهى أقرب – في عصرنا هذا – من أعمال الضبطيه القضائية.

فللمحتسب أن يجتهد رأيه في العمل وفي النهى عنه، وفيما يتعلق بالسوق وبالحِرف دون أن يتعرض للشرع، فالحكم بالشرع عمل القاضى أو الإمام.

والحسبة في غايتها ضمان لتطبيق الشريعة في الحياة الواقعة وتصحيح الانحراف في مكان حدوثه.

في كتاب الماوردى (٤٥٠هـ – ١٠٥٨م) "الأحكام السلطانية" – وهو قاضى القضاة في عصره – أن للمحتسب مراقبة حقوق الله – تعالى – وحقوقه المشتركة والمتعلقة بالأدميين، أي: بالعبادات والطاعات والمعاملات، فيراعى أداء الفروض، وأحوال أصحاب الحِرف، والمرافق العامة، والموازين والمكاييل وأحوال أهل الحرف والأسواق والطرق العامة، وله أن يطلب البر بالحيوان، وحرمة المسكن، ويمنع أدوات النقل البرى والبحرى من تجاوز حمولتها، وله أن يمنع المنكر، وهذا معنى واسع.

وللحلال والحرام الشأن الأول في الإباحة والمنع، ومن ثم الصلةُ الوثيقة بالدين، ولما كانت القاعدة رفع الحرج كانت لوظيفة المحتسب خطورتها.

وللماوردى موقف مع السلطان إذ أراد أن يتلقب بملك الملوك، قال العلماء: يجوز، وقال الماوردى: لا. ولم يلبث السلطان إلا قليلا حتى مات، وزالت الدولة بتمامها.

وفي صبح الأعشى يقول القلقشندى: "الحسبة وظيفة جليلة رفيعة الشأن، موضوعها التحدث في الأمر والنهى، والأخذ على يد الخارج على طريق الصلاح في معيشته وصناعته".

ويخبرنا أن القاهرة كان فيها للحضرة السلطانية محتسبان، واحد منهما

بالقاهرة وهو أعظمهما قدرا وأرفعهما شأنا، وله التصرف بالحكم والتولية بالوجه البحرى خلا الإسكندرية؛ فإن لها محتسبا يخصها، والثانى في الفسطاط (محتسب مصر) ومرتبته منحطة عن الأول، وله التحدث والتولية بالوجه القبلى بكماله، والذى يجلس منهما بدار العدل في أيام المواكب محتسب القاهرة فقط دون محتسب مصر (الفسطاط) ومحل جلوسه دون وكيل بيت المال.

ويقول القلقشندى: (وأول من قام بهذا وصنع الدرة[١٥٢] عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – في خلافته).

والأولية لعمر في حمل الدرة مسلمة؛ لكنه كان متبعا في تعيين المحتسب، ولم يكن مبتكرا، فرسول الله -ﷺ- هو البادئ.

ويضيف القلقشندى: (لما اتسع نطاق التجارة وأصبحت موردا لأهل الإعواز من كافة البلاد يتبادلون فيها حاجاتهم وقع غش فاحش في التجارة، وصارت الصيارف من اليهود وغيرهم يعطون مالهم بالربا على أن يعاد إليهم المثل في نهاية العام مثلين وأكثر منه، فأقام الرشيد (في القرن الثانى) محتسبا ليكون بالأسواق، ولفحص الأوزان والمكاييل من الغش، وينظر في معاملات التجارة، على أن تكون جارية على سنن العدل حتى لا تجامل الشرفاء على الضعفاء، والأغنياء على الفقراء).

وإحياء الرشيد للوظيفة بعض إصلاحاته، والحسبة أمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

ويتحدث القلقشندى عن المحتسب في عصر الدولة الفاطمية (٢٥٨ إلى ٤٧١) فيقول: (كان المحتسب من وجوه العدول في الدولة الفاطمية، يقرأ قرار تعيينه على المنبر، يده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا

---

(١٥٢) السوط، أو العصا التى يستعملها المحتسب في إبان مروره، يشير بها، أو يحملها فيستعملها عند التباطؤ في تنفيذ أمره

يحال بينه وبين مصلحة أرادها، وله تعيين نواب له بالقاهرة ومصر (الفسطاط) كنواب له، ويجلس بجامعى مصر والقاهرة يوماً بعد يوم) أي: في جامع عمرو والجامع الأزهر.

وفي القرن الثالث كانت القيروان في تونس صاحبة سلطان في صقلية ابتداء من ٢١٣هـ حين غزاها زياد بن الأغلب وعلى رأس أسطوله قاضى القيروان أسد بن الفرات، ومن قبل ذلك أصدر أبو جعفر المنصور في سنة ١٥٥هـ أمرا بتنظيم سوق القيروان.

٣- وكان يحيى بن عمر الكنانى (٢٨٩هـ) (قاضيا للسوق) في القيروان بعد أن ولى الحسبة زمانا، وقد خلف كتاباً عنوانه (أحكام النظر في جميع السوق).

وهو فقيه مالكى وضع موسوعة الفقه المالكى في كتاب (المستخرجة) وفيها قول ابن حزم: (لها عند أفريقية (تونس) القدر العالى والطيران الحثيث).

عالج يحيى في إيام حسبته العناصر التقليدية في "أجهزة السوق" كالمكاييل والمقاييس والموازين، وراقب البيوع، ومنع غش اللبن باللبن، والزيت بالزيت، والقمح الدون بالقمح الجيد، وإراقة الماء أمام الدور والحوانيت، وكنس الأسواق، ثم تصاعد عمله حسب علمه، فجعل في البيع للجاهل بالثمن حق الرجوع في البيوع، وتحدث عن الأسعار فروى أن (أناساً أتوا رسول الله فقالوا: يارسول الله سَعِّرْ لنا أسعارنا. فقال: "يا أيها الناس إن غلاء أسعاركم ورخصها بيد الله سبحانه، وأنا أرجو أن ألقى الله وليس لأحد عندى مظلمة من دم أو مال).

لذلك قصر يحيى تدخل القاضى في الأسعار على حالات خاصة هى:

١- "تواطؤ" التجار على البيع بسعر يضر بالناس، فإن (على الوالى

إخراجهم من السوق، ويدخل غيرهم..).

٢- من نقص من سعر أهل السوق أُخرج، فقد قال عمر بن الخطاب لمن عرض زبيباً في السوق: (إما أن تزيد في السعر وإما أن ترفع من سوقنا).

٣- الاحتكار إذا أضر بالسوق، فهذا مذهبُ المالكية - وهو منهم - وحكم المحتكر أن تباع سلعته على صاحبها، وله رأس ماله، ويؤخذ الربح ويوزع في الصدقات، وإن عاد لمثل ذلك عزر بالضرب، والطواف به، والحبس.

٤- ومنع يحيى شراء قوت سنة إذا كان ثمة غلاء في الأسعار (حتى لا يرتفع السعر أكثر).

٥- ومنع بيع السلعة في غير سوقها (فهنا سوق لهذا، وهناك سوق لذلك).

٦- ومنع التاجر أن يبيع السلعة في داره، بل هو يخرجها إلى العلانية، فالعلانية من آليات التسعير وإشراك الناس أو إشرافهم، فإذا بيعت بأقل من سعرها في البيت فهذا بيع الخفية عن الناس، وإذا لم يضر بالسوق كان للناس أن يبيعوا كيف شاءوا.

وظاهر أن اختصاصات قضاء الحسبة هذه تنبئ عن ولايته وظيفة القضاء في سوق القيروان، وهو بهذا أول قاضٍ تجارى في الإسلام يتخذ السوق مقراً له، ويقيم فيه محكمة للتجار.

ويلاحظ جانب الموضوعية في هذا الإجراء، واعتبار السوق شخصاً اعتبارياً، واعتبار سعرها حقاً للغائب والحاضر، وهذا النظر مبنى على أن التجارة مؤاخذة بتقوى الله، مخاطبة بقوله - تعالى -:﴿ولو أن أهل القرى آمنوا

واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[١٥٣] وقوله: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾[١٥٤] وتعليل الرسول -ﷺ- لعدم التدخل في الأسعار يجعل حرية الأسعار من أعلى درجات النظام العام في الإسلام.

٤- وللقرشى (محمد بن أحمد) كتاب (معالم القربة في أحكام الحسبة)[١٥٥]: يبدأ بشروط الحسبة، ثم تتتابع الأبواب في (معرفة الموازين والأرطال والمثاقيل) وفي (الحسبة على الطحانين والفرانين والخبازين) وعلى (الخياطين والرفائين) وفي (الحمامات) وفي (مؤدبي الصبيان) وعلى (معاصر الزيوت) وعلى (النجارين والبنائين) الى آخر أبواب سبعين.

إليك مثلاً مما جاء في الباب الأول (للرقابة على الأطباء).

(الطب علم نظرى وبشرى أباحت الشريعة تعلمه، لما فيه من حفظ الصحة، ودفع العلل عن هذه البنية الشريفة.

وينبغى أن يكون لهم مقدم (نقيب) من أهل الصناعة (أي: طبيب).

إذا دخل الطبيب على المريض سأله، ثم يرتب له قانونا في الأشربة والعقاقير، ثم يكتب نسخة لأولياء المريض... وإذا كان من الغد حضر ونظر إلى دوائه وقارورته، وسأل المريض: هل تناقص مرضه؟... وهكذا إلى أن يبرأ أو يموت، فإن برئ من مرضه أخذ الطبيب أجرته وكرامته، وإن مات حضر أولياؤه عند الحكيم المشهور وعرضوا عليه النسخ التى كتبها الطبيب لهم، فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب قضى بفروغ أجله، وإن رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم:

---

(١٥٣) سورة الأعراف الآية ٩٦

(١٥٤) سورة المائدة من الآية ٦٦

(١٥٥) ترجمة إلى الإنجليزية: روبن ليوى، الأستاذ بجامعة كمبردج سنة ١٩٣٨م

خذوا رديتكم من هذا الطبيب فإنه هو الذى قتله).

٥- ومن المؤلفات في الحسبة كتاب (الاحتساب) للناصر للحق الأطروش، يتحدث عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للفرد وللتاجر والصانع في كل ما يتعلق بالخير والشر في طريق الحياة من آداب أو سوء سلوك، أو نصفة أو تراحم، بشرط ألا يعزر المحتسب أحدا، فالتعزير عقوبة ينزلها القاضى بمرتكب المعصية، والمحتسب أداة للإصلاح بين الناس لا لتعزيرهم، وسلطنه أشكل بسلطة الضبطية القضائية، وهو قريب من القضاء في محل المخالفة بالقهر على إزالتها، وهذا مشروع للسلطة بلا خلاف.

روى عبد الله بن عمر: أمرنى رسول الله -ﷺ- أن آتيه بمدية، فأتيته بها، وأرسل بها فأرهفت، فأعطانيها وقال "أغد على بها" ففعلت، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة، وفيها زقاق خمر قد جلبت من الشام، فأخذ المدية منى فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته، ثم أعطانيها، وأمر الذين معى أن يمضوا معى ويعاونونى، وأمرنى أن آتى الأسواق كلها فلا أجد زق خمر إلا شققته، ففعلت، فلم أترك زق خمر إلا شققته.

وعبد الله بهذا قد ولى الحسبة لعمل معين، وأعانه عليه رسول الله - ﷺ- بأعوان، وقد شملت ولايته ما في الأسواق كلها من زقاق.

٦- وقد أنشأت دولة السويد في عصرنا الحالى جهة قضائية في العصر الحديث تسمى Institue Ombudoman.

تدخل الحسبة في اختصاصها إلى جوار نظم القضاء وهذه شهادة بتقدم نظام الاحتساب الذى أنشأه رسول الله -ﷺ- ونفذه المسلمون ورأينا من تطبيقاته محكمة يتحدد اختصاصها المكانى بالسوق، واختصاصها الفعلى بأعمال التجارة، ومقرها في السوق ذاتها.

المبحث الثانى:

في علم المالية:

نشأ هذا العلم مع نشأة الدولة واستعمالها العمال لجمع الزكاة خاصة، وما صدر من السنة الكريمة في غلول بعضٍ، وقد عالجه الفقهاء على ضوء عمل الخلفاء، وسن عمر آداباً وواجبات لاستيداء حقوق الدولة من زكاة وخراج

جئ بأموال الجبابة، فقال لعمالها: "إنى لأظنكم قد أهلكتم الناس".

قالوا: لا والله ما أخذنا إلا عفوا وصفوا.

قال: لا سوط ولا نَوْطَ؟

قالوا: نعم.

قال: الحمد لله الذى لم يجعل ذلك على يدى.

ومن بعده كتب أمير المؤمنين على إلى واليه:

(إنى أتقدم إليك الآن، فإن عصيتنى نزعتك، ولا تبيعن لهم (الرعية) حمارا ولا بقرة ولا كسوة شتاء أو صيف فارفق بهم).

وكتب لواليه على مصر: الأشتر النخعى في تفقد الخراج وصلاح الجباة، وعمارة الأرض: (فإن الخراج لا يدرك إلا بالعمارة).

ومن مؤلفات أبى يوسف (١١٣ - ١٨٢) كتاب الخراج إلى الرشيد في مالية الدولة نكتفى للتعريف به بفقرات منه:

يبدأ بقوله: (إن أمير المؤمنين سالنى أن أضع كتابا جامعا يعمل به في الجباية.. والعشور والجوالى وغير ذلك، وإنما أراد بذلك أن يرفع الظلم عن رعيته... وقد فسرت ذلك وشرحته...)

ثم استطرد يقول (أصبحت وأمسيت وأنت تبنى لخلق كثير استرعاكهم الله وائتمنك عليهم، وولاك أمرهم، ولا يلبث البنيان إذا أسس على غير تقوى الله أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه، فلا تضيعن ما

قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة في الفعل بإذن الله.. فأقم الحق فيما ولاك الله عليه، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء، القريب والبعيد، وإنى أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله، ورعاية ما استحفظك الله، ولا تنظر في ذلك إلا إليه.. وقد اجتهدت لك في ذلك، لم آلك والمسلمين نصحا ابتغاء وجه الله وثوابه، وخوف عقابه...).

ثم تطرق إلى جواب رسول الله على سؤال أبى ذر إياه أن يمنحه إمارة: "أنت ضعيف، وهى أمانة، وهى يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى ما عليه فيها".

وانتقل من السنة إلى ضرب الأمثال من أمير المؤمنين عمر.

فقد روى أنه كان إذا جئ بخراج العراق جمع عشرين من المصريْن "الكوفة والبصرة" في العراق يشهدون أربع شهادات بالله أن هذا الخراج طيب، ليس فيه ظلم لمسلم أو لمعاهد.

وعمر يذكر برأى أبى بكر أن الناس في هذا المال سواء، لأنه معاش، والأسوة فيه خيرمن الأثرة.. ويذكر أبو يوسف رأى عمر فيما يلزم الجباة أنفسهم به، من المشورة والفقه، وخوف الله، قائلا: "فإنك إنما توليه جباية الأموال وأخذها من حلها، وتجنب ما حرم منها" وأضاف واجب العدل واللين للمسلم ولأهل الذمة، والغلظة على الفاجر وترك اتباع الهوى "فإن الله ميز من اتقاء وآثر طاعته على ما سواها"

وذكره بأن أساس الالتزام المالى هو القدرة، وأن رسول الله -ﷺ- قال: "من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه" وأن عمر كان يسأل من يفرض عليهم الخراج: أيطيقونه؟"

وكتب حفيده عمر بن عبد العزيز إلى ولاته بذلك في آخر القرن الأول.

ولم يفت أبا يوسف أن يبصره بواجب الجلوس للناس، فقال له: (لو

تقربت إلى الله يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيتك في الشهر أو الشهرين مجلسا واحدا تسمع فيه المظلوم وتنكر على الظالم؟)

وقال عن الجباة: (إن عليهم ألا ينفروا الناس بمظهرهم، وأن يكونوا على قدر من المواساة، يعودون المرضى... ويلبسون كالناس، ولا يركبون براذين، أو يركبون ما يثير).

ولقد نزع عمر والياً لم يَعُدْ مريضاً، وآخر لم يتمكن من الدخول عليه رجل ضعيف.

× × × × × ×

ولما دنت دنيا أبى يوسف من الآخرة ذكر من تاريخ حياته ذنبا واحدا اجترحه في مجلس القضاء.. فكان يبكي ويقول: (اللهم إنك تعلم أنى وليت هذا الأمر فلم أمل إلى أحد الخصمين إلا في خصومة نصرانى من الرشيد، لم أسو بينهما، وقضيت على الرشيد، ولكنى رفعت النصرانى إلى جانب الرشيد ما أمكننى، ثم سمعت الخصومة قبل أن أسوى بينهما).

٢- أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ):

القاسم بن سلام من أعيان المحدثين في القرن الثالث للهجرة، تتلمذ على الشافعى مع الإمام أحمد بن حنبل، وله الكتابان المشهوران: (تفسير غريب الحديث وشرح كلماته)[١٥٦] ظل يؤلفه أربعين عاما، وكتاب (الأموال).

وفي القاسم قول إبراهيم الحربى الذى اسلفناه في صدد الإمام أحمد بن حنبل.

(١٥٦) هذا الكتاب أقدم كتاب عربى مكتوب على ورق، إذ هو مكتوب سنة ٢٥٣هـ وهو من مخطوطات جامعة ليدن بهولندا

وذات يوم سأل أحمد بن حنبل في حلقته سائل، فأجابه أحمد: "ايت أبا القاسم بن سلام؛ فإن له بياناً لا تسمعه من غيره" قال السائل: فسألت أبا عبيد فشفانى جوابه، وأخبرته بقول أحمد عنه، فقال: "يا ابن أخي: ذلك رجل من عمال الله نشر عمله في الدنيا، وذخر له عنده الزلفى".

زار القاسم أحمد ذات يوم، ثم قال عن هذه الزيارة: (فلما أردت أن أقوم قام معى، فقلت: لا تفعل يا أبا عبد الله، قال: قال الشعبى: "من تمام زيارة الزائر أن تمشى معه إلى باب الدار، وتأخذ بركابه" ومشى معى إلى الباب وأخذ بركابى).

وولى أبو عبيد قضاء طرسوس، وبلغ من أمره أن قال فيه – والى خراسان طاهر بن الحسين: (الناس أربعة: ابن عباس في زمانه، والشعبى في زمانه، والقاسم بن معن في زمانه، وأبو عبيد في زمانه).

وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم فردها وقال: أنا في جنب رجل ما يحوجنى إلى صلة غيره، فلما بلغ ذلك (طاهر بن الحسين)، وصله بثلاثين ألف دينار فقبلها، ثم طلب إليه أن يشترى بها سلاحاً يتوجه به إلى الثغر للدفاع عن الإسلام فصنع ذلك.

وأبو عبيد يقيم صلاح الدولة الإسلامية ونجاحها على تقوى الله، كمثل أبى يوسف، ويعتمد على السنن مثله، ويروى عن خليفة رسول الله أبى بكر، وعن أمير المؤمنين عمر، ويستفتح بقول رسول الله – عليه الصلاة والسلام – "الدين النصيحة" قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: "لله ولرسول ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم[١٥٧]".

---

(١٥٧) عن كتاب (من التراث الاقتصادى للمسلمين)، للدكتور/ رفعت العوضى، أستاذ الاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر مكتبة الكليات الأزهرية

يقول في أرض الحمى االمخصصة لإبل الصدقة أو غنمها: قول عمر لعامله على أرض الربذة إذ حماها: (اضمم جناحك على الناس، اتق دعوة المظلوم فإنها مجابة، وأدخل رب الغنيمة، ودعنى من نعم بن عفان ونعم بن عوف، فإنهما إن هلكت ماشيتهما رجعا إلى نخل وزرع، وإن هذا المسكين إن هلكت ماشيته جاء يصرخ).

وكل عناية بالعنصر البشرى مزية إنسانية، مردها إلى التزام أخلاقى، فالمال يجب أن يؤدى عنه صاحبه زكاته بنفس راضية، وفي ذلك قوله -ﷺ- للناس: "لايصدر المصدق عنكم إلا وهو راض".

ويقول جرير بن عبد الله لبنيه: "يا بنى إذا جاءكم المصدق فلا تكتموه من نعمكم شيئا، فإنه إن عدل فهو خير لكم وله، وإن جار عليكم فهو شر له، وخير لكم، ولا تدعوا إذا صدق الماشية وصدرت أن تأمروه أن يدعولكم بالبركة".

وخطب أبو بكر: "إن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى".

وكتب عمر إلى أبى موسى: "إن الرعية مؤدية إلى الأمير ما أدى الأمير إلى الله، فإذا رتع رتعوا".

وعلى ذلك جرى كتاب الأموال فبحث في صنوف الأموال التى يليها الإمام للرعية، وأصول ذلك في الكتاب والسنة، وبيان إنفاقها.

وتكلم عن الصدقة وإنفاقها في محل تقديمها، والزكاة ومواردها ومصارفها، والتجارات والديون وما تجب زكاته من الديون.

وفي الكتاب تختلط أموال الدولة بالأموال التى تؤدى عنها الزكاة (فالزكاة ليست مالا عاما، وإنما هى حق الفقراء يستوفونه من حائزه).

وتظهر الحرية التامة في تبادل التجارات بين البلدان في قوله -ﷺ-"لا يدخل الجنة صاحب مكس" ولا توضع قيود التبادل إلا على دار الحرب.

ويروى جواب عبد الرحمن بن معقل عن سؤال: من كنتم تعشرون؟ قال: (تجار الحرب (دار الحرب)، كما كانوا يعشروننا إذا أتيناهم)، ذلك ما كان يفعله عمر بن الخطاب.

وقد تبع عمله عمر بن عبد العزيز فيَ أرض مصر مع فلسطين، فكتب إلى واليه عبد الله بن عوف القارئ: (أذهب إلى البيت الذى برفح[١٥٨] الذى يقال له "بيت المكس" فاهدمه).

وينقل عن عمر بن الخطاب حين فصل في ملكية الأرض المفتوحة قوله (ما من أحد من المسلمين إلا له حق في هذا المال، أُعْطِيَهُ أو مُنِعَهُ).

وأن عمر قرأ بعد ذلك الآيات: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾[١٥٩] ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم﴾[١٦٠] ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم﴾[١٦١] ﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾[١٦٢] فاستوعبت هذه الآيات الناس.

ويذكر حق المعونة في سؤال الناس كما قال رسول الله -ﷺ-: "لرجل تحمل بحمالة بين قوم، ورجل أصابته جائحة فاجتاحت ماله، ورجل أصابته فاقة".

وعن الحد الأدنى للعطاء يذهب بعض الفقه إلى إعطاء ما يكون رأس مال، والإمام مالك يترك ذلك لإجتهاد المعطى وحسن ظنه.

---

(١٥٨) بلد على حدود مصر وفلسطين

(١٥٩) سورة الحشر الآية ٧ .

(١٦٠) سورة الحشر الآية ٨ .

(١٦١) سورة الحشر الآية ٩ .

(١٦٢) سورة الحشر الآية ١٠ .

وأبـو عبيـد يـرى أن التوسـعة خـير، ونقـل عـن عمـر أنـه يجـوز شـراء مسكن.

ويضيف حالات: إغاثة الأطفال، لقوله -ﷺ- "من تُرك كَلاً فإلينا، ومـن ترك مالاً فلورثته".

ويقول الحسن بن على: "يجب سـهم المولـود إذا استهل" ويذكـر الإعانـة على الزواج، والعطاء لتعليم القرآن، وإعطاء علاوة زواج للمـتزوج، وإجـراء الطعام على الناس المحتاجين شهريا.

ويذكر أبو عبيد تسوية أبى بكر بيـن النـاس، وتفضيل عمـر فيمـا بينهم حتى قال أخيراً: "لئن عشت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخـر النـاس بـأولهم حتى يكونوا بياناً واحداً".

الفصل الثانى
التجارة مع الله والناس

" والله لو جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل،
لهم أولى بمحمد - ﷺ - منا يوم القيامة "

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

" كل ما احتاج إليه الناس في معايشهم ولم يكن سببه معصية،
أو ترك واجب، أو فعل محرم، لم يحرم عليهم "

ابن تيمية

الفرع الأول
التجارة مع الله والناس

المبحث الأول:

تكريم الإنسان والتيسير عليه:

خص الله - تعالى - الإنسان بخلافته في الأرض وأكرمه ونعمه، ونزلت الرسالة الخاتمة تعلن حقوقه التى لم يأذن له بها الحكام فيما سبق من عصور، وكان الإعلان إيذانا بقيام عصر جديد من المساواة التامة بين البشر، والحرية الكاملة للنفس الإنسانية، وضمانات العدالة الإلهية - لا القانونية التى يمنحها الحكام قدر ما يشاؤن - وبهذه المنح الإلهية أنقذت رسالته العالمية الإنسان، قال - جل شأنه - ﴿هو الذى خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾[١٦٣] وقال للملائكة ﴿إنى جاعل في الأرض خليفة﴾[١٦٤] وقال ﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾[١٦٥].

وأعلن التكافل بين المسلمين في نعم الله عليهم، ونعى في، غير موضع، على الذين لا يتعاونون ولا يتكافلون، كما جاء في سورة الفجر في الذين لا يكرمون اليتيم، ولا "يتحاضون" على طعام المسكين، والذين يأكلون التراث أكلا لما، ويحبون المال حبا جما. ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لما وتحبون المال حباً جماً﴾[١٦٦].

---

(١٦٣) سورة البقرة الآية ٢٩

(١٦٤) سورة البقرة الآية ٣٠

(١٦٥) سورة الإسراء الآية ٧٠

(١٦٦) سورة الفجر الآيات من ١٧ - ١٩

وأعلن القرآن الكريم أن المسئولية شخصية بقوله – سبحانه –: ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه﴾[١٦٧] وقوله ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[١٦٨] و﴿لا تكلف نفس إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾[١٦٩] وبهذه القواعد تحددت مسئولية الفرد، ومسئولية الجماعة، ومسئولية كل منهما عن معاملاته.

والله – تعالى – يجزى على الحسنات بفضله وعلى السيئات برحمته، قال – جل وعلا –: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾[١٧٠].

بل يُرَغبُ الإنسان في العفو عن المسيء ليعم الأرض السلام بقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾[١٧١]

والتجارة مع الناس تتداول الحاصلات والسلع والنقود وغيرها ابتغاء كسب الرزق، إما بالنقل من مكان إلى مكان، أو بالحفظ من زمان إلى زمان، أو المبادلة، أو تغيير المواد، أو تهيئتها لتكون صالحة للاستعمال.

وبهذا التعريف يتداخل أداء الخدمات، والوظيفة، والصناعة، والتجارة، كما تدخل الملكية الأدبية لنتاج القرائح، وفي ذلك الملكية الصناعية الخاصة بالاختراعات والعلامات (الماركات) أو بغير ذلك من أسباب الاحتراف.

ومن تباعد المسافات بين الأزمنة أو الأمكنة في أداء السلع أو تقاضي الثمن كانت أهمية الائتمان "واحتراف" التجارة، وفيهما قوله – سبحانه وتعالى–: ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل

---

(١٦٧) سورة النساء الآية ١١١

(١٦٨) سورة المدثر الآية ٣٨

(١٦٩) سورة البقرة الآية ٢٨٦

(١٧٠) سورة الأنعام الآية ١٦٠

(١٧١) سورة الشورى الآية ٤٠

ا لله فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا ا لله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند ا لله هو خيراً وأعظم أجراً..﴾(١٧٢).

فهو – تعالى – يقرن السعى للرزق بجهاد العدو، ويأمر بقراءة القرآن وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والقرض الحسن، أي: بالعمل الصالح، ويعد العاملين بالخير وعظيم الأجر.

وهو – تعالى – يضع التجارة مع الله في أعلى الدرجات حيث يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون با لله ورسوله وتجاهدون في سبيل ا لله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾(١٧٣) كما يشترط الله للتجارة بين الناس أن تكون عن تراض(١٧٤) ويخفف من إجراءاتها إذا كانت تجارة حاضرة يديرونها بينهم(١٧٥) ويقول –ﷺ– "أفضل الأعمال الاكتساب للإنفاق على العيال".

والبشر من قديم يتبادلون السلع ليتكاملوا في داخل الجماعة، ومنذ الآلف الثالثة قبل الميلاد كانت بلاد بونت (الصومال الحالية) مألفا للتجارة المصرية، ومن بعد ذلك كان حمورابى (١٧٢٨ ق.م) في بلاد ما بين النهرين في الجزيرة العربية (بابل) يصدر قوانينه، لتظهر آثارها في شريعة اليهود، وقد حدد الربا بأن يكون خمس القرض، في حين يحل الله التجارة ويحرم الربا.

---

(١٧٢) سورة المزمل الآية ٢٠

(١٧٣) سورة الصف الآيتان ١٠ – ١١

(١٧٤) انظر الآية ٢٩ من سورة النساء

(١٧٥) انظر الآية ٢٨٢ من سورة البقرة

المبحث الثاني:

التجارة مع الله

ومن التجارة مع الله: ابتغاءُ وجهه في التصرف، سواء أكان في العبادة أم في المعاملة، وبهذا لا تبتعد التصرفات من العبادات التى يقوم بها المسلمون، وهذا وحده يذكر بالحلال والحرام، وهو - عز وجل - القائل: ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾[١٧٦] ويقول النبى -ﷺ- "إن الله - تعالى - لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

ولهذا الوضع الذى يجد المسلم نفسه فيه على الدوام "قيمة حقوقية"، وهى أقوى وأظهر في الحقوق العامة وحقوق الإنسان التى تكفلها الدولة والمجتمع معا، كما تظهر في تضامن المجتمع في الواجبات الكفائية وهى من أهم أركان النظام القانونى في الإسلام.

ونظام الملكية في الإسلام قائم على الاستخلاف، والناس فيه نظراء، لا يعدو أحد طوره.

والمسئولية المالية في التضمين ثابتة على كل من أحدث ضررا، بالآخرين وإن لم يخطئ، فإحداث الضرر وحده موجب للضمان دون إثبات الخطأ ممن أحدث الضرر، فالسلامة واجب عام وحق أصلى للإنسان على مجتمعه.

وهذا حق لا تسلم به الحضارة الغربية حتى الآن، بل تشترط له خطأ من أحدث الضرر.

و﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾، فالقدرة شرط التكليف، وهو وجه تتجلى

---

(١٧٦) سورة طه الآية ١٢٤

فيه رحمة الله، وكل نفس بما كسبت رهينة، وللأسرة وعليها واجبات، وفيها البيئة المثلى للتربية على الدين وما يستلزمه من تبعات، والشريعة تحمى الأسرة وأفرادها وأملاكها بحدود وتعزيرات، وتحبب إليها مكارم الأخلاق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر، والتواصى بالحق. وبإطعام المستحق وكل ذلك من الدين، "وحقوق الله" فيها واسعة.

* * * * * *

والحريات مجلى هام من مجالى التضامن الإسلامي، ومنها حرية التصرف، والرأى، والقول، وحرية التجارة، وحرية السوق، وحرية الأسعار.

والله مع العبد في كل حالاته، وهو سائله عما يخرج به عن أمره وعن حسن القيام به، وهو – جل ثناؤه – القائل: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا ا لله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾[177] والقائل: ﴿واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً﴾[178] وما أعظم ثوابه وأجدره بالشكر إذ يقول لنا ﴿فاذكرونى أذكركم﴾[179].

وهو – تعالى – القائل: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هى المأوى﴾[180] وقد فتح أرضه لعباده بفقه الشريعة، فالإباحة هى الأصل في المعاملات، والحلال أصل آخر. يقول –ﷺ– "الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد

---

(177) سورة الحشر الاية ١٩

(178) سورة الكهف الآية ٢٤

(179) سورة البقرة الآية ١٥٢

(180) سورة النازعات الآيتان ٤٠ – ٤١

استبرأ لدينه وعرضه، ومن حام حول الحمى أوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، وحمى الله في أرضه محارمه".

ويفتح الأبواب الواسعة للأخوة الإنسانية إذ يبشر المسلم بأن كل سلام منه أو عليه صدقة منه أو صدقة عليه، وكل يوم تطلع الشمس فيه يعدل فيه بين اثنين صدقة أو يعين الرجل على دابته صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة.

ويقول -ﷺ- "المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام: عرضه وماله ودمه، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم.." فالتناصر واحترام الغير "أخوة" في الإسلام لا مجرد صلة عارضة أو طريقة تعامل.

والله تعالى يأمر بالعدل والإحسان والقرآن يفسر الاحسان بالإنفاق حيث يقول – سبحانه وتعالى – ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾(١٨١) ومن ذلك صار بر المحتاج وجه إحسان، وكل حفاظ على المروة وجه إحسان وإنفاق، والرسول الكريم يقول: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه".

وكما يطهر الرسول نفس المسلم يطهر مجتمعه كله بقوله: "من غشنا فليس منا، والمكر والخداع في النار، ويجعل سعى المسلم للنفس والأهل والمستحقين سعيا إلى الله بقوله: إن كان يسعى على أولاد صغار فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين شيخين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله".

* * * * * *

(١٨١) سورة الكهف الآية ٣٠

في هذا الإطار الواسع من البحبحة للمسلم مع الالتزام بحقوق الغير نستطيع أن نفهم قول الإمام الشاطبى (٧٩٠هـ): "قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده من العمل كقصد الشارع من التشريع، والشريعة موضوعة لمصالح العباد على الإطلاق، والمطلوب من المكلف أن يجرى أعماله على ذلك" فالتزام العمل كما يريده الشارع - لا كما يريده العامل - قاعدة مسلمة، وهى كذلك حق لمن يتعامل مع الله.

وفي الأحكام الشرعية: الواجب، والمحرم، والمندوب، والمكروه، والمباح.

فالواجب: ما يثاب المرء على فعله، ويعاقب على تركه؛ كالصلاة.

والمحرم: ما يثاب على تركه، ويعاقب على فعله، كالقتل.

والمندوب: ما يثاب على فعله، ولا يعاقب على تركه، كالصدقات.

والمكروه: ما يثاب على تركه، ولا يعاقب على فعله، كرفع البصر للسماء في الصلاة.

والمباح: ما لا يثاب المرء على فعله، ولا يعاقب على تركه، وكم فيه من حسنات كالنوم على غير ضغن، والمشى في مناكب الأرض سعيا للرزق قال -ﷺ-: "إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها".

وفي الشريعة تنظيم شامل لشئون الحياة والأحياء، وعلاقة الإنسان بخالقه - ومنه العبادات، ونظم الحدود والتعزيرات، وضوابط النسب والميراث، وشئون الأسرة وعلاقات الحكام بالمحكومين. وعلاقات المسلمين بغير المسلمين، والحرص على مجانبة الحرام والتزام الحلال.

والله - تعالى - لم يترك عباده سدى، بل أرسل الرسل، وأنزل

الرسالات ليبلغوها، وكانت الرسالة الخاتمة أوفاها بالبيان، وبهذا كان القرآن ﴿تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾[١٨٢].

ومن رحمة الشريعة نجد الحرام منهيا عنه بنص قاطع، أو دليل واضح، يعاقب مخالفه في الآخرة، وقد يعاقب عليه في الدنيا، ومنه الكبائر بوجه عام كالسرقة، وشرب الخمر، وقول الزور، وتعاطى الميسر والغش في التعامل.

ومن الحرام ما هو محرم لذاته – كالأمثال السابقة – ومنه ما حرم لما يقترن به أو يؤدى إليه مثل مقدمات الزنى، وكشف العورات، وبيع العنب لمصنع يعصره خمراً.

وإنك لتجد المكروه أقرب إلى الحرام، ويقال عنه: مكروه تحريماً ومن المكروه ما يكون إلى الحلال أقرب، فيقال عنه: مكروه تنزيها.

ومن الأئمة من يتحرجون فيقولون حيث لا يجدون نصاً بالتحريم: هذا أكرهه، أو هذا لا أحبه، أو لا يعجبنى، أو لا استحبه.

ومن المعاملات في الإسلام عقودالأمانة، وهى أنموذج في اقتصادياته، ومن الذنوب كبار وصغار.

والله – تعالى – يستثنى اللمم: ﴿ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾[١٨٣].

وفي الفقه منادح شتى للاختلاف، وكما يكفل الإسلام حرية الاجتهاد يكفل حرية الاختلاف، وفي تعدد الآراء سعة، قال تلميذ لأحمد: ألفت كتاباً سميته (كتاب الاختلاف) فقال أحمد: سمه كتاب السعة.

---

(١٨٢) سورة النحل الآية ٨٩

(١٨٣) سورة النجم الآيتان ٣١، ٣٢

وفي ذلك قول الخليفة عمر بن عبد العزيز: (ما سرنى أن أصحاب محمد لم يختلفوا، لو لم يختلفوا لم تكن رخصة).

وفي ميدان "الإباحة" الأصلية سعة لا تجدها إلا في شرع الله، وقد جعل الصدقات والأعمال الصالحة والقرض الحسن تجارة مع الله.

والوفاء فريضة – حتى بعد الموت – والعارية مضمونة، وتعادل الأداءات بين المتعاقدين أول الواجبات.

والتجارة ملاكها: حسن النية والنصفة، والسوق ميدان خدمة عامة وإن ابتغى الأفراد فيها مصالحهم "والتاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء" كما قال –ﷺ–.

والمياسرة مطلوبة في كل أمر، يقول –ﷺ–: "المؤمن سهل البيع، سهل الشراء، سهل القضاء، سهل الاقتضاء".

وأسواق المسلمين معاهد للتناصف والتناصح، والقوم ربانيون حتى وهم يتسوقون.

هكذا تدخل الأخلاق في العمل الصالح كجزء من الإيمان، ويخرج منه ما لا يلتزم الأخلاق من عمل.

ولما أخبروا رسول الله عن امرأة تحسن الصلاة والصوم والطاعات لكنها تؤذى جيرانها قال: "هى في النار".

× × × × × ×

وفي أخوة الإسلام سعة، إذ هى تفرض على المسلم من فروض الكفاية مساعدة غيره إذ يحتاج إليه ما دام ذلك في مقدوره وفي ذلك قولهم: (ما المعطى عن سعة بأفضل من الآخذ لو كان محتاجاً).

وللعطاء آداب تزينه للأعين وتزيده في الوزن وتحببه إلى الأذن.

روى إبراهيم الحربى: كنا عند عبد الله بن عائشة في مسجده إذ طرقه سائل، ولم يكن عنده ما يعيطيه، فدفع إليه خاتمه، ولما ولى السائل دعاه عبدالله وقال له: لا تظن أنى دعوتك ضنا منى بما أعطيتك.. إن فص هذا الخاتم بخمسمائة دينار، فانظر كيف تخرجه.

فضرب السائل الخاتم بيده فكسره، ورمى الفص إليه وقال: بارك الله لك في فصك، هذه الفضة تكفينى في يومى.

ولا ريب في أن عبد الله أراد مصلحته، وحفظ الفص له، ولكن السائل بدا له منه ما لا يليق، وربما تغيرت الوقائع لو تغير السائل، أو تأدى إليه عبد الله بما هو أفضل وأنجح.

ومن أقوال سفيان الثورى: (إذا أوليتك معروفا فكنت أسر به منك، وكنت أشد استحياء منك.. فاشكر، وإلا فلاً).

ومن قبل ذلك قصد الفتح الموصلى - وهو من أئمة الزاهدين - الى منزل صاحب له، وأمر أهله ففتحوا صندوقه، وأخذ منه كيسا فتحه وأخذ منه حاجته، ولما رجع صاحبه أعلمته الجارية بما كان، فقال لها: إن كنت صادقة فأنت حرة لوجه الله.

والسجاد على بن الحسين زيد العابدين - رضى الله عنهما - يسأل شيعته: هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه أو كيسه فيأخذ ما يريد؟

قالوا: لا.

قال: لستم بإخوان !!

وكان سعيد بن أبى عروبة (١٥٠هـ) لا يعرض الطعام على الإخوان، ولكن يُعَرض به، فاللحم مسلوخ، والخبز موضوع، ولكل داخل أن يصنع ما شاء من طبخ أو شواء، وكذلك الأثواب، وكل ما يملكه معلق طاهر، من يدخل يأخذ ما يشاء، ويخرج بما شاء.

الغنى والفقر:

وليس أبلغ ولا أيسر في تزيين العلاقات من قول صاحب الشريعة: "إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه، وحسن الخلق" وقوله: "أكثر ما يدخل الناس الجنة التقوى، وحسن الخلق".

وما دام المسلم ذاكرا لله فهو في أنس دائم وثقة، والتوكل طريق قاصدة: للعمل الصالح وابتغاء المصلحة الخاصة أو العامة، والرزق من الله – جل ثناوه – يقول –ﷺ– وهو يوزع الحقوق: "إنما أنا قاسم والله يعطى".

ولم يشتهر العلماء أو رجال القضاء أو الحكام الصلحاء بالثراء، بل لم يشتهر الصحابة الأغنياء بغناهم، وإنما اشتهروا بما أسهموا به من النفقة على أهل الإسلام، ومن بطولاتهم في المواقع، وكان ثراؤهم الحق هو تجارتهم مع الله.

لقد بعث عمر عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً إلى أهل الكوفة، وقال: إنه آثرهم به على نفسه، وكان عبد الله يقول عن الغنى والفقر: (هما مطيتان، ما أبالى أيهما ركبت، إن كان الغنى ففيه الشكر، وإن كان الفقر ففيه الصبر).

وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن رجل عنده مائة دينار: أيكون زاهدا؟ وأجاب: (نعم. على شريطة أنها إذا زادت لم يفرح، وإذا نقصت لم يحزن).

والإمام على قمة في الزاهدين، يقول: (لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده) ويقول: (عجبا لأمر المسلم؛ يجيئه أخوه في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً! فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا لقد كان ينبغى أن يسارع إلى مكارم الأخلاق؛ فإنها مما يدل على سبيل النجاة.

وفي المعنى ذاته قول الإمام جعفر الصادق: البخل والجبن خلتان يجمعهما سوء الظن بالله.

تقوى الله في كل حال:

ورد لفظ (التقى) ومشتقاته في القرآن الكريم في نيف ومائتى آية، ومن أظهرها قوله – تبارك وتعالى –: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾[١٨٤].

وسورة الحجرات تعلن أن المؤمنين أخوة، وتأمرنا بالإصلاح بينهم، وتعلن مبدأ المساواة بين الناس من كل الأجناس، وتؤكد علة التفضيل حيث تقول للناس: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[١٨٥].

وعمر بن عبد العزيز يقدم لنا من معانى التقوى: قول الحق، والعزوف عن المجازفة بالباطل، حيث يقول "التقى مُلْجِمٌ ".

وعرفها بعض بقوله: ألا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

وظاهر النصوص أن التقوى رأس الأمر كله، وأن المتقين هم السابقون المفضلون.

ولقد تتبع الإمام محمود شلتوت في بحث له كلمات: المؤمنين، والمحسنين، والمتقين في القرآن الكريم، فوجد لفظ (التقوى) أوسعها شمولا، وأعمقها في الإصلاح. قال: (وعلى الجملة فقد تحدث عنها القرآن في معرض السلامة من كل شر، والحصول على كل الخير) ولا جرم أنها جماع مكارم الأخلاق.

---

(١٨٤) سورة الطلاق الآيتان ٢ – ٣

(١٨٥) سورة الحجرات الآية ١٣

المبحث الثالث:

القضاء والقدر والرزق:

الكتاب الكريم يستفتح سورة البقرة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ﴿الَمَ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يؤقنون﴾[186] وبهذا شملت طبقة المتقين عناصر الإيمان بالرسالات وبالغيب وبالبعث والقيام بالصلاة كرمز للعبادات، وبالإنفاق على المحتاجين مما يرزق الله عباده كرمز للأخوة الإنسانية.

والإيمان إقرار وعمل صالح، والرسالات جميعها تحث على العمل، قال رسول الله -ﷺ-: "أفضل الكسب بيع مبرور، وعمل الرجل بيده".

وتقديم التعامل "المبرور" أمرٌ بنزاهة التعامل، وامتداح لتأليف القلوب.

وأما العمل باليد فأقرب الجهد إلى الأنفس، والأمران عمل بالعقل في حدود الشرع، وعمل العبد هو السبب الذى أمر به، والرزق من الله وحده.

وقال -ﷺ-: "أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق" ويقول "لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كالخلق".

ولا يعطل الورع السعى للرزق، ومن دعائه "اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر" قيل: "أيعدلان؟ قال: "نعم".

وقال: "إن الله يحب أن يرى عبده تعبا في طلب الحلال" وطلب الحلال سبيل الله، قال -ﷺ- "إن كان يسعى على ولد صغار فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن خرج يسعى تفاخراً وكبْراً فهو في سبيل

(١٨٦) سورة البقرة الآيتان ١ – ٤

الشيطان"، وأمر أمته أن لا تتمرد في ملكوت الله بقوله لا تسبوا الدنيا، فنعم المطية للمؤمن، عليها يبلغ الخير، وينجو من الشر":

ووصاته -ﷺ- بالورثة حث على تضامن الأجيال، يقول لسعد بن أبى وقاص "أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس".

وهو - عليه الصلاة والسلام - ينهى عن سؤال غير الله بأساليب بليغة، يأمر بها، أو ينهى، أو يكره، وقد سبق علينا نهيه قبيصة عن السؤال إلا لحالات بينها، وفيما عداها يقول: "من يسأل الناس فيعطى يكون كالذى يأكل ولا ينفعه الأكل. اليد العليا خير من اليد السفلى، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول".

والإمام جعفر الصادق يقول: "المعروف ابتداء فأما ما أعطيت بعد ما سأل السائل فإنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه".

ويقول "لَماَ يتجشم أحدكم من مسألته إياك أعظم مما نال من معروفك" وخير البر ما تعهد به امرؤ نفسه فكفاها، أو كفى غيره".

والدعاء ذكر، والاستغفار ذكر، والمسلم دائما على غرر حتى يتقبل الله ما يفعل، وهو - سبحانه - يقول ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾[١٨٧] ويقول عن قضائه وقدره: ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾[١٨٨].

والقدر: ما يقدره الله من القضاء، وهو القائل: ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾[١٨٩].

عن عبد الله بن عمر قال: نزل (فمنهم شقى وسعيد) (سورة هود ١٠٥) فقال عمر: يا نبى الله علام نعمل؟ على أمر فُرغ منه أم لم يُفرغ منه؟ قال

(١٨٧) سورة الكهف الآية ٣٠

(١٨٨) سورة البقرة الآية ١١٧

(١٨٩) سورة الأحزاب الآية ٣٨

ﷺ "لا. على أمر قد فرغ منه قد جرت به الأقلام، ولكن كل ميسر ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾(١٩٠)" فالقدر السابق لا يمنع العمل الواجب لأن التقدير شامل للأصل وللوسيلة معاً ورسول الله -ﷺ- يقول: "إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، فإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، قال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم﴾(١٩١) ثم ذكر الرجل "أشعث أغْبر يمد يديه الى السماء: "يارب"، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب له"!!.

والحرام لا يكون رزقاً سواء أكان مالاً أو جاهاً.

وفي حين نقرأ في عبارات التوراة عن الأهل والأقرباء في سفر الخروج الإصحاح العشرين بعد خلق الكون: "أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك. لا تقتل، ولا تزن، ولا تسرق، ولا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشته بيت قريبك، ولا تشته امراة قريبك، ولا عبده ولا أمته، ولا ثوره ولا حماره، ولا شيئا من قريبك"، نجد الأمر بالنسبة للمسلمين مختلفاً جداً، فكل المسلم على المسلم حرام دمه، وعرضه، وماله، والكبائر لا تقتصر على القتل والزنى والسرقة، والموبقات موبقات على الناس جميعا، ولا تقتصر على ما يجنى فيه على الأقرباء.

بل المسلم يتقى الله بأوامر قطعية في الجرائم والآثام كافة، ثم هو مأمور بالإحسان إذ يدفع السوء عن نفسه ﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة أدفع بالتى هى أحسن﴾(١٩٢).

---

(١٩٠) سورة الليل ٥ - ١٠

(١٩١) سورة المؤمنون الآية ٥١

(١٩٢) سورة فصلت الآية ٣٤

والمسلمون مأمورون بالمعروف، يقول -ﷺ-: "الدين النصيحة" وهى لله ولرسوله وللمومنين، وللجميع.

والنصح في العلم ضرورة، والخيانة فيه كالخيانة في المال، ورسول الله يقول: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان".

المبحث الرابع:

حسن النية وحق الله وحق العبد:

والحقوق تثبت بإثبات الشارع لها، ومن ثمة لم يحتج الفقهاء الأولون إلى نظرية سوء استعمال الحق التى وصل الأوروبيون إلى مشارفها في هذا القرن، ولم يصلوا بها الى التخفيف من الشراهة والمغالبة، فالحقوق في الحضارة الغربية تنشأ مطلقة، لكنها في الإسلام تنشأ مقيدة بما شرعها الله له، أي في خدمة فضيلة من فضائل الإسلام، ومن ثمة تتلاقى الأخلاق الإسلامية، والنصوص على مقاصد الشريعة، في حين لا تشمل القوانين التى يضعها البشر إلا الحد الأدنى من القواعد الخلقية التى لا غنى عنها للمجتمع الغربى.

والتصرفات الفقهية ومنها العقود، والعهود، والنذور، أي: التصرف من جانب واحد، تصدر لتنفذ، ولا يغنى الضمان عن الوفاء بها، وإنما التنفيذ العينى حق العاقد، كما رتبه العاقدان، أو كما يجب لإعادة الحالة إلى ما كانت عليه، فإن استحالت أو اكتفى صاحب الحق بالضمان انتقل الحق إلى الضمان - وليس كذلك الأمر في دول أوروبة أو سواها، فثمة قد يستبدل بالتنفيذ العينى التنفيذ بمقابل، أي: التعويض.

ورسول الله يقول: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه".

١- والنية: قصد العمل، وقصد العقد، يداخلها ابتغاء رضوان الله، فيثاب عليها صاحبها، وفي ذلك قوله -ﷺ- "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل

أمرئ ما نوى".

ويقول أبو داود إن هذا الحديث نصف الإسلام، لأن الدين إما ظاهر – وهو العمل به – وإما باطن – وهو النية – والإمامان الشافعي وأحمد كمثله يقولان: يدخل في هذا الحديث نصف العلم، لأن كسب العبد يكون بقلبه وبلسانه وبجوارحه، والنية شطر هذه الأقسام الثلاثة، والجمهور يشترطون حسن النية في أغلب الوسائل والمقاصد.

ومن هم بحسنة ومنعه من إتمامها مانع، له ثوابها عند الله، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تحسب سيئة، وفي ذلك قال – عليه الصلاة والسلام –: (إن الله – تعالى – تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به).

وعندما يتغير العرف تتغير النية من التعاقد، وقد تتغير الألفاظ، وقد يغنى السكوت حسب مفهوم المجتمع: كانوا يأخذون بقول الزوج "إنه دفع الصداق" لأن العادة كانت دفع الصداق قبل الدخول، ولما تغيرت العادة فصاروا يدخلون قبل دفع الصداق تغيرت العادة وصاروا يأخذون بقول الزوجة.

٢– وما يقال إنه حق خالص للعبد فليس كذلك، وإن كان حقه راجعا إلى مراعاة الأحكام الدنيوية، وفي الكتاب العزيز بيان لكل شيء، وقد وضع الإحسان إلى جوار العدل، ومراعاة حق النفس مثل مراعاة حق الغير، حتى الدولة إذا عاهدت مع عدو يتعين عليها أن تسلك معه مسلك الإسلام فترعى حقه مراعاة المتعاقد حق المتعاقد الآخر، بأمانة الله، وتنصفه مثل إنصافه لنفسه في حقوقه، وما يقال: إن حق العبد غالب فيه فلله فيه حق بتطبيق فضائل الإسلام، والعدل فرض، والخروج عليه معصية.

والشريعة – كما يقول ابن القيم –: "عدل كلها ورحمة كلها، وكل مسألة

خرجت من العدل إلي الجور، ومن الرحمة إلى ضدها، ومن المصلحة إلى المفسدة ومن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة.

والإمام الشاطبى (٧٩٠هـ) يقول: "إن كل حكم شرعى فيه حق لله – تعالى – فعبادته امتثال أوامره، وما يقال إنه حق للعبد ليس كذلك، وإن كان حقه غالبا مراعاة للأحكام الدنيوية، وكل حكم شرعى فيه حق للعباد، والشريعة وضعت لمصلحتهم فالحقان متلازمان".

وفي أداء الواجب ثواب، وفي أداء المندوب إليه ثواب، وفي المباح إذا عمل ثواب إذا دخلته نية الخير، ولذلك يقال: إن النية تحول المباح إلى مطلوب، كالسعى للعيش بجمع المال إذا دخلت فيه نية الصدقة منه، أو الجهاد به.

يقول أبو داود السجستانى سليمان بن الأشعث (٢٧٥هـ) عما جمعه من سنن رسول الله -ﷺ-: "كتبت الصحيح وما يشبهه ويقاربه (٤٨٠٠ حديث) انتقاها من ٥٠٠ الف حديث" ويكفى للإنسان لدينه من ذاك أربعة أحاديث:

أحدها: قوله -ﷺ-: "إنما الأعمال بالنيات".

وثانيها: قوله: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه".

وثالثها: قوله: "لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه".

ورابعها قوله: "الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات".

والنية الحسنة مؤدية إلى العمل الحسن، والنية الصحيحة لا يدخلها فساد، لأن أصلها حب الله ورسوله، وكل عمل من المؤمن يقابله عمل من قلبه ملازم له.

وحسن النية وحق الله تعالى في كل التصرفات يلقيان على العاقد التزامات.

المبحث الخامس:

الاجتهاد - المصلحة والعرف:

١ - أمر الله ورسوله بالاجتهاد إذا لم يوجد نص من القرآن أو السنة أو إجماع بقوله -ﷺ-: "إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر" وعلى هذا جاء قول الإمام الشافعى: "كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة".

"وإذا قاس من له القياس فاختلفوا وسع كلا أن يقول بمبلغ اجتهاده ولم يسعه اجتهاد غيره فيما أدى اجتهاده بخلافه" وبهذا يظهر نهيه عن تقليد نفسه، أو تقليد غيره ويقول: "إذا رويت عن رسول الله -ﷺ- فعلى الرأس والعين".

المصلحة:

ومن تضافر النصوص نتجت أصول قطعية تتغيا اليسر وتهدى إليه، كما تتسع مصادر الفقه حيثما يستنبط من النصوص معنى يقطع بالحكم، وبهذا تتحقق المصالح الملائمة لمقاصد الشارع دون ابتغاء الدليل عليها بنص خاص، فالمعنى القطعى كاللفظ القطعى(١٩٣).

وفي ذلك قول الشاطبى: (كل أصل شرعى لم يشهد له نص معين وكان ملائما لتصرفات المشرع ومأخوذا "معناه" من أدلته فهو صحيح يبنى عليه ويرجع اليه إذا كان الأصل قد صار بمجموع أدلته مقطوعاً به، لأن الأدلة لا يلزم أن تدل على القطع بإنفرادها دون انضمام غيرها إليها، ويدخل تحت هذا ضرب الاستدلال المرسل الذى اعتمده مالك والشافعى..).

---

(١٩٣) (كتاب الفقة الإسلامي مصدر التشريع) مقدمة المؤلف من إصدارات لجنة تجلية مبادئ الشريعة ١٩٧١م المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

(والأصل الكلى إذا كان قطعيا قد يساوى الأصل المعين، وقد يُرْبي عليه بحسب قوة الأصل المعين وضعفه).

"ومن هذه الأصول الكلية" تغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، ودفع أشد الضررين".

وكل منهما مستنبط من مجموعات أحكام ورد فيها نصوص.

جاء في المرجع المشار إليه (وحسبنا دليلاً على ذلك أن فقهاء المسلمين أقاموا حضارة قانونية ازدهرت فيها الصناعات والرياضيات، وعلوم الفلك، والاقتصاديات، والعلوم الاجتماعية في أوروبا بالأندلس ثمانية قرون بتمامها يتعلم فيها عندهم أهل أوروبة في معاهد العرب، وأقاموا حضارة مثلها في وسط آسيا في روسيا الحالية والهند وأفغانستان، وإيران، حتى العصور الحديثة)(١٩٤).

العرف والعادة:

يقول الشاطبى: (كل ما في الشريعة يتبع العوائد، يتغير فيه الحكم عند تغيير العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة).

فهو يخضع العادات للأحكام - وهذا ضمان لصحة الاجتهاد، وإيذان بقبول التطور الذى تتجه إليه أعراف مأذون بها شرعاً، واختلاف الأحكام عند تغير العوائد ليس اختلافاً في أصل الشرع، لأن الشرع موضوع على أنه أبدى دائم، وإنما مبنى الاختلاف أن العوائد إذا اختلفت رجعت كل عادة إلى

(١٩٤) ومن جوامع الكلم للإمام محمد عبده إن في الإسلام من ضروب الهداية ما يعد من الأصول الخاصة بالإسلام كبناء العقائد في القرآن على البراهين العقلية وبناء الأحكام الأدبية والعملية على قواعد المصالح والمنافع ودفع المضار.

أصل شرعى يحكم به عليها. كان الأسود لونا مذموما في عهد أبى حنيفة، فرأى أن صبغ الثوب بالأسود ينقص ثمنه، ولما صار الشعار الأسود شعار الدولة العباسية رأى صاحبا أبى حنيفة (أبو يوسف، ومحمد) أن صبغ الثوب باللون الأسود يزيد ثمنه.

والشاطبى - يمثل لذلك بأن كشف الرأس قبيح لذوى المروءات في الشرق، فيكون قادحا في عدالة الشاهد، وليس الأمر كذلك في الأندلس.

وأبو حنيفة يرى المعروف عرفا كالمشروط شرطا - والأمر كذلك الآن في المعاملات التجارية في دول الغرب - ويشترط لذلك عندنا أن يكون العرف، موافقاً للشرع[١٩٥].

والإمام مالك يرى نفى الغرر جملةً في العقود غير مقدور عليه، مثل أن يُستأجر الأجير بطعامه، فهذه عادة، والغرر فيها يسير، والغرر في الأكل يسير، ولكنه ليس يسيراً في الثمن.

ولذلك قالوا: يجوز بيع السلعة وتأجيل ثمنها إلى (وقت الحصاد) وبعدم جواز بيع السلعة بما (يقارب) درهما.

حرية الإرادة والتعاقد:

"والمسلمون عند شروطهم" كما قال -ﷺ- يستطيعون التعامل فرادى أو مجتمعين، في صِلاتهم الخاصة والعامة، ولهم أن يتخذوا الوسائل لذلك، ومن المعاملات إنشاء الشركات حسبما يحتاجون، ويضعون لها من الشروط ما

---

(١٩٥) في قرارات مجمع الفقه الإسلامي بجدة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٨ شروط في العرف المعتبر شرعاً:

أ - الا يخالف الشريعة. ب - أن يكون غالبا ومستمراً.

ج - الا يصرح العقد بخلافه. د - أن يكون غالبا عند إنشاء التصرف.

يشاؤن، إلا أن يخلوا بالعدل أو المساواة أو الحرية، أو يخرجوا على النظام العام للإسلام.

شروط فقهية:

ومن الشروط في العقود ما وضعه الفقهاء لتنظيم التصرفات تبعا للعصور وحاجاتها، أو درءًا للفساد الذى عانوه أو توقعوا حدوثه في عصورهم، يصفها بعضٌ بأنها شروط فقهاء. أما الشروط التى لا يصح العقد بغيرها كالتراضى أو تعادل الأداءات، أو الأمانة، أو الوفاء، أو رفع الضرر، أو منع تحكم المتعاقد في الطرف الآخر فهى من موازين العدل بين المتعاقدين لا يجوز الإخلال بها.

ولم تتوقف أدوات الفقه عن مسايرة الظروف، فلا حرام إلا بنص، أو بسد الذريعة إلى حرام، وتحريم ما تدعو اليه الحاجة أشد ضرراً من كونه غرراً. وتعريف الحاجة هو أن يصل المرء إلى حيث إذا لم يتناول الممنوع يكون في جهد ومشقة، ولكنه لا يهلك.

والله – تعالى – يقول: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾[196] ويقول ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[197].

وفي تنوع الأراء ثراء، يقول تلميذ للإمام أحمد: "ما رأيت مثل أحمد بن حنبل سئل عن ستين ألف مسألة فأجاب بقوله: حدثنا، وأخبرنا" أي أنه وجد في القرآن والحديث والخبر جوابا عن جميع المسائل.

---

(196) سورة الحج الآية ٧٨

(197) سورة البقرة الآية ١٨٥

اتساع السنة:

وتوسيع دائرة السنة في التطبيق يوسع الاجتهاد وحرياته فيضاعف يسر الفقه، والإمام أحمد بن حنبل يطبق نصها ولا يلتفت إلى عمل الصحابى، ويختار من فتاوى الصحابة إذا تكاثرت ما تؤيده حجة عنده، وإذا لم يختر منها دونها ولم يجزم فيها برأى، لتكون بين أيدى المجتهدين.

والحديث الضعيف عنده ليس ضعيفا بمعنى عدم صحته، بل هو قسيم الصحيح، ولذلك يرى أن الضعيف في بعض رواته أو المرسل (بغير إسناد) أولى من القياس إذا لم يوجد في الباب ما يدفعه، أي (حديث يعارضه)، وأخيراً يصير الفقيه إلى القياس عند عدم وجود شيء مما سبق.

وأحمد يحتفل كل الاحتفال بأحاديث ثلاثة:

أولها: حديث "إنما الأعمال بالنيات"

وثانيها: "من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد".

وثالثها: "الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يرى الناس أمن الحلال هى أم من الحرام؟ فمن تركها استبراء لدينه فقد سلم، ومن واقعها يوشك أن يقع في الحرام، كما أن من يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه فإن لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه".

ومسند أحمد يحتوى على ثلاثين ألف حديث، قال: إنه وضعه ليكون إماماً للناس.

وأصحاب أحمد هم زعماء ما يسمى في القوانين الوضعية بمبدأ "سلطان الإرادة" أو حرية التعاقد أو حرية التصرف.

وفي ذلك يقول ابن تيمية "الأصل عنده أن لا محرم إلا ما دل على تحريمه أو تحريم المقصود به أو لا فائدة فيه "بنص أو قياس على نص" (أي: بالاجتهاد) وأصول أحمد المنصوص عليها أكثرها تجرى على هذا القول.

ومالك قريب منه. لكن أحمد أكثر تصحيحاً للشروط.. وكان قد بلغه في العقود والشروط من الآثار ما لم يجد عند غيره من الأئمة..".

ومن ذلك تنعقد التصرفات القانونية بالعرف ما دام لا يخالف قاعدة إسلامية، ويجيز أحمد البيع أو الثمن الذى تدل الدلائل عليه لفظا أو غير لفظ، ويبيح للمرأة أن تشترط شروطها عند الزواج مثل الرجل ومراعاة شروطها أولى، إذ هى لا تملك حق الطلاق.

ويجوز كل ما لا يتنافى مع المقصود من العقود، وكل ما أفصحت حاجات الناس عنه من تعامل مجهول، وابن تيمية وابن القيم، نهى عندهما إلا عن بيع فيه غرر، ويرى ابن تيمية أن (تحريم ما تدعو إليه الحاجة أشد ضرراً من كونه غرراً).

ويقول: (كل ما احتاج إليه الناس في معايشهم ولم يكن سببه معصية أو ترك واجب أو فعل محرم لم يحرم عليهم؛ لأنهم في معنى المضطر الذى ليس بباغٍ ولا عاد).

والمذهب أوثق المذاهب في ربط الهيكل الخارجى للعقد بشرعية الباعث الداخلى عند العاقدين، أي: بالحلال والحرام، فبالحلال وحده تصح النية.

ومن قصد بفعله الشر كان آثما ولو لم يقع الشر.

سئل محدث مكة سفيان بن عيينة عن الهم: أيؤخذ به صاحبه؟ فأجاب: نعم إذا كان عزماً، ألم تسمع إلى قوله – تعالى –: ﴿..وهموا بما لم ينالوا..﴾[198] إلى قوله ﴿..فإن يتوبوا يك خيراً لهم..﴾[199] فجعل عليهم التوبة؟.

وأحمد يقول: (الهم همان: هم خطرات، وهم إصرار) ومفهوم ذلك أن هم الخواطر ليس فيه إصرار وعزم جازم.

---

(198) سورة التوبة من الآية ٧٤

(199) سورة التوبة من الآية ٧٤

وإذا قامت الدلائل عند إنشاء العقد على نيـة معيبـة اعتُبرت سـببا لفسـاد العقد وبطلانه، مثل زواج المحلل، والبيع الـذى يخفـى ربـا، وهديـة المقترض قبل الأداء ممن لم تَجر له عادة به، والهدية إلى القاضى ممـن لـم تجـر العـادة بهديته له قبل ولايته للقضاء.

المبحث السادس:

شركات ذكرها الفقهاء

الشركة وجه من وجه التعاون بين النـاس، ولا تختلف الأحكام بين معاملات الناس وبين معاملات التجار، وإنما تختلفِ الطريقة في بيوع التجـار دون اختلاف قواعد الفقه. والعرف محكم بين التجار ما دام متفقا مع الشـرع. ومن اختلاف الطريقة كان للشركات أوضاع خاصة، وفيمـا يلـى بيـان ببعض أنواع الشركات:

شركة الإباحة: وهى حالة اشتراك الناس جميعا فيما أباحه الله لهم، وفي الحديث الشريف: "الناس شركاء في ثلاثة: المـاء، والكـلأ، والنـار". والانتفـاع بالمباح شرطه عدم الإضرار بالغير.

شركة الملك: وهى أن يتملك أكثر من شخص عيناً أو دينـاً بطريـق من طرق التملك المشروعة كالميراث والعمل المشترك.

شركة العقد: وهى التى تنشأ بعقد بين اثنين أو أكثر، وهى أنواع حسـبما يرد بالعقد شركة أموال، وشركة أعمال، وشركة وجوه: عناناً أو مفاوضة.

وفي شركة العنان: يكون لكل شريك عنان التصرف في مال الشركة بين شركائه، ولا يجبر الشريك على إدخال جميع نقده في رأس المال، بل يجوز أن يعقد الشركة على مقدار معين، ويوزع الربح بقدر ما قدم الشريك من مال، وكل من الشركاء (أمين) على ما تحت يده من مال التجارة، أى: لا ضمان عليه إذا هلك المال بلا تقصير منه أو تعمد.

شركة المفاوضة: هى الشركة التى يفوض كل شريك فيها شركاءه تفويضاً تاماً في أمور الشركة، ويكون أساسها المساواة بينهم، وفيها وجه كفالة، ولا تقتصر على الوكالة.

ومن أنواع شركة العقد: شركة بالمال، وشركة بالأعمال، وشركة وجوه، وشركة مضاربة.

شركة المضاربة: (كما يسميها العراقيون) هى (شركة القراض) كما يسميها أهل الحجاز وهى شركة في الربح بين صاحب مال ومن يضارب فيه، على أن يكون الربح بينهم بنسبة يحددونها.

ويعتبر المضارب وكيلا عن رب المال في إنماء ماله، وهو "أمين" لا يضمن هلاكه إلا بتعدٍ أو تقصير.

ولا يجوز اشتراط عدم تحمل صاحب المال خسارة المال، وإلا فسد العقد، ولا ضمان على المضارب، فهو أمين، والخسارة كلها على صاحب المال، والشركة نوع من التعاون على البر والتقوى.

شركة الأعمال: وقد تسمى شركة الأبدان، أو شركة الصنائع

يقسم الربح بحسب الاتفاق، وتصح الشركة ولو اختلف أصحابها في الحرفة فالشركة في المجهود، والربح أساسه المهارة أو الإنتاج، ولا يشترط التساوى في العمل.

شركة الوجوه: هى شركة بغير مال ولا صناع، يشترى الشريك بالأجل ويبيع نقدا، والربح والخسارة يقسم بين الشركاء بحسب ما يشتريه كل منهم ويبيعه، إلا أن يشترطوا غير ذلك، فيوزع كما اشترطوا.

ومن الممكن استحداث عقود لشركات أخرى قدر ما تحتاجه التجارة، ولا ريب أن إعطاء الشركة شخصية معنوية ميسور، ولا يضيق به التراث الإسلامي، حيث للوقف شخصية معنوية، وكانت للأزهر شخصية معنوية.

وقد بينا في الباب الأول أن التعاون أصل اجتماعى واقتصادى في الإسلام.

ومن النظم التجارية ما نقلته أوربة، ومن ذلك:

١- نقل الفقه العالمى شركة المضاربة بين صاحب المال والمضارب أو المقارض الذى يسافر للتجارة في العالم، وكان المضارب - عادة - قبطان السفينة يتجر بالمال في الثغور، ثم تقسم الأرباح فيما بين الشركاء على أن يكون الهلاك على رب المال.

٢- السفتجة (الكمبيالة) تعرفها كتب الفقه الإسلامي، وعنها نقلت دول أوربة، قيل إن أصلها فارسى (سفتة) بمعنى الشيء المحكم، فهى ورقة تنفذ علاقة نشأت بين أشخاص مقيمين في مواضع مختلفة، وقد عرفها الفقهاء (ببيع ما خلق للثمنية كالذهب والفضة إذا بيع أحدهما بالآخر أو بجنسه، أو كما قال السرخسى: (مبادلة الأثمان بعضها ببعض، أي بيع النقود بثمن، والثمن ما يثبت دينا في الذمة وهو ما يصحبه حرف الباء).

٣- والمرابحة Report والمواضعة Deport مضاريتان: بالصعود في الأولى والهبوط في الآخرة.

٤- نظام الإفلاس: والتفليس - هو رفع يد المفلس عن أمواله - مأخوذ من الفقه الإسلامي كذلك، أَحكَمَتْ أصولَه مدونةُ مالك، والأم للشافعى، وجرى عليها الفقه بتفصيل دقيق يتجارى معه الفقه القديم والحديث في أوروبة.

٥- يقول الإمام الشافعى من نيف وأحد عشر قرناً: ينبغي للحاكم "القاضى" إذا أمر بالبيع على المفلس أن يجعل أمينا عاما يبيع عليه، وأحب إلى فيمن ولى هذا الأمر أن يرزق من بيت المال" أي: أن يكون مستقلاً يرجع أمره إلى الحكومة - وقوانين إنجلترا وسويسرا تعتبر مأمور التفليسة موظفاً عمومياً.

٦- يقول -ﷺ- "أيما رجل مات أو أفلس فوجد بعض غرمائه ماله بعينه فهو أسوة الغرماء"، وبهذا عمل محمد بن سيرين من التابعين في المدينة، وأفتى إبراهيم النخعى - شيخ مدرسة الكوفة - وهو حكم نقله قانون التجارة المصرى عن القانون الفرنسى الموضوع سنة ١٨٠٤م وكذلك قوانين النقل البحرى.

٧- ونقل القانون المصرى عن الفرنسى أحكام تسوية الخسائر البحرية - وهى منقولة في أوربة عن الفقه الإسلامي - فلقد كان الفقه الإسلامي في عهد الأئمة الأربعة الفقهاء - وما زال - أوسع آفاقا، وأكثر إنسانية.

٨- يقول الإمام مالك في القرن الثانى للهجرة (الثامن للميلاد): إذا طرح بعض الحمل للهول شارك أهل المطرح من لم يطرح لهم شيء من متاعهم، والعدل عدم اختصاص أحدهم بالمطروح، إذ ليس أحدهم بأولى من الآخر، وهو سبب سلامة جميعهم.

وإن لم يكن في السفينة غير الآدميين لم يجز رمى واحد منهم لطلب نجاة الباقين وإن كان ذمياً.

٩- ونظام الإثبات آية على شمول الشريعة، فهى لا تحظر الإثبات بغير ما ورد في النصوص، بل إن كل ما يدل على الحقيقة تثبت الحقوق به وحده أو منضما إلى غيره من البينة، وإذا لم توجد بينه عادلة بحثنا عن "الحقيقة" بأى طريق لإحقاق الحقوق. وإليك أمثالاً:

١- من ذلك وجدنا دفتر السمسار والبياع والصراف حجة على كل منهم في عصور لم تكن الكتابة فيها تغنى عن الشهادة أو القرينة القاطعة الملزمة.

٢- ورأينا رسول الله - ﷺ - يفرق بين زوجين بشهادة أمة سوداء أرضعتهما.

٣- ورأينا معاوية وهو خليفة يقضى بشهادة أم المؤمنين أم سلمة في قضية ملكية.

الباب الثالث
في التجارة
وحرية السوق وسعر السوق

" هذا سوقكم فلا ينْتقص ولا يفرض عليه خراج "

حديث شريف

" لا تسعروا فإن الله هو المسعر القابض الباسط
وإني لأرجو أن ألقى الله وليس لأحد منكم عندى
مظلمة "

حديث شريف

" احتكار الطعام في الحرم إلحاد "

حديث شريف

الفرع الأول

المبحث الأول:

في أسواق العرب

١) أخلاق من مصر القديمة:

السوق في المعجم لابن فارس: هى موضع التبايع. وعند الحافظ ابن حجر: اسم لكل مكان يقع فيه التبايع بين من يتعاطى البيع والشراء.

والتعريف الأول يطلق السوق على كل مكان تقع فيه البياعات. والثانى قد يخص المكان الذى يألف الناس التبايع فيه، وفيه معنى الاعتياد، يصح أن يكون دكاناً، أو مكاناً ألف الناس أن يلتمسوا حاجاتهم فيه، أو يعرضوا سلعهم لمن يشتريها. وهناك العلانية والتراحم والنزاهة التى لا تعرف المحاباة، وبهذا يمكن اعتبار الدكاكين التى تعرض السلع المختلفة أو السلعة الواحدة سوقاً، أو سوقاً متخصصة، وإن كانت متفرقة، ومن أسعارها يتحدد سعر السوق في البلدة أو في المدينة أو في الإقليم، وربما في العالم إذا جمعته المواصلات التى نشهد جمعها للعالم اليوم في لحظات جعلته قرية واحدة.

والكتب السماوية تعلمنا الكثير من أحوال شبه الجزيرة العربية وصلات عرب آسيا بشمال أفريقية في مصر والقوافل السيارة بينها وبين الجزيرة العربية، كما تقص النصوص التى تحملها آثار مصر ما كان لها من تجارة في الداخل والخارج، وكانت سفائنها تقطع آلاف الأميال في البحر الأحمر – مارة باليمن – لتربط بين بلاد الشمال والجنوب في أفريقية حيث الأخشاب مطلوبة للتشييد، كما تنقل من الجبال الخضراء في الشمال بسورية ولبنان عن طريق البحر الأبيض؛ لتبنى وتعمر الصروح الشامخة الشاهقة التى يعبد الله

فيها، والتى يتقاطر إليها الآن بنو العصر ليروا ما شادتة الطلائع الأولى لمدنية الإنسان تتعالى نحو السماء، وتدل على أن المصرى يقف بين يدى الله في الآخرة مدافعا عن نفسه بأنه كان يتقى الله في عباده.

ومن هذه الفلسفة يقول كاهن عين شمس قبل ميلاد المسيح بخمسمائة عام في التجارة أقوالاً تترد نظائرها الآن؛ لتعلن أن التجارة ميدان فسيح لخدمة الأمة: (إذا وجد ألف خادم في دار تاجر فهو واحد منهم) وهذا التعميم يتسع ليكون ألف خادم كسيدهم، ويومئ إلى تكريم التجارة لما فيها من معانى الخدمة العامة للأمة ومحاسن الأخلاق، وهى كلمة تحملها قرون خمسة وعشرون إلى بنى العصر، وهى بعدُ - رسالة من مصر القديمة في موضوع هذا الكتاب.

ويتابع الكاهن (عنخ شاشنقى) عظاتة، فنقرأ له نصاً صريحاً في موضوع الباب الحالى فيقول من نيف وأربعة آلاف عام وبصيغة المستدرك: (إنما ينفع التعليم بعد تربية الخلق) وهو يذكر الناس بحضارة عاشت قبله أيضاً آلاف أعوام. وطالما أورد القرآن الكريم آيات للاعتبار بما جرى في مصر.

وتتتابع نصوص الكاهن الفرعونى بدروس من الحضارة تنهى عن الالتواء بمثل القمح الذى يبدئ فيه الخلق ويعيدون ليتذاكروه جياعا أو طاعمين، فيقول: (إذا كنت تاجراً في القش فلا تلتو وتقدم دقيقا) وهذا نص في الاستقامة وحسن القصد وتمام الوفاء يقربه إلى الذهن قرب القش من قمحه أو دقيقه.

وظاهر أن هذا الكاهن المصرى الناصع العبارة، والدقيق الإشارة: عريق في نعمة الله عليه وعلى بلاده، وحسبه من المعرفة أنه نُتج في عين شمس وفيها أقدم مصادر المعرفة في الدنيا (جامعة عين شمس).

وفي سنة ١٩٩٣ الميلادية أفرج المتحف البريطانى عن بردية "أمينوبى" الحكيم المصرى لابنه. وقد عاشا قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام، وكان ابنه مساحاً يقيس الأرض في خدمة الدولة، وهى تؤكد ما ذكره بعضٌ من قبل عن تشابه نصوص في كتاب الأمثال، وفي سفر أيوب، وسفر شاعول وأرميا في التوراة وعبارات الملك أخناتون المنقوشة على جدران المعابد المصرية القديمة أو تعاليم بتاح حوتب المنقوشة في عهد بناة الأهرام من نحو خمسة آلاف عام في أقدم قطع التوراة.

يقول أمينوبى لابنه مقولات تتعلق بوظيفته، وبالملكية وحدود الممتلكات، وكلها من أقدم أبواب الاقتصاد، أو المالية العامة أو علم الإدارة أو الفقه أو القضاء. يقول: (لاتزحزحن الحد الذى يفصل بين الحقول، ولا تكن جشعا من أجل ذراع من الأرض، ولا تتعدين على حدود أرملة، وأرقب من يفعل ذلك: أرضه تخرب، وأملاكه تُؤخذ، ومتاعه يُعطى لغيره).

ويقول: (لاتطأن حرث الغير، وخير لك أن تبقى بعيدا عنه) و(تَسَلمْ خبزك من جدنك الخاص بك).

و(إن المكيال الذى يعطيه الله لك خير لك من خسمة آلاف مكيال تكسبها بالبغى)... و(الفقر مع القناعة والرضا من الله خير من الثروة المغصوبة).

و(أرغفة لديك مع قلب فرِح خير من الثروة مع التعاسة).

و(الغنى مع الضمير الشاعر بالذنب لاقيمة له. وما فائدة الملابس الجميلة أمام الله يلبسها غاصب؟) و(لاتنقص مع عدو أنصبة أو مقادير مكاييل القمح، ولا ترغبن في أموال الخزينة، فقوة الجرن أكبر) و(لاتجبرن رجلاً على الذهاب إلى المحكمة).

ويقول: العدالة هبة الله العظيمة لمن يشاء هبته، وهى تنجى من ظفر

بها من ضربات السماء).

و(لا تجر وراء الثروة، ولا تجهد نفسك في السعى إلى مزيد عن حاجتك).

(إذا جاءك مال عن طريق السرقة فإن له أجنحة يطير بها في الليلة ذاتها، واعبد الله واطلب إليه العافية).

(الرجل الحازم كالشجرة الباسقة في الحديقة، ظلها وارف، وثمرها دائم).

٢) أسواق العرب في الجاهلية:

مدت جزيرة العرب على أيدى قريش أسبابها إلى الحبشة عن طريق اليمن، وإلى الروم عن طريق عرب الشام، وإلى فارس عن طريق العراق وقبائله العربية، وإلى مصر بالقبائل المنتشرة في الصعيد الأعلى وفي شرق الدلتا. وكان للرومان علاقات بالأحباش. فهاتان دولتان مسيحيتان - كما تجاوز نفوذ الحبشة اليمن في جزيرة العرب إلى مواقع في الطريق إلى العراق، وهى مؤدية إلى الرياض شمالى شرق شبه الجزيرة العربية بين قبائل تموج بها الصحراء في حلها وترحالها، وكانت القبائل تتوادع أو تتصارع من جراء المرعى أو المعاش، أو حراسة القوافل.

كانت بالشرق سوق "البحرين" لتجارة اللؤلؤ، تذهب إلى فارس أو إلى الروم، أو إلى الحبشة، كما تجتازها قوافل مكة وما حولها، وفي حواشى الطرق أسواق عمان، وأسواق دبى، وفي تهامة بالحجاز سوق جياشة، وسوق ثقيف بالطائف على مبعدة نحو خمسين ميلا من مكة.

أما سوق "عكاظ" فعلى ثلاث مراحل من مكة، ولهذا كانت سوقاً أسبوعية يوم الأحد. وفي شهر ذى القعدة يبقى الناس حولها إلى اليوم

العشرين منه، ثم ينتقلون إلى سوق "مجَنة" ليكونوا أدنى من مكة ويبقوا إلى آخر الشهر، ثم يفصلوا إلى "ذى المجاز" ليبقوا أياما من ذى الحجة، ثم يذهبوا إلى عرفة، فالسوقان الأخيرتان كانتا خلف جبل عرفات وعلى مشارف مكة.

وسجلت "سورة قريش" رحلتى الشتاء والصيف إلى أسواق الشام ومنها، لأهل مكة، بتجارات الجنوب والشمال والشرق والغرب.

وفي السورة تتويج لعمل هاشم بن عبد مناف وقومه من أكثر من قرن مضى قبل التاريخ الهجرى حين ظفر لقريش بأمان من قيصر الروم، وآخر من النجاشى في الحبشة.

ففي القرن السادس أو الخامس للميلاد أجاعت السماء إلى حجابة الكعبة وسقايتها وإكرام الحجيج إليها من أقطار جزيرة العرب هاشم بن عبد مناف (أبا عبد المطلب جد النبى عليه الصلاة والسلام) وفيه قول ابن سعد في الطبقات (وربما بلغ أنقرة "في الأناضول" فيدخل على قيصر الروم ويحبوه) وقول أبى على القالى في النوادر: (إن قيصر كتب له أمانا لمن يقدم عليه من تجار العرب) وأرسل قيصر إلى النجاشى في الحبشة – وكان قد اعتنق المسيحية – فأعطى أمانا آخر لتجارة العرب. ووجه هاشم ابنه عبد شمس إلى الحبشة، وابنه نوفل إلى فارس، وابنه المطلب إلى اليمن، فأصبحوا رؤساء القوافل التى تسير إلى هذه البلاد أو تقدم منها. ويقول أبو على القالى في (النوادر): فهؤلاء سادة قريش وناعشوهم[٢٠٠].

ويقول الواقدى – ويؤيده المستشرق "لامنس": وكان للدول المجاورة ببيزنطة (الروم) وفارس ممثلون في قلب مكة ذاتها.

وفي كتاب تاريخ العرب (عصر ما قبل الإسلام[٢٠١]): (ولكثرة ما كانت

---

(٢٠٠) الطبقات لابن سعد، والنوادر لأبى على القالى

(٢٠١) الأستاذ محمد مبروك نافع

تعج به مكة من الأمم المختلفة اصطبغت بصبغة دولية. وصبغتها هذه تفسر لنا إلى حد كبير ما دخل لغة قريش من ألفاظ رومية وفارسية وحبشية وغيرها[٢٠٢].

وفي كتاب المستشرق أوليرى (بلاد العرب قبل الإسلام) أن مكة أصبحت مركزا للصيرفة يمكن أن يدفع التجار فيه أثمان السلع التى ترسل إلى بلاد بعيدة.

وكان لمملكة سبأ في اليمن طريقان إلى البحر الأبيض، الأول برى يبدأ من حضرموت إلى مأرب عاصمتها، ومنها إلى مكة ثم إلى غزة، والثانى بحرى عن طريق عمان فالبحر العربي فالبحر الأحمر ثم تستعمل الجمال حتى البحر الأبيض.

وفي اثنتين من رحلات الجنوب إلى الشمال ذهابا وجيئة سار رسول الله مع عمه مرة بتجارة لعمه، وسار أخرى لأم المؤمنين خديجة بورك فيها من كل وجه، وأسفرت عن زواجه منها وأدائها العظيم للإسلام، ولرسوله ﷺ.

وبعد عام الحزن الذى ماتت فيه أم المؤمنين خديجة وعمه أبو طالب قصد إلى "الأسواق" بالدعوة للدين بين القبائل.

وكان لبنى شيبان عند العقبة في موسم الحج مكانة معروفة لانتصارهم على كسرى في وقعة "ذى قار" سنة ٦١١ للميلاد، وتصالحوا معه، ولما دعاهم رسول الله للإسلام قالوا وفيهم المثنى بن حارثة الشيبانى: (إنا نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى: ألا نحدث حدثا أو نؤوى محدثا. ولعل هذا الأمر الذى تدعونا إليه مما تكرهه الملوك. فأما ما كان مما يلى العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلى العرب

(٢٠٢) بحث الدكتور على الخطيب بمجلة الأزهر المحرم ١٤١٥هـ

فعلنا).

قال ﷺ: "ما أسأتم الرد إذ أوضحتم الصدق، فإنه لايقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم؟!" قالوا: (اللهم فذاك). ولقد كان ذاك.

فبعد بضعة عشر عاما رأينا المثنى بن حارثه الشيبانى ذاته يخترق قلب فارس بجيوش المسلمين المظفرة ويدخل الفرس في الإسلام وافرين.

وفي الأسواق حدثت ضباغة العامرية: (أتانا رسول الله ونحن بسوق عكاظ فدعانا إلى نصرته فأجبناه).

وحدث ربيعة بن عباد: رأيت رسول الله ﷺ بصرَ عينى بسوق ذى المجاز يقول: "أيها الناس: قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا" ويدخل في فجاجها والناس يتقصفون عليه.

وروى خالد العدوانى أنه سمع رسول الله يقرأ في سوق "ثقيف" ﴿والسماء والطارق﴾ حتى ختمها.

المبحث الثانى:

في سوق المدينة

نحن الآن في سوق المدينة نريح رائحة الجنة، إذ نتذاكر ميلاد "دولة الإسلام" والسوق مذكرة بخروج رسول الله ﷺ إليها من المسجد، يهدى أهلها بتعاليمه، كما تذكرنا بعبد الرحمن بن عوف حين ذهب إلى "السوق" مفضلاً الرزق من التجارة ليمهر زوجته من كسب يده، وذهب إلى رسول الله ينبئه أنه تزوج ومهر زوجته نواة من الذهب من تجارة حلال، وهو الذى أشار على رسول الله أن ينشئ للمسلمين سوقاً بعد أن بلى كيد اليهود.

وكانت سوق المدينة في يهود بني قينقاع[٢٠٣] يستغلون المسلمين، ويفرضون عليهم الأسعار والرسوم، فمضى ﷺ إلى مكان فسيح صالح لاقامة السوق فأقامه، وضرب فيه برجله، وقال لحاضريه "هذا سوقكم فلا ينتقص ولا يفرض عليه خراج".

وبهذا ضمن للسوق البقاء والاتساع، وصيرها مرفقا للأمة.

كانوا يخصصون أماكن لأصحاب السلع، فللخيل منطقة، وللإبل منطقة، وللغنم منطقة. وهكذا توزعت السوق السلع حسب أنواعها – لاحسب أصحابها– ليقصد الناس إليها في مقارها، وحتى لايكون أصحاب السلع أصحاب المقار، وقد دأب ﷺ على زيارة السوق. يدخلها فيدعو الله ليكلأ القوم برعايته، فيقول: "باسم الله، أسألك من خير هذه السوق وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، اللهم إنى أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة، أو صفقة خاسرة".

ويدعو الله أن يبارك في أجهزة السوق ذاتها، فيقول "اللهم بارك لنا في مدنا وصاعنا، واجعل لنا مع البركة بركتين".

مر عليه الصلاة والسلام يوما فرأى سبرة طعام، فوضع فيها يده، فنالت بللا. قال: "ما هذا يا صاحب الطعام؟!" قال الرجل: أصابته السماء يارسول الله. قال ﷺ: أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟!" وأضاف:

(٢٠٣) كانوا يهودا يعيشون داخل حصونهم بالمدينة، وكانوا تجارا وصاغة، جاهروا بنقض المعاهدة التى وقعوها مع سائر أهل المدينة، فلما راجعهم الرسول قالوا له: (لايغرنك أنك نلت من قومك (قريش) في يوم بدر، فإنه لاعلم لهم بالحرب، ولو حاربتنا لعلمت أن حربنا ليست كحربهم، وإنا لنحن الناس) فخرج إليهم في حصونهم في النصف من شوال، وحاصرهم خمس عشرة ليلة، حتى نزلوا على حكمه، بإجلائهم إلى أذرعات بالشام

"من غشنا فليس منا".

وكان دعويا على المرور بالسوق حتى تندر بزياراته المشركون.

والأحاديث في نهى التجار عن الحلف كثيرة. وكان عليماً بوسائل التبايع قبل الإسلام، ويحذر من عيوبها في طوافه بالسوق، ويهذب أنفس المتبايعين ليشوبوا أقوالهم وأقسامهم بالصدقات لعل فيها ما يصرفهم عن الحلف، ولعل الله يغفر لهم تجاوزاتهم.

يقول لهم: "إن هذا البيع يحضره الكذب واليمين، فشوبوه بالصدقة".

ويقول لابن مسعود "يا ابن مسعود: إن من أعلام الساعة أن يسود كل سوق فجارها".

ويقول لهم: "يا معشر التجار اياكم والكذب".

ويقول: "إن الشيطان والإثم يحضران البيع، فشوبوا بيعكم بالصدقة" ويسلك الكاذبين بين ستة يعذبهم الله بذنوبهم "الأمراء بالجور.. والتجار بالكذب" ليعلموا أن مكان الكاذبين منهم مع الأمراء الجائرين في جهنم.

والقناعة خير وأبقى، يقول ﷺ: "من حلب شاته، ورقع قميصه وواكل خادمه، وحمل من سوقه، فقد برئ من الكبر".

والحمل من السوق كالسقيا مع الناس من ينبوع طاهر.

والله يبارك الأسواق في كتابه العزيز، ويجعلها مألفا للرسل لتكون مألفا لأقوامهم، ويحج المشركين بقوله في كتابه العزيز: ﴿وقالوا مَالِ هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا﴾(٢٠٤) وأدحض لددهم فقال: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا

(٢٠٤) سورة الفرقان الآية ٧

بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾[٢٠٥].

وحض القرآن على تمام الرضا في كل تصرف، ولهذا أنشأ الفقه الإسلامي ما لا نظير له في أى فقه آخر (نظام مجلس العقد) ليكفل حرية التراضى وصحته، وصدق المتعاملين ومياسرتهم في العرض والطلب بالإيجاب والقبول.

ومن السوم النزاهة والصراحة وسلامة "العرض والطلب" وكمال "التراضى".

قالت قيلة الأنمارية: يا رسول الله إنى أشترى وأبيع، إذا بعت أستام السلعة أكثر ثم أبيعها لمن أريد، وإذا اشتريت أعطيت السلعة أقل حتى آخذها بما أريد.

قال: "لاتفعلى قَيْلَة، إذا أردت أن تشترى سلعة فاستامى بها الذى تريدين أن تأخذى به أعطيتِ أو منعتِ" فهو يستبعد درجتين للمِحال والجِدال في العرض والطلب بين المسلمين.

وروى أبو هريرة دخلت السوق مع رسول الله ﷺ فاشترى سراويل، وقال للوازن: "زن وأرجح" ووثب البائع على يد رسول الله يقبلها. قال ﷺ: "هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها، ولست كذلك، إنما أنا رجل منكم".

ولقد طالما اشترى رسول الله وباع، ورهن وارتهن، ووهب واتهب.. وقد نزل عليه الوحى وقريش تخصه بوصف "الأمين" من قبل أن يرفع الحجر الأسود بالكعبة ومن قبل نزول الرسالة.

وما ألزم السلام للسوق، ليبعد الناس من الفتنة، والتجار أحوج الخلق إلى توفيق السماء.

---

(٢٠٥) سورة الفرقان الآية ٢٠

وفي "قواميس اللغة" حديثه – عليه الصلاة والسلام – عن ابن مسعود "إياكم وهوشات الليل، وهوشات الأسواق" والهوشة: الفتنة والهيج والاضطراب.. وحديثة "من أصاب مالا من مهاوش أذهبه الله في نهابر" والنهبرة: الهلكة.

يقول لصاحبه: "ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في يد الناس يحبك الناس" ويقول: "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله استخلفكم فيها، فناظر ما تعملون" يحذرهم من عبادة المال بقوله: "تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم" ويأمر التجار بالصدق والوفاء بقوله: "لا تحلفوا إلا صادقين".

والحلف دون قصد اليمين لغو، وهو مع ذلك يجرى على الألسن، ومن رحمة الله وعطفه قوله سبحانه: ﴿لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان﴾(٢٠٦).

والحلف بالله على أمر مضى يعلم الحالف أنه غير الحق هو مثل الخيانة والفسق تجب التوبة منه ورد الحقوق إلى أهلها، وتسمى اليمين عندئذ يميناً غموساً، لأنها تغمس صاحبها في النار، وهى من الكبائر، قال ﷺ: "الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس".

وهو القائل: "الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة".

* * * * * *

والسوق تذكرنا بخروج خليفة رسول الله أبى بكر الصديق، إذ بايع له المسلمون بخلافة رسول الله وعلى يده ثوب يبيعه في السوق، ملتمسا ما يعيش به وأهله معه، فمنعه المسلمون وفرضوا له درهمين في اليوم حتى

(٢٠٦) سورة المائدة، الآية ٨٩

لايضيع على المسلمين ساعة من نهار في زمن يحتاج فيه الدين والدنيا إلى كل دقيقة من حياتة.

وفي خروج أبى بكر إلى السوق ومنعه منه دروس: فالمفضول في الأمرين عظيم، هو اعتزامه العمل لكسب قوته، والأعظم منه قبوله الرزق الضيق وانصرافه في (كل الوقت) لجلائل الأعمال التى كانت المبادرة فيها له، وما بالك بعملين أصغرهما حروب الردة عن الإسلام، وأكبرهما جمع القرآن، وهما عملان قيضت لهما السماء خليفة رسول الله، وكانت بهما نقلة الدنيا من عالم الرسالة إلى دنيا الناس، لا يسامى فيهما أبا بكر واحد من البشر.

تولى رد المرتدين بنفسه عن المدينة، ثم بعث جيوشاً إحدى عشرة إلى الأنحاء لتعيد فيها المرتدين إلى الجادة، وليتكون منها ومن التائبين العائدين إلى الإسلام الجيش الذى سيفتح العالم في بضع سنين.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعتبر السوق مؤسسة عامة، لا يلى مكانا فيها إلا من كانت له مؤهلاتها وهى قناة تسيل بين ضفافها الأموال في طريق صحيح، أو تتسرب على غير جدوى، فجعل الدين والعلم من المؤهلات، قال: (لا يبيع في سوقنا إلا من تفقه).

والفقه أو الفهم أعظم أبواب العلوم. وفي رواية أخرى أضيف: (وإلا أكل الربا شاء أو أبى) وهى زيادة تبين شرطا آخر هو المزيد من العلم بأكبر مصادر الفساد في المعاملات.

والسوق تذكرنا كذلك بأمير المؤمنين عثمان وهو صنو لعبد الرحمن بن عوف في تخصيص قوافله وأمواله لميرة المدينة. اشترى لها بئر رومة من اليهود، على مرحلتين لتستقل ببئر لها، فلا يظلمها اليهود، وحمل الأعباء المالية في مناسبات الحروب.

كانت خصائص المجتمع الإسلامي تسبق المسلمين إلى السوق "بالمدينة" وهى واحة في صحراء، جعلها الله أولى عواصم الإسلام، ودعا لها الرسول فرفع الله عنها الوباء، وجعلها مَصَحا حتى يرث الله الأرض وما عليها، وجعل الأخلاق فيها كافية لتكون أتقى وأنقى الأسواق للآن، وفي الأسواق شهوات وثروات، وللمال شهوة وشراهة تغتلبان الغرائز ولا يقهرهما، إلا أخلاق تقهر الجشع، وهماهم العيش، وقلة إحساس الأغنياء بآلام الفقراء.

والسوق تعمل بحرية تحكمها إرادة علوية تصدر عن نصوص الشارع سبحانه وعن سنة شارحة وموضحة حسن الأداء وتمام الوفاء يمثلها قول رسول الله عن الوعد: "عَدِةُ المؤمن دين" أى: عقد. وقوله "آيات المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان".

من أجل ذلك وجب على البائع البيان لما في المبيع من عيب، ومن أوضح الأمثال لعدم تبيين العيوب مثل من فقه الإمام أحمد: أن رفاء الملابس ملزم إذا رفا لرجل سيبيع الثوب بأن يجعل الرفو غير خفى، حتى لا ينخدع المشترى الجديد لو لم يبينه البائع. ولقد سلف علينا مثل أخت بشر الحافى الزاهد العالم إذ راحت إلى أحمد تسأله عن الغزل الذى يغزل في ضوء القمر لا في ضوء مصباح فهل عليها أن تبين ذلك إذ تبيعه؟ وكان جوابه واضحا: (إن كان بينهما فرق فبينى) وسألت مرة أخرى: هل في أنين المريض شكوى؟ وأجاب: أرجو ألا يكون، وإنما هذا اشتكاء إلى الله.

والاقتصاديون الغربيون وتابعوهم ينادون الآن بالإفصاح "الكامل" بحالة السلعة ولا نحسبهم يستجاب لهم من أصحاب الصناعة أو وسائل الائتمان بالبيان الكامل Full Referance ويتنادون طالبين مزيدا من الأخلاق في الأسواق.

والله تعالى يقول: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[٢٠٧] ويقول رسوله "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس" ويقول: "الحلال بين، والحرام بين" ويقول: "دع ما يريبك إلى ما لايريبك" ويقول: "من رضى رضى الله عنه، ومن شق شاق الله عليه".

ومن التقوى ترك محمد بن سيرين – وهو تابعى – أربعين ألف درهم من شيء حاك في صدره، لم يختلف العلماء في أنه لا بأس به، ويقال: إنه سبب الديْنِ الذى حبس من أجله.

وهو السلف الصالح لمن قال: إنى لأجعل بينى وبين الحرام سترة، ولا أحرمها.

أما الحرام الظاهر فكل إنسان ينكره، وإن قدر على تغييره دون أذى غيره بالفعل أو القول مستصحباً قوله – عليه الصلاة والسلام –: "إنكم اليوم على بينة من أمركم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، ما لم يظهر فيكم السكْرَانِ: سكر الجهل، وسكر حب العيش، وستحولون من ذلك، فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين".

وللأمر والنهى شروط أفاض فيها الفقهاء.

ومن النصح علم وتربية واجبة للمسلم على أخيه المسلم. كان أبو الدرداء من الصحابة العلماء، رأى قوما يذمون آخر أَلَم بذنب، فسألهم: لو وجدتموه وقع في قليب (بئر) ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: لا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله على ما عافاكم.

قالوا: ألا تبغضه؟ قال: أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخى.

١) تابع الفاروق رسول الله وخليفته كما يتبع الفصيل (ولد الناقة) أمه،

---

(٢٠٧) سورة المائدة الآية ٨

وأمست جيوش المسلمين في الشرق والغرب همه، ومع ذلك ظلت سوق المسلمين مشغلتة يمر بها ما استطاع، ويشير على أصحاب العروض أو يأمر، ويحافظ على "حرية الأسعار" فيحدث من يخرج على سعر السوق، لكنه لا يتدخل في حريته، فيدعوه ليستمر بالسوق، كما فعل مع حاطب بن أبى بلتعة، ويخطب على المنبر ليحدد مقادير المهور - في سوق الزواج - فتهيب به من آخر الصفوف امرأة ليرجع عن رأيه فيرجع.

٢) روى ابن الجوزى في (سيرة عمر) أنه وقف يوماً في المسجد يأمر الناس بأن لايغلوا في المهور، وهدد من زاد عن مهر رسول الله لنسائه بأنه سيلغى الزيادة ويضيفها إلى بيت المال، فقامت من صف النساء امرأة طويلة، في أنفها فطس، وصاحت: ما ذلك لك يابن الخطاب. قال: ولم؟ قالت: لأن الله يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾[٢٠٨] قال - وهو على المنبر -: امرأة أصابت، ورجل أخطأ.

والواقعة تدل على الحرية الكاملة للمجتمع، وعلى أن عمر لم يحاول الاجتهاد مع وجود نص.

٣) وسمع ضجة ذات يوم، فقيل له: عير تحمل مهر طلحة بن عبيد الله لعروسه صغرى بنات أبى بكر، فقال: ردوا العير، فردوها. وقيل لطلحة ليكلم في الأمر عمر، قال طلحة: لا، إن كان لى حق فسيعطينيه. وفي الصباح أمر عمر بالعير أن تسير.

ولم يخطئ عمر في الأولى أو الثانية، فقد رأى في المظاهرة بالمال الكثير الذى تسير به العير أمرا لاسواغ له والمسلمون يستشهدون في الحروب مع الفرس والروم.

---

(٢٠٨) سورة النساء الآية ٢٠

٤) ومن أجل المسلمين أيضا منع مجزرة الزبير بن العوام عن العمل اليومى والمسلمون يجوعون في عام الرمادة.

٥) ومن أجل المسلمين رفض أن تكون له دار في مصر، إذ بعث إليه عمرو بن العاص بعد أن اختط فسطاط مصر يقول له: (إنا خططنا لك "دارا" عند المسجد الجامع "جامع عمرو بمصر" فكتب إليه: (أنى لرجل بالحجاز تكون له دار في مصر؟! اجعلها "سوقاً للمسلمين").

٦) ومن البيوع ما حرمه إذ كتب إليه عمرو: إن المقوقس طلب إليه أن يبيعه سفح جبل المقطم فرد عليه أمير المؤمنين سائلاً: لماذا يشترى جبلا بلا بئر ولا ماء؟ ورد عليه بأن المقوقس يقول: إنهم يجدون وصفها عندهم أنها من غراس الجنة. ورد أمير المؤمنين: (إنا لا نعلم غراس الجنة إلا لمؤمن، فليقترفها مَنْ قِبَلَكَ من المسلمين).

٧) والمحتسبة تحاسب أمير المؤمنين: أقام عمر الشفاء بنت عدى "محتسبة" على أمور السوق وهى من السابقات للإسلام، ومعلمة القراءة والكتابة لأم المؤمنين حفصة، وكان ﷺ يزورها في دارها، وهى أم شرحبيل ابن حسنة، وكان زوجها من جلساء عمر، وكانت تقدر على محاسبة عمر في مجلسه وهو أمير المؤمنين.

أرسل إليها، فذهبت واستأذنت، وجاءت بعدها عاتكة بنت أبى العيص بن أمية واستأذنت فأذن لها، فدخلت ومعه مِرط فأهداه إليها. ثم أذن للشفاء فقالت لعمر إنى جئتُ قبلها، وجئت بدعوة منك، وهى جاءت بعدى، وبغير دعوة، وأذنت لها قبلى!! وأهديت إليها ولم تهد إلى؟! قال بعد أن صمت قليلاً: إننى كنت أعددت المرط لك، فلما اجتمعتما قدمتها عليك لقرابتها من رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ولقد كان من سياسته التفضيل بين الصحابة للأقرب فالأقرب من رسول الله، ولكنه عزم على المساواة بين الجميع في آخر حياتة.

× × × × × ×

وجاء دور على في السوق وفيه قول صاحبه زاذان: (كان يمشى في الأسواق وحده وهو وال يرشد الضال، ويمر بالبياع والبقال ويقرأ: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾[٢٠٩] ويقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة على سائر الناس.

١) وأخرج ابن سعد عن جرموز قال: (رأيت عليا... ومعه دِرة يمشى في الأسواق بها يأمر بتقوى الله وحسن البيع، ويقول أوفوا الكيل والميزان ولا تنفخوا اللحم).

٢) وأخرج البخارى في الأدب عن صالح بياع الأكسية عن جدته قالت: (رأيت عليا اشترى تمرا بدرهم، فجعله في ملحفته، فقلت له – أو قال له رجل–: (أحمل عنك يا أمير المؤمنين) قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

والمعلم الأول ﷺ هو القائل: "صاحب الشيء أحق أن يحمله".

٣) ولما شكا التجار إلى على أن غيرهم يحتل مواقعهم في السوق. قال: (هذا سوق المسلمين كمسجد المسلمين) يقصد ألا يحتفظ لواحد بمكان، والناس في المكان سواء.

فلنسجل لإمام البلاغة قوله: (سوق المسلمين كمسجد المسلمين).

٤) وأخرج الإمامان أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه عن أبى مطر

(٢٠٩) سورة القصص الآية ٨٣

قال: خرجت من المسجد فإذا رجل خلفى ينادى: (ارفع ازارك، فإنه أتقى لربك وأنقى لثوبك، وخذ من رأسك إن كنت مسلماً) فإذا هو على ومعه الدرة، فانتهى إلى سوق الإبل وقال: بيعوا ولا تحلفوا، فإن اليمين تنفق السلعة وتمحق البركة.

٥) ثم أتى صاحب التمر فإذا خادم تبكى. فقال ما شأنِك؟ قالت: باعنى هذا تمرا بدرهم أبَى مولاى أن يقبله. قال خذه وأعطها درهما، فإنها ليس لها أمر. فكأنه أبى. قالت للبائع: ألا تدرى من هذا؟ قال: لا. قالت: أمير المؤمنين على فصب تمره وقال: أحب أن ترضى عنى يا أمير المؤمنين. قال ما أرضانى عنك إذ أوفيتهم.

٦) ثم مر مجتازا بأصحاب التمر فقال: أطعِموا المسكين يَرْبُ كسبكم. ثم مر مجتازا إلى أصحاب السمك فقال: لا يباع في سوقنا طَافٍ (سمك مات فطفا على وجه الماء).

٧) ثم أتى دار بزاز في سوق الكرابيس (الثياب الخام) فقال: يا شيخ أحسن بيعى في قميص بثلاثة دراهم. ولما عرفه الرجل لم يشتر أمير المؤمنين منه شيئا. ثم أتى آخر، فلما عرفه لم يشتر منه شيئا.

٨) ثم أتى غلاما حدثا فاشترى منه قميصا بثلاثة دراهم، فلبسه ما بين الرسغين إلى الكعب. فجاء صاحب الثوب فقيل له: إن ابنك باع أمير المؤمنين ثوبا بثلاثة دراهم قال لابنه: فهلا أخذت منه درهمين؟ فأخذ الدرهم ثم جاء إلى أمير المؤمنين رضى الله عنه قال: أمسك هذا الدرهم.

قال أمير المؤمنين: ما شأنه؟ قال: كان ثمن القميص درهمين، باعكه ابنى بثلاثة.

قال أمير المؤمنين: باعنى رضاى، وأخذت رضاه.

وأمير المؤمنين على هو القائل: (كونوا بقبول العمل أشد اهتماما منكم

بالتقوى وكيف يقل عمل تقبل؟).

ويقول ابن مسعود: (لأن أعلم أن الله يتقبل منى عملا أحب إلـى مـن أن يكون لى ملء الأرض ذهباً).

الفرع الثانى

المبحث الأول:

حرية السوق

السوق ملتقى الإرادات، ومن أجل كفالتها جعل فقهاء المسلمين الإيجاب والقبول شطرين متزاوجيْن، ونظموا تلاقيهما تنظيماً أدق مما نقرؤه في أى شريعة أخرى لحماية التراضى الذى نص عليه القرآن. والتراضى هو صميم التعاقد، وهو تعالى يقول: ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾(٢١٠).

والسوق ملتقى الحاجات من عرض وطلب، ومنهما مقدمات إيجاب وعلامات قبول وليس غريبا أن نجد للدلال (السمسار) مكانا وشأنا في كل ذلك. فالسوق كالجزيرة في البحر، والدلال مرشدها.

ومن مكانة السوق وأرباحها في المجتمع ومكانة أهلها في المعرفة بالناس والأشياء كان الإمام جعفر الصادق يعتبر السوق "عزا" ويقول لشيعته: لا تدعوا السوق فتهونوا.

وكان الصحابة يزورون السوق ليروا الناس ويراهم الناس في السوق تكريماً من الجميع للسوق، وحفاظاً على خصائصها.

وكان الإمام أحمد يأمر أولاده بالاختلاف إلى السوق. وكما ألف محمد ابن الحسن صاحب أبى حنيفة كتاب (الاكتساب) ألف أبو بكر الخلال صاحب الإمام أحمد كتاباً في الحث على الصناعة والتجارة، وهما دعامتان لحركة السوق وكفايتها.

(٢١٠) سورة النساء الآية ٢٩

أما أبو حنيفة فبدأ حياته في السوق، ثم أرشده الإمام الشعبى إلى أن الفقه ميدانه، فجلس إلى العلماء ليكون – فيما بعد – الإمام الأعظم والتاجر الأعلم، وكان تلميذه أبو يوسف صبى قصارٍ، لكن حلقة أبى حنيفة صيرته "قاضى القضاة" في الإسلام، وجرى في آثار هؤلاء كثير من العلماء.

والبدء بالسوق بدء من مدرسة الدنيا، والسوق معلّم فذ من معالمها، ولكل الناس فيها نصيب.

١- حرية الأسعار:

فرضت الشريعة الحرية في السوق بما سن لنا رسول الله، ﷺ حين جاءوه يقولون: يا رسول الله سعر لنا. فنهى عن التسعير جازما، وأعلن "إن الله وحده هو المسعر، القابض الباسط، وإنى لأرجو أن ألقى الله وليس لأحد منكم عندى مظلمة".

ولما فتح الله عليه مكة عين عليها محتسبا قبل أن يبرحها لتأمين الحقوق والواجبات فيها. وهذه الصفات التى أعلنها الرسول لله تعالى حجاز مانع من التدخل من أى مصدر. ورجاء الرسول ألا يكون لأحد مظلمة يشير إلى ما في التدخل من المظالم. وتُرك الأسعار للسوق ينتجها تلاقى الإرادات حسبما يتراضى عليه روادها هو الطريقة المنجحة لإرادات الناس لتبلغ بالسلع والأسعار حقيقتها. وهو القائل "لا يبع حاضر لباد دعوا الناس يرزقهم الله بعضهم من بعض".

وتعددت سنن الرسول في النهى الجازم عن التدخل، ومنها قوله: "من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغليها عليهم كان حقا على الله أن يقيده بِعُظْمٍ من النار". وفي مناسبة أخرى: قال "بل الله يرفع ويخفض".

كما تعددت السنن في الأمر الجازم بالانصياع لنظام السوق وآدابه - وقد سلف علينا بعضها - ومنها قوله عن ذكر الله - والناس في غفلاتهم أو مشاغلهم أو مطامعهم في السوق -: "من ذكر الله في السوق مخلصا عند غفلة الناس وشغلهم بما فيه كتب الله له ألف حسنة، وغفر له يوم القيامة".

وقوله: "إذا رجع أحدكم من سوقه فلينشر المصحف وليقرأ" فهو هنا يأمر بالرجوع إلى كتاب الله بعد الرجوع من السوق، ليتزكى في نفسه، وليشكر الله على ما يسره له أو لغيره.

وفي السوق تظهر طباع الناس وسجاياهم. وردهم إن تجاوزوا الواجب درس في محل الواقعة لا ينسى:

لقد رأى عليه الصلاة والسلام في السوق أبا مسعود يضرب غلامه، فقال له: "اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام" فقال أبو مسعود من فوره (هو حر لوجه الله يارسول الله) قال ﷺ: "أما لو لم تفعل لَلَفَحَتْ وجهك النار".

وفي أمور السوق وردت سننه تترى شارحة وموضحة للأحكام، ومن أهمها تحريم الاحتكار.

المبحث الثاني:

٢- تحريم الاحتكار:

يقول عليه الصلاة والسلام -: "الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون" ويقول: "لا يحتكر إلا خاطئ".

ويقول: "من احتكر طعاماً أربعين يوماً برئت منه ذمة الله ورسوله".

ويقول: "احتكار الطعام في الحرم[٢١١] إلحاد.

ويقول: "من احتكر على المسلمين طعامهم ضربهُ الله بالجذام".

وهذه الأحاديث وما في معناها تعلن خطورة الاحتكار. فالله – سبحانه– يقول على لسان إبراهيم – عليه السلام –: ﴿رب اجعل هذا البلد أمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام﴾[٢١٢] ويقول: ﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[٢١٣] ويقول – جل شأنه –: ﴿أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[٢١٤].

وقطع الأمن أو الطعام في هذا المكان إثم متراكب.

يروى الإمام مالك في الموطأ أن عمر بن الخطاب – وهو أمير المؤمنين – قال: (لاحكرة في سوقنا، لا يعمد رجال بأيديهم فضول من أذهاب "قطع من ذهب" إلى رزق من أرزاق الله بساحتنا ليحتكروه علينا، ولكن: أيما جالب جلب على عمود كبده في الشتاء والصيف فذلك ضيف عمر. فليبع كيف شاء الله، وليمسك كيف شاء الله).

فأمير المؤمنين يفرق بين الذين يتربصون بالأسواق احتكاراً للسلع

---

(٢١١) للحرم المكى حدود تحيط بمكة من جهات خمس في الشمال (التنعيم) وبينه وبين مكة ٦ كليومترات، وفي الجنوب (أضاه) وبينها وبين مكة ١٢ كليومتر، وفي الشرق (الجعرانة) وبينها وبين مكة ١٦ كليومتر، وفي الشمال الشرقى (وادى نخلة) وبينه وبين مكة ١٤ كليومتر، وفي الغرب (الشميس) وكانت تسمى الحديبية ، وبينها وبين مكة ١٥ كليومتر.

(٢١٢) سورة إبراهيم الآية ٣٥.

(٢١٣) سورة إبراهيم الآية ٣٧

(٢١٤) سورة القصص الآية ٥٧

وانتظاراً للغلاء وبين جلاب المنافع من مواطنها متحملين عناء البرد والحر، وفي الحالة الأولى قوم يعتمدون على ما لديهم من ذهب وفضة يستخدمونه في الكنز أو الإخفاء حتى تحين الفرصة.

أما الحالة الثانية ففيها الجوابون ليمونوا أسواق المسلمين، ويبحثوا عن الرزق الحلال فيها. والتجربة تؤيد أن جالب السلعة يهمه الفراغ من بيع ما جلب، ليتكرر جلبه وربحه، ويتسع رزقه. والأولون متربصون بأقوات المسلمين، والأخيرون في خدمة المسلمين.

والاحتكار حرام عند الشافعية والحنابلة، ويقصرونه على الطعام دون غيره، ويلحقون به طعام الحيوان. والحنفية والمالكية يشترطون أن يكون ضاراً بالناس.

وأبو يوسف يقول: (كل ما أضر بالناس فهو احتكار).

والمالكية يقولون: الحكرة في كل شيء، ويخرج منها ما يدخره الزارع من زرعه، وما لا حاجة لعامة الناس به، وما لا يضيق على الناس بشرائه.

ومن الحرية في التعاقد: لا يبطل عقد من اشترى ليحتكر، وإنما العيب في احتكاره.

وينقل الدكتور السنهورى في كتاب الفقه الإسلامي عن كتاب المغنى أن عمر بن الخطاب خرج مع أصحابه فرأى طعاماً كثيراً قد ألقى على باب مكة فقال: ما هذا الطعام؟ قالوا: جلب إلينا.

قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه.

قالوا: قد احتكر.

قال: من احتكره؟

قالوا: فلان مولى عثمان، وفلان مولاك.

فأرسل إليهما، وقال لهما ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟

قالا: نشترى بأموالنا ونبيع.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من احتكر على المسلمين طعامهم لم يمت حتى يضربه الله بالجذام والإفلاس".

ورووا أن مولى عثمان باع ما جاء به، وأن مولى عمر لم يبع، فرأوه مجذوما فيما بعد.

والفقه الإسلامي بالغ الدقة في حماية المتعاملين من عيوب الغش، (التدليس)، والإكراه والغلط والغبن. حريص على حماية السوق وروادها، ومنع الظلم حيث يوجد وفي أى من صنوف التعامل.

المبحث الثالث:

حماية تدفق السلع

١) ضمان تلقى السلع:

صورته: أن يسعى إنسان للقاء قافلة جاءت بطعام فيشترى ما تحتوية كله، ثم يدخل بها الإقليم أو المدينة أو القرية المنقطعة أو السوق يبيعه بما شاء من أسعار، والناس في جدب وقحط.

يقول رسول الله ﷺ: "لا تلقوا السلع حتى تهبط الأسواق".

ومخالفة هذا الأمر تجعل البيع معصية تؤدى إلى ترك تسعير السلع ليتحكم من تلقاها في أسعارها. إذ لا يشترى المشترى خارج المدينة إلا ليتجنب أسعار السلعة في السوق، أو لفرض الأسعار على السوق. وفي هذا إضرار بالناس، ومنع للرفق لأهل السوق بحرمانهم ما جلسوا له من ابتغاء فضل الله عليهم.

وفي الفقه خلاف في علة التحريم: أهى لمعرفة السعر أو عدمها، أو لسداد الحاجة إلى السلع، أو للضرورة التى تلجئ إليها؟ واختلفوا في الحكم

قدر ما اختلفوا في العلة. وأباح بعضٌ تلقى السلعة لو علم صاحبها "سعر المثل" وباع به، وأباح آخرون تلقى السلعة التى لايرغب عامة الناس فيها، وأباح غيرهم الشراء خارج السوق إذا كثرت السلع، كل حسب المناط الذى نيط به التحريم.

وجملة قاعدة "سد الذرائع" منع الوسيلة إلى ممنوع، مثل منعهم أبا بكر الذهاب إلى السوق لبيع ما يعيش من ثمنه، ومنع بيع العنب لمن يعصره خمراً، أو بيع السلاح لعدو المسلمين، أو بيع دار ليجرى فيها قمار، وزواج المحلل.

ويقول الشاطبى: (كل من ابتغى في تكليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة، ومن ناقضها فعمله في المناقضة باطل).

٢) بيع الحاضر للبادى:

وفي النهى عنه قوله ﷺ: "لا يبع حاضر لباد، دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض". وصورته أن يقدم رجل بمتاع يحتاج الناس إليه في البلد، فيجئ إليه سمسار يقول لا تبع حتى أبيع لك قليلاً قليلاً وأزيد في ثمنها. ومعنى ذلك أن بيع البادى أوسع على أهل السوق وأضيق على القادم من البادية لو لم يتدخل السمسار. واشترطوا لتحريم هذا البيع أن يكون الحاضر (أهل الحضر) قصد البادى ليطلب إليه أن يتولى هو البيع، وأن يكون البادى جاهلاً لثمن السلعة بالسوق، وأن لايتحكم في السوق.

وقد نص الإمام أحمد بن حنبل على بطلان ذلك البيع، إذ قال: أكره ذلك وأرد البيع.

وأحمد كثيراً ما يعبر بلفظ (أكره) عما يراه حراما.

ودعا الإمام الصادق يوماً مولاه "مصادف" فأعطاه ألف دينار وقال له

تجهز حتى تخرج إلى مصر، فإن عيالى قد كثروا، فتجهز بمتاع وخرج إلى مصر من المدينة مع التجار، حتى إذا دنوا من مصر استقبلتهم عير خارجة منها، فسألوهم عن المتاع الذى يحملونه ما حاله في مصر؟ وما متاع العامة؟ فعلموا أن ليس بمصر شيء منه، فتحالفوا ألا ينتقصوا عن ربح دينار دينارا، ووسع عليهم في الربح، ثم فصلت العير قافلة إلى المدينة بالكسب العميم، ودخل مصادف على الإمام ومعه كيسان في كل منهما ألف دينار، وقال جعلت فداك، هذا رأس المال، وهذا الربح.

قال الإمام: إن هذا الربح كثير!! ماذا صنعتم؟

فحدوثوه كيف سألوا، وكيف تحالفوا، وكيف باعوا.

قال الإمام: سبحان الله! تحلفون بالله ألا تبيعوا أو يربح الدينار دينارا؟! وأخذ واحداً من الكيسين وقال: هذا رأس مالى، ولا حاجة لنا في الربح، ثم قال: يا مصادف، مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال.

٣- بيع النجش:

وفي بيع النجش يتواطأ صاحب السلعة مع مشترٍ صورى يزيد على الثمن المعروض من مشتر آخر ليغلى الثمن، فيشترى المشترى الحقيقى بأعلى مما أراد.

وجمهور الفقهاء على أن النهى يقتضى الفساد.. فمَالِكٌ يرى المشترى عندئذ بالخيار، وإن شاء رد – والشافعى وأبو حنيفة يريان البائع آثما، ويجيزان البيع، لأن المنهى عنه عمل الغير، فلا يفسد البيع.

ومن التواطؤ ما يصل إلى التدليس والغش، فيدخل في عيوب التراضى المفسدة للتعاقد.

٤- بيع من يزيد (المزايدة):

مر بنا أن رسول الله ﷺ علم سائلا قادرا على الكسب أن يعمل ليعيش حتى لا تجئ المسألة نكتة في وجهه يوم القيامة، وجعله يبيع بعض أشيائه في مجلسه ﷺ بيع من يزيد. والمزايدة في الثمن مشروعة ليبلغ السعر ثمن المبيع الحقيقي.

فالسعر الحقيقي حق السلعة، والبائع والمشترى، يتراضيان عليه، ومن أجل ذلك قد يزيد ثمنها رجل دون تواطؤ مع أحد، لعلمه بالثمن الحقيقي فيدلي به، ولا بأس بهذا الإدلاء، ويجوز للمشترى أن يتفق مع منافسيه على أن يكفوا عن المنافسة، لا على أن يهبطوا عن الثمن الحقيقى للسلعة، فإن اتفقوا على غير الثمن الحقيقي كان البائع بالخيار في إلغاء الصفقة واسترداد باقى الثمن وفسخ البيع، وإذا كان الاتفاق على أن يكون للممتنع جزء من الصفقة فهو يشترك فيها بحصته.

٥- بيع العربون:

نهى رسول الله ﷺ عن بيع العربون لما في البيع من غرر يؤدى إلى النزاع أو أكل المال بالباطل.

وقبل الفقهاء بيع العربون إذا لم يؤد إلى نزاع، كان يكون العربون جزءا من الثمن إذا تم البيع، أو يرد إلى المشترى إن لم يتم، فإن كان المشترى هو الذى لم يتمه بقى للبائع.

وقد أجاز ذلك أمير المؤمنين عمر كما روى عنه ابنه عبد الله -رضى الله عنهما - وفي اقتران العقد بالشرط. روى أحمد بن حنبل أن صحابيا اشترى لعمر (أى للدولة) دار السجن من صفوان بن أمية - إن رضى عمر- وإلا فله كذا وكذا.

وروى الأثرم تلميذ أحمد (قلت لأحمد تذهب إليه؟ قال أحمد: أى شيء أقول. هذا عمر رضى الله عنه.

المبحث الرابع:

الغرر في المعاملات

هو الأمر المجهول العاقبة، أو ما خفيت عاقبتة وطويت مغبته.

والمتعاقد إذ يجهل عاقبتة المستورة ليس مجرد مخدوع، فالخداع عيب يفسد التصرف، وإنما الغرر لايصح فيه تعاقد أصلاً، ولأهميته تحدث الإمام مالك عنه في كتابه (الموطأ) تحت واحد وثلاثين باباً، وتحدث ابن رشد عنه بتفصيل أطول، وكان الغرر مشغلة الفقه، ثم بدأ التطور فرأينا أبا يوسف ومحمداً صاحبى أبى حنيفة يجيزان المزارعة، وإن كان أبو حنيفة ومالك لايجيزانها.

وابن أبى ليلى أستاذ أبى يوسف الأول يعلن التطور بقوله: (بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه أعطى أرض خيبر بالنصف، فكانت كذلك حتى قبض، وخلافة أبى بكر وعامة خلافة عمر، وبه نأخذ. وإنما قياس ذلك عندنا على الأثر: ألا ترى الرجل يعطى الرجل مالا مضاربة بالنصف ولا بأس بذلك؟ وقد بلغنا عن عمر بن الخطاب ﷺ وعن عبد الله بن مسعود، وعن عثمان بن عفان – رضى الله عنهم – أنهم أعطوا مالا مضاربة، وبلغنا عن سعد بن أبى وقاص، وعن ابن مسعود – رضى الله عنهما – أنهما كانا يعطيان أرضهما بالربع والثلث).

ومالك يجيز الإجارة على المنفعة المظنون حصولها، كالوعد بجائزة يبذله الإمام لمن يدله على مصلحة عامة، ويجيز الإجارة على نتيجة العمل كبرء المريض، وتحفيظ القرآن واستنباط الماء.

وابن رشد يرى جواز المضاربة رفقا بالناس، ووجه صحتها أن الدنانير فيها لا تزكو إلا بالعمل، وابن تيمية يرى المضاربة مشاركة على أن يقدم العامل عمله، وصاحب المال ماله، والربح بينهما مشاع..

يقول: (ومفسدة الغرر أقل من الربا؛ ولذلك رخص فيما تدعو إليه الحاجة منه فإن تحريمة أشد ضررا من كونه غررا مثل بيع العقار جملة وإن لم تعلم دواخل الحيطان).

والسيوطى يعرف الحاجة تعريفا فيه يسر في كتابه (الأشباه والنظائر) (هى أن يصل المرء إلى حالة بحيث لو لم يتناول الممنوع يكون في جهد ومشقة، ولكنه لا يهلك) ويقول: (والحاجة إذا عمت كانت كالضرورة).

وهذا الانضباط الدقيق للمعاملات يتفق مع أمر رسول الله ﷺ بوجوب بيان العيب الذى يعرفه صاحب السلعة، وبترتيب الخيار الخاص بالعيب وأحكامة.

وبيان العيب قد يشترك في الالتزام به غير البائع، فيكون واجبا على كل من يعلم العيب وفقا لحديث أبى سباع، قال: اشتريت ناقة من واثلة بن الأسقع، فلما خرجت بها أدركنا عقبة بن عامر وقال: هل بين لك ما فيها؟

قلت: ما فيها؟ إنها لسمينة ظاهرة الصحة.

قال: أردت بها سفرا أم أردت بها لحماً؟

قلت: أردت عليها الحج.

قال: إن بخفها نقبا.

قال صاحبها البائع: أصلحك الله، تريد أن تفسد على البيع؟

قال عقبة: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يحل لأحد باع شيئا إلا بين ما فيه، ولا يحل لأحد يعلم ذلك إلا بينه".

وهو – عليه الصلاة والسلام – يضيف إلى عيوب المعاملات المالية

معاملتين في الزواج ينهى عنهما، هما: الخطبة على الخطبة، واشتراط طلاق الزوجة في حديثه: "لا تناجشوا" ولا تلقوا الركبان، ولا يبع حاضر لباد، ولا يبع رجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه، ولا تسأل المرأة طلاق أختها".

أما التعامل في الأعيان النجسة فمحظور، كبيع الخمر ولحم الخنزير وإن كان لها قيمتها عند أهل الذمة، وكبيع السلاح لمن يحارب المسلمين به، أو بيع العنب لمن يعصره خمرا.

وللغَبْن وضع خاص، لأنه يظهر في كل ظلم، وتعادل الأداءات مناط التصرفات.

ومن الفقهاء من يحددون نسبةً له، والأظهر أنه يقع إذا زاد الفرق في الثمن "عما يتغابن فيه الناس عادة"، أى فيما يخرج عن المألوف في المعاملات.

المبحث الخامس:

بيوع الأمانة

يقول تبارك وتعالى ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً﴾[215] ويقول ﴿يايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود﴾[216] ويقول ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإن ا لله يحب المتقين﴾[217].

والكذب في موضع التصديق خيانة أمانة فوق أنه كذب.

(215) سورة الإسراء الآية ٣٤

(216) سورة المائدة الآية ١

(217) سورة آل عمران الآية ٧٦

ولقد توعد الله المطففين في مفتتح سورة المطففين: ﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾(٢١٨).

والفطرة الإسلامية قائمة على العدل، والرسول عليه الصلاة والسلام يصف المنافق بثلاث: "إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان".

وفي الخيانة والكذب والأمانة قوله ﷺ: "كفى بك خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق، وأنت به كاذب".

وليس من الإسلام بحال خيانة الأمانة، ومن ذلك تعين لتوقيع حد السرقة على السارق أن يكون المال في حرز أمن به صاحبه من السراق، فهذه خيانة لحق المجتمع وحق الفرد في الأمانة.

ومن الخيانة أن يعتمد امرؤ على صدق المتعامل معه فيكذبه القول أو يقصر في البيان أو يكتم العيب في المبيع. وضربوا مثلاً لذلك بيع جارية دون بيان فقدها أحد ضروسها، والسلامة شرط، والتقوى مطلوبة في الأخذ والعطاء، والمسترسل مستسلم للبائع لقلة الخبرة وإحسان الظن، ورسول الله يقول: "غبن المسترسل ظلم".

وكل شراء بزيادة عن الثمن أو بالثمن ذاته يقتضي وجوب الصدق في بيان الثمن وظروفه وملابساته وأحوال المبيع وما أصابه.

---

(٢١٨) سورة المطففين الآيات ١، ٦

الفرع الثالث

حرية المتعاقد

المبحث الأول:

حرية التعاقد

تتجلى حرية الإرادة في الإسلام في كل ما يتعلق بشخصية الإنسان، وقد أسلفنا بعضا منها، ويهمنا منها هنا حرية إنشاء التصرفات القانونية.

كانت حرية الاجتهاد - ومنها حرية الاختلاف - وما تزال القاعدة الأساسية في العلم بوجه عام لدى المسلمين، وتعدد المذاهب بذاته دليل على حريات أصحابها ومعتنقيها من بعدهم، ومنها ما يحتكم إلى الظاهر، فيسبق بذلك الفقه الألمانى باثنى عشر قرنا كاملة، ومنها ما يحتكم إلى النية، ومنها ما يلتزم الصيغة ولا يبرحها، وفي بعض المسائل نجد آراء أربعة أو أكثر، كلها داخلة في الشريعة.

ولا عجب إذا كان من الذين أخذوا بظاهر العبارة أساتذة العلوم التجريبية التى تطورت بها البشرية في عصر التنوير أو النهضة الأوربية.

ولا عجب كذلك إذا كان الفقهاء الذين أخذوا بالنية (تلاميذ الإمام أحمد ابن حنبل) أساتذة الانفتاح الفقهى في المعاملات.

والحرية الكاملة في العقود والشروط هبة من الله بشريعته، عبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: "المسلمون عند شروطهم، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً".

وكثرة المتفقهين المعاصرين والسابقين من جميع المذاهب - إلا عدداً محدوداً - يتجارون في هذا المضمار، ويجدون فيه كفايتهم.

والمعاملات تجرى بتراض على عقود يلتزم أطرافها بمضمون العقد، ومن الفقهاء من يُجوزُ الشروط إذا وافقت ما يقتضيه العقد مثل شرط تسليم المبيع خاليا من العيوب.

ومنهم من يتسع درجة "ويجوز" ما يلائم "هذا المقتضى"، مثل الإلزام بالتسجيل، وثمة من يتسع أكثر فيقبل ما لايخالف العقد، كمن يشترى شيئا ويضيف إليه أن يكون من نوع خاص موجود في السوق، أو يشترط إحضار ضامن للمتعاقد معه.

واقتضت الحال في العصر الحديث أن يحتوى العقد الواحد شروطاً متنوعة في أشياء متنوعة مطلوبة للعاقدين. ويتعين ألا تتناقض الشروط أو تتهاتر.

والفقه الإسلامي الآن يساير التطور فيقبلها بشرط ألا تهدم العقد، وإلا سقطت وحدها أو سقط بها العقد.

والعرف محكم في كثير من أبواب التعامل، والمعاملات التجارية بعض المعاملات المدنية، والتجارة عجلى بطبيعتها تدور مدار حركة السوق في اتخاذ السوق "المثل" كأساس للقياس، وفي اعتبار المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً.

وفي المتفقهين الآن اتجاه لا يتردد في التلفيق الدقيق بين الأقوال المستقرة في المذاهب ابتغاء نماء المعاملات، ومجاراة العصر، واتقاء للحرج. والجمود على مذهب واحد قد يحرم المجتمع المعاصر من مزايا تعدد الأقوال التى كانت فرجاً للأمة.

وقد طالما سلك المشرع المعاصر ذلك النهج في أمور من صميم المعاملات، وإن كانت تمت بأسباب إلى العبادات، كالزواج، والطلاق، والوقف، والوصية.

المبحث الثانى:

عنصر التنظيم والإدارة في التجارة

فيما أسلفناه عن خصائص التعاون ووجوهه، والتجارة مع الله، وحقوق الله في التصرفات، وحسن النية، وحسن الخلق، ما يغنى التاجر المسلم بالرزق الحلال في باب إدارة المال.

والأقدمون يقولون: تفقهوا قبل أن تسودوا – والتفقة – وإن كان محدودا كاف لمعرفة الحلال والحرام، وتجنب الشبهات، وما أيسر أن يتجنب امرؤ ما يشينه، والمسلمون عليمون بأن صاحب الشريعة – عليه الصلاة والسلام – قد استنكر أن ينزل تاجر بالمعيب من سلعته إلى ما تحت باقيها، وأن أمير المؤمنين عمر نهى عن أن يجلس في السوق من لم يتفقه، وإلا أكل الربا شاء أو أبى، وعليمون بأن أمير المؤمنين عليا أوصى بطائفة التجار.

والمسلمون يستمعون في مساجدهم إلى عظات الحلال والحرام، ويقفون بين يدى الله على مدار العمر، يذكرونه في كل صلاة، وفيما بعدها وقبلها، ويؤمنون بأن الله حاضرهم.

ويشهد لما نقوله شاهدان.

١) أن بين كبار التجار والعلماء والأمراء متصوفة كبراء، أو أئمة عظماء في الفقه، أو علماء في الفقه والأدب والتاريخ والفلك والطب والكيمياء والهندسة، وغير ذلك.

٢) وأن أطراف الدنيا التى تدين بالإسلام قد دخل أهلها الإسلام على أيدى تجار لا يهمهم أن يحتفى التاريخ بأسمائهم، واحتفل البشر جميعاً بالأنموذج الرفيع من أخلاق قوافلهم والمشروعية في تعاملهم.

والتاجر لايبرح يذكر أن الرزق من الله. وليس مفأجاة لأحد أن يجد أكثر الناس انتظاما في الفروض وصلاة الجماعة في المسجد من التجار.

ومن تنظيم التجاره لعملهم وإدارتهم له: مغامراتهم الكبرى إلى أقصى الأرض باقتحام المجهول، وابتغاء فضل الله على سفائن الماء أو سفائن الصحراء، يحملون تجاراتهم عليها، ومعهم تجارة مع الله لن تبور، وحسب القافلة منها جزاءً أن يدخل في دينهم رجل واحد.

وأى هذا كان فإن تجاراتهم أدخلت في الدين الإسلامي أكثر المسلمين عددا وأوسع الأمم أرضا.

دفاتر التجارة وحجيتها:

عرف المصريون الأقدمون القيد في الدفاتر، وقد أشارت كتب الفقه الإسلامي القديمة إلى دفتر البياع - محليا كان أو له وكلاء في مدن أخرى-.

يقول الفقيه ابن عابدين: (أما خط البياع والصراف فهو حجة للعرف الجارى، قال البيرى: وأما خطه فهو حجة وإن لم يكن يعرف بين الناس) ويقول ابن عابدين: (فلو لم يعترف به أى بالخط في الدفتر يلزم ضياع أموال الناس. وغالب بياعاتهم بلا شهود، خصوصاً ما يرسلون إلى شركائهم وأمنائهم في البلاد، لتعذر الإشهاد، فيكتفون بالمكتوب في كتاب أو دفتر ويجعلونه فيما بينهم حجة عند تحقق الخط).

وإذا ذكرنا أن البينة أساسها الشهادة أدركنا مبلغ التيسير في الإشارات بالدفتر، وعلى الجملة: فالمسلمون من عصرهم الأول يسلمون للعرف بمكانته.

المبحث الثالث:

سعر السوق وسعر اليوم وكساد العملة

وسعر السوق وسعر اليوم تعبيران عن الأثمان تعول عليهما اقتصاديات الدول المعاصرة، وهما تعبيران أو مصطلحان سبق بهما نبى الإسلام:

جاءه عبد الله بن عمر يقول: انى أبيع النقيع، وأبيع بالدنانير وآخذ الدراهم، وأبيع بالدراهم وآخذ الدنانير؟

قال ﷺ: "لا بأس أن تأخذ (بسعر يومها) ما لم تفترقا وبينكما شيء" وسأله رجلان عن كرى لهما، له عندهما دراهم ، وليس معهما إلا دنانير؟ فقال: "أعطوه بسعر السوق".

كساد العملات:

وانخفاض العملة وتغييرها أو إبطالها قضية قائمة في الفقه الإسلامي، لها معالمها، ولم يخرج عنها العقل المعاصر:

- أبو حنيفة يرى منذ النصف الأول من القرن الثانى: أن ترد القروض أو تدفع الأثمان بما يعادلها عددا.
- والصاحبان لكل منهما رأى: لمحمد رأى صار إليه أبو يوسف، وهو رد قيمتها، ومحمد يرى رد القيمة يوم القبض لأنها معلومة (إن كان بيعا ففي يوم البيع، وإن كان قرضاً فيوم حلول سداد القرض) والفتوى عندهم ترجح وقت ثبوت الحق.
- والشافعى يرى رد المثل عدداً ويرى ذلك مالك بن أنس.
- وأحمد بن حنبل يقول: إن استقرض دراهم رد مثلها عددا ولو تغيرت الأسعار. وقال: إذا كان القرض فلوسا أو دراهم مكسرة رد مثلها ما دامت موجودة في التعامل، وإذا كان السلطان أبطل التعامل فيها وجب رد القيمة.

والفلوس والدراهم المكسرة أدنى درجات النقود.

وأجمعوا أن الفلوس إذا لم تكسد ولكن غلت قيمتها أو رخصت فعلى المقترض مثل ما قبض بالعدد.

ولمجمع الفقه الإسلامي بجدة قرار في ١٥/١٢/١٩٨٨:

(أن العبرة في الوفاء للديون الثابتة بعملة ما: هى رد المثل عددا لاقيمة، لأن الديون تقتضى بأمثالها، فلا يجوز ربط الديون الثابتة في الذمة آيا كان مصدرها بالأسعار).

على أن مماطلة المدين القادر على الوفاء إثم ويسوغ تضمين ما أحدث المطال من أضرار.

الفرع الرابع
قرون التقليد في الفقه

المبحث الأول:

من قرون التقليد

الفترة الأولى:

في الفترة الأولى من قرون التقليد تلازم الضعف عن الجهاد مع البعد من الاجتهاد والنهضات عمادها الفكر والفعل معا.

في كتابنا (أحمد بن حنبل إمام أهل السنة)[٢١٩]. استعرضنا تاريخ الدولة العباسية لنبين كيف تأثرت مصايرها بالبعد من الدين والتدخل الأجنبى من دول أخرى دخلت في الإسلام منذ القرن الثالث، وانتهت بتدمير بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ ومنذئذ غابت شمس الحضارة عن شبة الجزيرة العربية حتى صحت على صوت محمد بن عبد الوهاب بعد قرون.

وفي الأثناء استولى الفاطميون على مصر في النصف الثانى من القرن الرابع حتى النصف الثانى من القرن السادس فأغرقوا في التعصب لمذهبهم، لنجد صلاح الدين يقرن الجهاد الدينى ضد الصليبيين بالاجتهاد الفقهى الذى أظهر مذاهب أهل السنة بمصر.

وكان علاجه دينياً فهذا قانون الأمة لا يصلح أمرها من دونه سواء بالجهاد الذى أعاد القدس بانتصار حطين، أو باعادة العقيدة إلى سلطانها بتدريس المذاهب الأربعة لأهل السنة.

قلنا في المرجع المشار إليه:

(٢١٩) أحمد بن حنبل (للمولف) طبعة دار المعارف بالقاهرة.

(بدأ إدبار الدولة في عصر المأمون، إذ فضل العجم الذين أجاؤوه إلى الخلافة – وهم أخواله – على العرب الذين حاربوه إلى جوار أخيه العربى الأم وأدى المأمون لطاهر ابن الحسين قائد جند خراسان ثمن انتصاره.

وقامت الدولة الطاهرية (٢٠٢ – ٢٥٩هـ) بخراسان!! وثنى عليهما المعتصم فجعل الجيش من الأتراك – أخواله – فسيطروا على مراكز القوة، ومكنوا للشعوبيين، فمال ميزان المعدلة إلى حيث لا عودة[٢٢٠]. و(كان الخلفاء العباسيون يزعمون أنهم يمثلون الله تعالى في الأرض..).

وفي الفترة الأولى من قرون التقليد مثل العلم اثنان من عظماء الفقهاء بالأندلس ابن حزم في القرن الخامس وابن رشد في القرن السادس وكلاهما كان الفرد العلَم في قرنه.

أما ابن حزم (٤٥٦) في القرن الخامس، فكان تمسكه بظاهر النصوص ملاذاً من اجتهادات ونظريات لا يأمن عليها علماء جيله، والقادمين بعده.

وابن رشد (الحفيد ٥٩٥) كان عبقرية عالمية نتجتها أسرة ابن رشد (الجد) في أوائل القرن السادس. وكان وصف (العالمية) طبيعيا، لأن الفلسفة كانت عربية كما قال روجير بيكون – في أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ولأن كتب ابن رشد ترجمت بعد وفاتة إلى اللاتينية – لغة العلم في أوروبة – قبل ظهور اللغات الأوربية المعاصرة، ولأن الفلسفة العربية ليست إلا فلسفة حرية الرأى.

---

(٢٢٠) وتتابعت الدول الجديدة تتقاسم دولة الخلافة من الأغالبة (١٩٠ – ٣٣٣) بأفريقية، إلى الدولة السامانية في عهد المستعين (٢٤٨) إلى الدولة الصفرية في سجستان في عهد المعتز (٢٥٢) إلى الطولونية (٢٤٥ – ٢٩٢) إلى الدولة الأخشيدية (٣٣٣ – ٣٥٨) إلى الدولة الحمدانية (٣١٧ – ٣٩٤) إلى دولة بنى بوية (٣٢٤ – ٤٢٣) ثم جاءت الدولة السلجوقية. وكل هؤلاء دخلوا في الإسلام.

يقول عن القساوسة: (إن أفظع الظلم ظلم القساوسة، فهو الذى عطل العقل).

ويقول عن المرأة والاقتصاد: (إن ظلم الرجل للمرأة، وهى الثلثان من عدد السكان هو الذى قضى عليهن أن يعشن عالة على الرجل دون عمل، فإن حالة العبودية التى نشأ عليها الرجال النساءَ أتلفت مواهبهن، وبهذا شقيت "المدن" لأن عدد النساء فيها يربو على عدد الرجال، وهن يعجزن عن تحصيل عيشهن إلا عن طريق الرجل).

ونلاحظ أن أوروبة نفضت عن عاتقها ظلم الكنسية في صحوة لها على كتب ابن رشد في حرية الفكر، ولذلك سموا فلسفته (مذهب الرشدية) كما نلاحظ الجانب الاقتصادي في تشغيل المرأة وهى الثلثان في مجتمعات الحواضر – في عهده – فما أسعد مجتمع تشتغل أثلاثه الثلاثة !! وهذه فلسفة في العمران والاجتماع. وهو غرض ما يزال طليَة للأمة. وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: "نعم لهو المرأة في بيتها المغزل".

وفي السياسة يعلن ابن رشد: (إن الحاكم الظالم يحكم الرعية لمصلحته لا لمصلحتها) وهى صيحة أخرى صحت عليها أوروبة في أواخر القرون الوسطى، وما تزال معانيها تطن في مسامع الناس. وله كلمات قوية في نقد التقليد. يقول عن معاصريه: (متفقهة زماننا يظنون أن الأفقه هو الذى يحفظ مسائل أكثر!! وهؤلاء عرض لهم شبيه من ظن أن الخفاف (بائع الأخفاف وهو ضرب من الأحذية يستعمله العلماء في ذلك الزمان وفيما بعده) هو الذى عنده خفاف كثيرة، لا الذى يقدر على عملها، ويأتيه إنسان بقدم لايجد في خفافه ما يصلح لقدمه، فيلجأ إلى صانع الخفاف ضرورة، وهو الذى يصنع لكل إنسان خفا يوافقه، هذا مثال كثرة المتفقهة في هذا الوقت).

× × × × × ×

وأبو جعفر الدمشقى كان تاجراً في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس طبعت نسخة من كتابه (الإشارة إلى محاسن التجارة) أظهرها تعليق عليها بقلم الأستاذ الدكتور رفعت العوضى، أستاذ الاقتصاد بجامعة الأزهر.

والكتاب يعبر عن عقلية عصره، كما عبر كتاب الاكتساب عن العقلية في عصره، ومثله "الخراج" لأبى يوسف، أو "الأموال" لأبى عبيد، أو "الأحكام السلطانية" للماوردى، إذ عبر كل منهم فيها عن عصره.

وعنوان: كتاب أبى جعفر الدمشقى (الإشارة إلى محاسن التجارة) يمتدح الغنى بالمال مكتسبا بالعمل أو بالميراث، يقول: (ولو لم يكن فيه إلا أنه من صفات الله -عز وجل- لكفى فضلا وشرفا عظيما)!!

والله تعالى "غنى" عن خلقه، لا يغنى بالناس ولا بمخلوقاته، وإنما هو الغنى عما استخلف فيه عباده وقد خلق الدنيا لهم.

والغنى ليس بالموروث أو المكسوب، وإنما بالقدرة على استعماله في المنافع، والنقود أدلة على ذلك، ليس لها غنى إلا أن تستعمل.

والكتاب يقسم المال أقساما، ويتكلم عن طريق اكتسابه، فهى الاحتيال، بمعنى (الحيلة أو السعى) والمغالبة (بمعنى الغصب أو النصب) والاكتساب المركب، ومن أمثاله اشتغال الدولة بالتجارة، أو معاملات ذوى الجاه والسلطة، ففي كل ذلك تجارة ومغالبة، وليس ذلك بمطلق، فذوو الجاه، أو الدولة قد يحسنون التعامل، وهو بهم أجدر.

وللمؤلف في حفظ المال آراء تبدأ:

١) بألا ينفق صاحبه أكثر من كسبه.

٢) وألا يمد يده إلى ما يعجز عن القيام به.

٣) أن يعلم أنه يملك المال إذا ملك التدبير.

٤) أن يبدأ بدينه للمعاد، وبماله للمعاش.

المبحث الثاني:

الفترة الثانية (غزو التتار)

هى قرون ابن تيمية (٧٢٨هـ) وتلميذه ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) وعبدالرحمن الحبشى (٧٨٢هـ) ثم ابن خلدون (٨٠٨) في القرن الهجرى التاسع = السادس عشر للميلاد وما تلاه.

كتب ابن تيمية في أكثر الأمور التى أهمت عصره بدعوته المجددة للفقه في عصر يتناوش فيه أهل الغرب مع الإسلام ذاته. وجرى في آثاره تلميذه ابن قيم الجوزية (المدرسة الجوزية تنسب إلى ابن الجوزى) وقد مثل ابن تيمية الأمة باشتراكه في محاربة التتار، وأعلن الحرب على المتصوفة، فشكوه للسلطة فحبسة السلطان غير مرة في مصر وسورية.

وكما حارب الرجلان الفساد في أفكار بنى العصر قاوما الظلم بالاحتكار فجعلاه كالربا.

وابن القيم يرى جواز التسعير إذا كان في سعر السوق ضرر بالعامة، ويقول ان النقود ليست موضوع تجارة، بل هى أداة تجارة.

وعبد الرحمن الحبشى (٧٨٢هـ) صاحب كتاب (البركة في السعى والحركة) يظهر لنا بمؤلفه ما صار إليه أمر المعاملات الاقتصادية بعد القرون السبعة من نزول الرسالة، أو أربعة قرون من انتهاء الحروب الصليبية وابتداء غزو التتار، واتصال أهل أوروبة بالشرق، مع انقطاع الاجتهاد.

يبدأ الكتاب بقول الرسول – عليه الصلاة والسلام – "ان الله لا يحب الفارغ الصحيح لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة" وقوله: "إن أشد الناس حسابا يوم القيامة المكفى الفارغ".

أما الكتاب العزيز فينص على أنه ﴿ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه

سوف يرى﴾[٢٢١] ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفـران لسـعيه﴾[٢٢٢] ﴿وفي السماء رزقكم وما توعـدون﴾[٢٢٣]. ويبرز في الكتـاب رأى "الجوينـى" أن القيـام بفرض الكفاية أفضل من القيام بفرض العين، لأن تارك فرض العين كالصلاة والصوم آثم يحمل وزره وحده، وأما فرض الكفاية فـإذا أداه أسقط الإثم عن نفسه وعن المسلمين كافة، والمسلمون مجمعون على أن القيام بالجهاد وطلب العلم وأداء الصناعات أو تعلم العلوم فرض كفاية يتعين على الجماعة القيام به، وعلى الفرد إذا هو تعين له.

وشروط السعي والحركة لحدوث البركة في النشاط عنده هى:

١) أن يكون النشاط حلالاً بعيداً من الشبهات.

٢) الزكاة والقيام بالصدقات ويستشهد بقوله -تعالى -: ﴿وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾[٢٢٤]. وبحديث: "إن في المال حقـا سوى الزكاة".

٣) الصلاة المفروضة.

٤) معرفة ما لايُستغنى عنه من أصول الاعتقاد والعلوم الشرعية.

٥) القيام بحقوق الأهل والإنفاق على القرابات، وحسن صحبة الإخوان.

٦) تجنب النميمة والاغتياب.

٧) عدم التحيف في الوصية.

ويعقد الكاتب باباً خاصاً لتفصيل هذه الشروط، فيضع العناصر الأربعين التالية بترتيبها

---

(٢٢١) سورة النجم الآيتين ٣٩، ٤٠

(٢٢٢) سورة الأنبياء الآية ٩٤

(٢٢٣) سورة الذاريات الآية ٢٢

(٢٢٤) سورة البقرة الآية ١٧٧

(١) تقوى الله (٢) كثرة الاستغفار

(٣) الصلاة بخشوع، والمواظبة على الجماعة

(٤) صلاة الضحى (٥) المواصلة بين المغرب والعشاء بالذكر

(٦) صلاة الوتر وصلاة الفجر وقيام الليل

(٧) الاجتهاد بالطاعة (٨) الصدقة وحسن الإنفاق

(٩) المباركة في الصدقة

(١٠) البر وصلة الأرحام والرفق، وحقوق الوالد، وحقوق الولد

(١١) المواظبة على الوضوء (١٢) الصيام

(١٣) الاعتكاف في المساجد وعمارتها

(١٤) الحج والعمرة لمن استطاع (١٥) تلاوة القرآن

(١٦) قلة الكلام بما لا يغنى، وترك الغيبة والنميمة

(١٧) التبكير في طلب العلم والرزق

(١٨) التزوج وطلب الولد (١٩) إكثار حمد الله تعالى وشكره

(٢٠) إكثار الصلاة والتسليم على النبى ﷺ

(٢١) الإحسان إلى اليتيم (٢٢) التيسير على المعسرين

(٢٣) زيارة الضعفاء والغرباء وإكرامهم

(٢٤) طلب العلم

(٢٥) الاجتماع والألفة وحسن المداراة والصحبة

(٢٦) المواظبة على الدعاء

(٢٧) تسمية الله تعالى في جميع الأعمال

(٢٨) السلام عند دخول البيت

(٢٩) سكنى المواضع المعهودة بالبركة

(٣٠) التجارة والسفر لابتغاء الرزق (٣١) اتخاذ الغنم

(٣٢) اتخاذ النخل (٣٣) كيل الطعام وحسن التقدير

(٣٤) الاجتماع على الطعام ومراعاة آدابه

(٣٥) التوسعة على العيال (٣٦) إكرام الطعام وآدابه

(٣٧) تسمية الولد محمداً وأحمد

(٣٨) التأدب بآداب المشورة، وفيها الاستعانة بالله

(٣٩) اجتناب منع الماء، وسب الريح

(٤٠) اجتناب البغى، والربا، والخيانة، والاحتكار، ومنع قطع الشجر المنتفع به في الطرق ونحوها.

وهذه التفاصيل تدلك على أن الناس في النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى كسدت فيهم قيم التفاصيل الدينية فذكرهم الفقيه بها أو بكثير منها ليسعوا في كسب الدنيا، وهذه دلالة على تدهور المجتمعات حتى احتاجت إلى مثل هذه المؤلفات. وكانت البدع في رواج حاول وقفه ابن تيمية ومدرسته فلم يبلغوا المراد.

ولما تحدث عن شروط حسن السلوك في الدنيا لم يفصل تفصيل علماء التربية أو الفقهاء. ولما أجاء في آخر الشروط الأربعين أموراً من الكبائر كالبغى والربا والخيانة واحتكار الأقوات جوز لنا أن نعتبر هذه الأربعين "الحبشية" اعلاناً عن فساد عصره، حتى احتاج شروطاً أربعين في أولها التقوى، وفي آخرها عدم ارتكاب الكبائر، وفيما بين الأول والآخر تحدث عن تسمية الأولاد وآداب الطعام، وحسن المداراة والصحبة وأشباه ذلك. وأخفى السبب الحقيقى لفساد العصر، وهو شيوع الخرافات الذى بدأ يتحكم في العامة والخاصة أيضا، وانحدار المجتمع فى اتجاه الفقر والضعف وفساد نظم الحكم في الوطن العربي.

في ذلك العصر أصبحت التكايا ظاهرة اجتماعية وفدت من نيسابور،

وتعلم الناس الانقطاع إليها دون عمل! وفيها نشأ الدراويش الراقصون! وقد أحسن وصفهم ابن حزم (٤٥٦هـ) حين قال عنهم وعن رائدهم: (إن من الصوفية من يقول: إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع! وبلغنا أن بنيسابور اليوم رجلا يدعى أبا سعيد بن أبى الخير مرة يلبس الصوف، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال، ومرة يصلى في اليوم ألف ركعة ومرة لا يصلى فريضة ولا نافلة، وهذا كفر محض).

"وابن عربى" يقول من أوائل القرن السابع (إن النبى ليس أعلى من الولى إلا في الظاهر فالرسول جاءنا بالشرع، أما الأولياء فيجيئهم من الله مباشرة بالتجلى والمشاهدة...) وهذا غنوض الأفلاطونية المحدثة.

وعصر ابن عربى في القرن السابع (الرابع عشر الميلادى) هو الذى نزل فيه الصليبيون ثغر دمياط، وهزمتهم مصر مرتين سنة ٦١٨هـ ثم في المنصورة ٦٤٨هـ ثم دخلوا بغداد سنة ٦٥٦هـ وهزمت مصر التتار من جديد سنة ٦٥٨هـ في عين جالوت.

المبحث الثالث:

أصول ابن خلدون في الاجتماع والاقتصاد

نتج ابن رشد وابن النفيس وابن خلدون في عصور التقليد في الفقه لكنهم حملوا مصابيح المعرفة الإنسانية في العصور الوسطى إلى أعلى مقام، ودلوا بفقههم وآرائهم على استقلال الفقه عن تدهور المجتمعات واستمرار الشريعة في فلكها الرفيع وإن تدلى المجتمع.

في كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر) خلص ابن خلدون (٨٠٨هـ - ١٤٠٦م) إلى قوانين في الاقتصاد والاجتماع تحكم العالم:

أولها: أن الدولة قد تنشأ بغير دين وتكون قوية، لكنها لا تبقى وتدوم إلا بالدين، لأن الدين وحده يجعل الدولة قوية ودائمة.

وثانيها: أن المغلوب مولع بتقليد الغالب.

فهاتان قاعدتان اجتماعيتان وماعداهما قوانين في الاقتصاد

وثالثها: اقتصادى، وهو أن الفلاحة معاش المستضعفين، ومن المعاصرين من يعتبرونها "حالة لا مهنة".

والرابع: اقتصادى أيضاً: هو أن الصنائع والحرف تقارب الخراب عندما تشارف الدولة نهايتها.

والخامس: اقتصادى واجتماعي معاً، وهو: أن للدول أعمارا كالأشخاص الطبيعيين وأعمارهم.

والسادس: تعريف للتجارة بأنها (محاولة الكسب بتنمية المال، بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء، وذلك القدر النامى يسمى ربحا، وهو بالنسبة إلى أصل المال يسير، إلا أن المال إذا تراجع كان كثيرا وعظم الربح، لأن القليل في الكثير كثير)

والسابع: بيان لنوع الوساطة التى يقوم بها التاجر، فقد تكون نقل السلعة من زمان إلى زمان، أو اختزانها وتحين الوقت الذى يتغير رخص الأسواق فيه إلى الغلاء أو نقلها من مكان إلى آخر تنفق فيه).

والثامن: حرص ابن خلدون على كرامة التجارة والتجار وهو يتناول التجارة من الناحية الخلقية والاجتماعية فيدعو إلى إعلاء شأن التجار، ويندد بجرائم الغش والخلابة والإيمان الكاذبة والتطفيف في المكيال والميزان.

ومن اعتبار الإمام محمد عبده بهذا الكتاب درسه في مدرسة دار العلوم في أواخر القرن الميلادى الماضى، وبعد نحو نصف قرن نال فيه طه حسين شهادة الماجستير (مقدمة ابن خلدون) وبها تزدان المكتبات الكبرى في العالم

الآن.

واليوم نشهد المجتمعات القائمة على الدين قد خفت قبضتها عليه، ونراها من عجزها تفتح الأبواب لتقليد عيوب الغالبين، والغالب يتمنى بقاء المغلوب في الحبالات. والتعامل بالربا غرض أول لكل مستعمر.

وهو بنص القرآن الكريم ممحقة للبركة، مفسدة للأمة يستعبد بها الدائن مدينه.

يقول رشيد رضا نقلاً عن تولستوى (من فاتحة القرن الحالى): (إن أوروبة نجحت في تحرير الناس من الرق، لكنها غفلت عن رفع نير الدينار من أعناق الناس الذين ربما يستبعدهم الدينار يوما).

ودول العالم الثالث الآن ثلثا دول العالم، تئن من نير الديون، والدول الدائنة تمارس من ضروب الدعاية والإعلان ما يكرس الانحلال. ويزيد الناس وقوعا فيه، بتصدير الموبقات إليه واحتضان شذاذ الآفاق، وتكاثر المصارف والشركات الربوية، والتفريط في العبادات والطاعات وفي هذا التدهور يتبجح (جب وماسينون)[٢٢٥] في كتابهما (وجهة الإسلام) فيقولان:

(ما يزال للإسلام القدرة على أن يتألف أمما لا سبيل إلى التوفيق بينها بسبب الجنس والتقاليد وإذا لم يكن بد من التعاون بدلاً من الشقاق بين المجتمعات العظيمة في الشرق والغرب، فإن وساطة الإسلام شرط لابد منه، لأن في يده – إلى حد كبير – حل المشكلة التى تواجه أوروبة في علاقاتها مع الشرق).

---

(٢٢٥) الأول مستشرق، من كتاب تراث الإسلام. والثانى مستشرق ومبشر، كان مفتشا في الإدارة الفرنسية بالجزائر، دخل عضوا في مجمع اللغة العربية بمصر في تشكيله الأول والكتاب ترجمة الدكتور/ محمد عبد الهادى أبو ريدة

وما هذه إلا دعوة للغرب لاستغلال الأخوة الإنسانية أو التعاون العالمي الذى يأمر به الإسلام.

والرسول الكريم يقول: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة، أصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفل السفينة إذا أرادوا الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في السفينة خرقاً ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ولو أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً".

الباب الرابع

في التجارة العالمية والربا

" لولا محمد لما كان شارلمان "

بيرن

" الواقع أن ارتباط الإسلام بالتجارة
هو السبب الرئيسي لدخول هذا العدد
من شعوب الأرض في الإسلام "

برنارد لويس

الفصل الأول
التجارة العالمية

الفرع الأول

المبحث الأول:

نصوص الكتب الدينية

مصر مغدى ومراح لجيرانها منذ عصورها الأولى وفيهم الأنبياء، وإليك بعض الأمثال:

جاء في سفر التكوين بالتوراة (الإصحاح ١٢) تحت رقم ١١: [وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام (إبراهيم) إلى مصر ليتغرب هناك] وتحت رقم ١٣ أنه قال لامرأته سارای: (قولى: إنك أختى ليكون لى خير بسببك) وتحت رقم ١٥ - ٢٠: (ورآها رؤساء فرعون، ومدحوها لدى فرعون، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، وصنع بأبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتُنٌ وجِمَالٌ، فضرب الله فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب سارای امرأة أبرام. فدعا فرعون أبرام، وقال: ما هذا الذى صنعت؟ لماذا لم تخبرنى أنها أمرأتك؟ لماذا قلت: هى أختى حتى أخذتها لتكون زوجتى؟! والآن هو ذا امرأتك، خذها واذهب. فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له).

وفي الإصحاح ١٣ تحت رقم ١ - ٤: (فصعد أبرام من مصر - وكل ما كان له، ولوط معه، إلى الجنوب، وكان أبرام غنياً جداً في المواشى والفضة والذهب).

وتحت رقم ١٥: (ولوط القادم مع أبرام كان له أيضا غنم وبقر وخيام، ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معا، فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشى أبرام ورعاة مواشى لوط..).

وتحت رقم ١٠: (فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن جميعها سقى قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة كجنة الرب: كأرض مصر).

وتحت رقم ١٤: (وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لوط عنه: ارفع عينك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالاً وجنوبا وشرقاً وغرباً؛ لأن جميع الأرض التى ترك لك أعطيها ونسلك إلى الأبد..).

فإبراهيم ولوط قد استثمرا استثماراً صالحاً في أرض مصر.

وفي الاصحاح السادس عشر: أن (أبرام تزوج هاجر المصرية فولدت له إسماعيل بن أبرام).

وفي التاسع عشر أن الله قال لأبرام: (وتكون أباً لجمهور من الأمم فلا يدعى اسمك بعدُ أبرام بل يكون إبراهيم؛ لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم، وأثمرك كثيراً جداَ، وأجعلك أُمماً) وقال: (سارة امرأتك تلد لك ابناَ اسمه إسحاق) وقال: (وأما إسماعيل فأنا أباركة وأثمره وأكثره كثيرا جداً، اثنى عشر رئيساَ يلد، وأجعله أمة كبيرة).

ومن بعد إبراهيم أبى الأنبياء جاء يوسف - عليهما السلام - في عهد الهكسوس وقد تحدثت عنهم الملكة حتشبسوت ملكة مصر بعد انقضاء دولتهم، حيث قالت: (لقد أصلحت الخراب، وأتممت ما كان ناقصاً قبل مجئ الآسيويين إلى هوارةً وعرةً في أرض محافظة الشرقية بمصر" وكان منهم يومئذ من الهمج من وجهوا جهدهم إلى تخريب العمائر جهلاً منهم بوجود رع) ورع: هو الإله.

أما يوسف فألقاه إخوته في الجب حسدا، لميل أبيه يعقوب إليه، والقرآن الكريم يحدثنا حديثة في قول الله - تعالى -: ﴿وجاءت سيارة[٢٢٦] فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون. وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾[٢٢٧] وفي مصر باعت السيارة يوسف.

وقاد يوسف جهود اقتصاد الدولة واتجر مع ذويه واستوفد الرسل.

ثم وُلد موسى - عليه السلام - في مصر ليصير نبياً يكلفه الله بدعوة فرعون: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى، فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى﴾[٢٢٨].

والقرآن يقص أحسن القصص، ويفصل عمل بنى إسرائيل مع موسى، ويذكر اسم مصر فيمنحها ما لم يمنح غيرها من الكرامات.

بل إنك لتقرأ القسم العظيم من القرآن العظيم بالأرض المقدسة في سورة التين بطور سينين، ويضاف إليه قسم مثله بالطور في سورة (الطور) وما تزال مصر وفية بتكاليف رسول الله ﷺ لها بالدفاع عن الإسلام بالجند وبالعلم إلى يوم القيامة.

وكما كانت بمصر جالية عبرانية وجدت فيها جالية للإغريق تخدم تجارة مصر مع جزر البحر الأبيض وشاطئه الشمالى.

ولما فتح الإسكندر المقدونى مصر في القرن الرابع قبل الميلاد قصد إلى معبد آمون في سيوة وترك حكاماً من الإغريق تمصروا، وانتهوا بكليوباترا حتى غلب عليها قياصرة الرومان.

---

(٢٢٦) سيارة: قافلة

(٢٢٧) سورة يوسف الآيتين ١٩، ٢٠

(٢٢٨) سورة النازعات الآيات من ١٧، ١٩

ومنذ الدولة المصرية الأولى التى بنت الأهرام من خمسة آلاف عام كانت مصر تستورد الأخشاب من لبنان، وقد أحوجها إليها التشييد الضخم الذى تشهد عليه آثاره.

وسنرى المصريين يستوردون الأفاويه والتوابل من وسط أفريقية من بلاد بونت (الصومال) عن طريق البحر الأحمر، مع عبور شاطئة إلى اليمن.

وللمسلمين عهد بالحبشة من أول نزول الرسالة الخاتمة بالهجرتين الأولى والثانية إليها في السنوات السابقة على قيام الدولة بالمدينة، والمؤكد أن النجاشى ملك الحبشة قد دخل في الإسلام، ولما مات صلى عليه الرسول عليه الصلاة والسلام.

وحديث فرعون في القرآن الكريم طويل، وفيه وفي غيره الكثير عن مصر كدولة، وعن التجارة فيها، في حين لانجد في قصص القرآن أو في آياته الأخرى دولة كمصر، وظهور أصحاب الرسالات فيها أو على أديمها لينجوا من المجاعة كإخوة يوسف وأبيهم وإبراهيم ولوط، أو لِواذا بالأمان فيها كالسيد المسيح وأمه، بل ضرّب القرآن مثلاً للذين آمنوا أمرأة فرعون واقتصار كل ذلك على مصر يكشف لنا عن مكانتها[٢٢٩].

ومن آثار ذلك مرنت مصر على التعايش مع الجاليات من آسيا وأوروبة وعلى الوافدين منهم إليها.

---

(٢٢٩) في ترحيب شوقى (بهول كين) يقول له عن مصر:

هول كين مصر رواية لا تنتهى ∴ منها يدُ الكتاب والشراح

فيها من البردى والمزمور والتـوْ ∴ راة والفرقـان والإصحاح

فالبردى نبات صنع منه الفراعنة الورق والمزمور: مزمار داود، والتوراة: كتاب اليهود.

والفرقان هو القرآن، كتاب الإسلام، والإصحاح: يقصد به الإنجيل للمسيحية.

المبحث الثانى:

في الجاهلية

في جزيرة العرب كانت رحلتا الشتاء والصيف اللتان حدثنا عنهما القرآن الكريم في سورة قريش ﴿لإيلاف قريش ۞ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ۞ فليعبدوا رب هذا البيت ۞ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾[٢٣٠] إذ كانت جزيرة العرب تسهم في تجارة الشمال والجنوب بين الشام والحبشة عن طريق مكة واليمن، وبين مكة وفارس. والروم والأحباش أمتان مسيحيتان تتواصلان بقوافل عربية دائبة يمتهن رجالها حرفتى النقل والتجارة، كما تسير القوافل إلى فارس، وللعرب فيها نصيب، يتصارعون عليه.

ومكة بنشاطها الثقافي والتجاري، وموقعها الجغرافى، ومقامها الدينى، نواة دولة كالجمهورية دون أن تعلن، ككثير من مدن العصر الوسيط في أوربة، تحدث عن تجاراتها من نحو سبعمائة عام قبل الإسلام المؤرخ (سترابون) وهو جغرافى رومانى ولد في عام ٥٨ قبل ميلاد المسيح فقال: (إن من القوافل التجارية ما بلغت عيره ألفا وخمسمائة) ولا يمكن أن تبلغ العدد المشار إليه إلا أن تضرب جذور نشاطها في القدم. وفيه دلائل على العلاقات الطيبة بين القبائل الضاربة بخيامها أو المقيمة بقراها في الطريق أو على جنباته. وعلى فضائل هذه القوافل من أداء الأمانات، وصدق الكلمة، وحدة الذكاء آلت إليهم أو إلى الكثيرين منهم ثروات يتحدث عنها التاريخ.

وكانت قوافل التجارة مألفا لرسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ولا ريب كان خروجه فيها مرة بعد مرة مع عمه أو بمال أم المؤمنين خديجة تدريباً للرسول الخاتم على أن يتعامل مع من عدا قريشاً أو العرب.

---

(٢٣٠) سورة قريش الآيات من ١ – ٤.

ولم تمض سنوات على وفاة رسول الله ﷺ حتى رأينا تجارا أجانب وافدين على دار الإسلام ببضاعتهم في خلافة أمير المؤمنين عمر، حيث أخذت أموال الفتوح تنصب في ديار الإسلام، فأمر عمر بأن يعاملهم المسلمون بمثل ما يعاملون المسلمين في ديارهم، فأخذوا منهم العشر كما كانوا يعشرون تجارة المسلمين.

وفي عهد الرومان كان المصريون يأخذون المكوس من التجار الوافدين من وراء ذلك الجانب من الحدود.

ويدلنا على قيمة التجارة الواردة من الخارج اهتمام أمير المؤمنين على ابن أبى طالب بتجار الخارج.

وضرب أمير المؤمنين عمر عملة دراهم يتعامل بها المسلمون مع الدراهم اليونانية وسكَ أمير المؤمنين عثمان عملة دنانير في مقابل الدنانير الفارسية.

وسترى عبد الملك بن مروان يسك عملة تحل محل الدينار (الفارسى) والدرهم (اليونانى) إذ كانا مقبولين في ديار الإسلام منذ الجاهلية، وأقر الإسلام التعامل بهما.

وسنرى التجارة الخارجية تزداد مع الغزو الصليبى لبلاد المسلمين على مدى قرنين من الزمان (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين/ الخامس والسادس الهجريين).

ثم أصبحت مياه البحر الأبيض طريقا مألوفا إلى جمهوريات جنوة وأمالفى والبندقية (فينيسيا) لسفائن رائحة غادية بالتجارة مع الموانى العربية في المهدية، والقيروان بأفريقية والاسكندرية، وتنيس بمصر.

ووجدنا دولة الفاطميين بمصر مسيطرة على الاقتصاد في تجارة الخارج كما سيطرت في الداخل، فتملك (الخليفة الفاطمى) الحوانيت، وأصبح للدولة

في ثغر "تنيس" ألف سفينة تجوب الشواطئ بتجارات مصر وسلعها والسلع المنقولة لأهل آسيا أو منها ومن أوروبة أو إليها على سفائن مصرية.

والقلقشندى يحدثنا في صبح الأعشى في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى) عن تنيس فيقول: (وفي بطن الريف "دلتا النيل" سبع كور "بها" كورة (تنيس ودمياط).. والجارى على الألسنة الآن أنها كانت مدينة عظيمة طغى عليها الماء قبل الفتح الإسلامي بمائة سنة، فأغرق ما حولها وصارت بحيرة - وهى الآن قرية صغيرة في وسط البحيرة، والماء يحيط بها.. وكانت تربتها من أخصب الترب، وبها تحاك الثياب النفيسة التى ليس لها نظير في الدنيا...).

وظاهر أنها كانت على قيد كيلو مترات من دمياط، وقد طالما حاول الصليبيون أن ينزلوا في شواطئها.

وذكر السيوطى (٩١٢) في كتابه (كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة) أن زلزالا وقع بتنيس سنة ٢٤٥هـ قبل سقوط دولة ابن طولون وقيام الدولة الفاطمية.

المبحث الثالث:

البحران الأبيض والأحمر بحيرتان إسلاميتان

المسلمون في الأندلس وجزرها (غرب البحر الأبيض) من آخر القرن الأول سنة ٩٣هـ (الثامن الميلادى) وفي جنوب فرنسا، ثم فتح قاضى القيروان أسد بن الفرات صقلية سنة ٢١٢هـ في القرن التاسع الميلادى.

ولم يتوقف المسلمون عند الأندلس أو صقلية أو فرنسا، بل حاولوا الاستقرار في إيطاليا فرأيناهم في مدينة "بارى" الحالية بعد سنوات قلائل، وفي القرن التاسع ذاته وجدناهم في روما عند كنيستى القديس بولس والقديس

بطرس. ويحدثنا ابن حوقل عن التجارة البحرية للدولة الفاطمية مع كامبانيا ومع جمهورية أمالفى وسالرنو في جنوبى شبه الجزيرة الإيطالية وفيها أسس قسطنطين الأفريقى مدرسة للطب يتولاها الأساتذة العرب.

وبعد عام ١٠٠٠ ميلادية كان تأثر البابا سلفستر بالعرب الذين تلقى عليهم العلم في الأندلس يظهر رويداً رويداً في الأرقام العربية التى نقلها الأوروبيون لتحل للآن محل اللاتينية، وما تبع ذلك من اقتباس علامة الصفر لتكون من قواعد الرياضيات العالية، ووجدت اللغة العربية سبيلها إلى الشعر والتجارة، والحرب والسلام، فتجد ألفاظ (الجبة والقفطان والشركة والبردة ودار الصناعة "أرسنال") والمئات أو الآلاف من آثار العرب وإصرارهم على أن يدخلوا أوروبة بالعلوم من الجنوب في إيطاليا مثلما دخلوها عن طريق الغرب في قرطبة وقشتالة وغرناطة وسواها عن طريق الطلاب الوافدين من كل إقليم أوربى كما مر بنا.

وفي هذا القرن – العشرين للميلاد – يحدثنا مؤرخ بلجيكى معاصر هو بيرن عن القرن السابع الميلادى (الذى ظهر فيه الإسلام) أن هذا القرن شهد تغييرات في البلدان الواقعة على شواطئ "البحر المتوسط" في مصر وأفريقية (تونس) والمغرب حتى صارت في القرن التاسع ختاماً للتاريخ القديم وبداية للعصور الحديثة، وأن الإسلام ختم عصر الظلام وافتتح الفجر الجديد للعالم. ومن مقولاتة المنقولة عن السابقين: (لولا محمد لما كان شارلمان) أى: أن ظهور الإسلام أحدث تجميع أوروبة في أمبراطورية شارلمان في السنوات الأخيرة من القرن الثامن الميلادى.

وفي العصر المشار إليه كانت كريت وصقلية وقبرص ومالطة وجزر الأندلس تتغنى بحضارة العرب بعد إذ أحاط جيش مسلمة بن عبد الملك بالقسطنطينية لمدة عامين كما ظلت كريت في حوزة العرب نيفا وقرنين من

٧٢٧ إلى ٩٦١م ومثلها جزر غرب البحر الأبيض. وحصار القسطنطينية في القرن الثامن الميلادى، يصور لنا سيطرة كاملة على البحر الأبيض في الشرق مثل السيطرة التى سبقتها في الغرب.

في هذه الأماكن من إيطاليا واليونان ثم القسطنطينية بعد فتحها للإسلام في القرن الخامس عشر الميلادى سلم المسلمون الأرض للناس ورفعوا عنها يد الكنائس وأدخلوا إليها زراعات لا تعرفها أوروبة. ونشطت اقتصادياتها، بتجارات العرب وتجارات الشاطئ المقابل في أوروبة بالحبوب وبالقطن وبأصناف الفاكهة متجهةً من الجنوب إلى الشمال، وبالأخشاب والفاكهة متجهة من الشمال إلى الجنوب. ومن المؤرخين من يقول عن صقلية في هذه الفترة: (إن الفترة العربية تظل بالفعل أعلى قمة وصلتها صقلية)[٢٣١].

وفي مصر مجمع القارتين آسيا وأفريقيا عن طريق القوافل. والبحر الأحمر يجمع مصر وجزيرة العرب حيث الميناءان عيذاب وجدة. والجمال تنقل السلع إلى قوص أو منها في شمال عيذاب، أو تنقل من عيذاب لتتخذ السلع طريقها إلى الفسطاط.

وكان فندق "الكارم" بالفسطاط نزلا للتجار الأجانب.

ثم حلت ميناء الطور (في سيناء) محل عيذاب تقصد إليها السفن من اليمن، ثم غلبت السويس على ما عداها من الموانى في البحر الأحمر بالتجارات الواردة إلى القاهرة من الشرق. وكانت المكوس تدفع في قرى الطريق للدولة أو للأمير صاحب الاقطاع، ثم ألغى صلاح الدين مكوس الفاطميين لما كان فيها من غلو، فتقاطرت التجارات من أوربة وإليها.

---

(٢٣١) صقلية الآن بعد نيف وألف عام من عودتها إلى الجانب الأوروبي هى جزيرة الجرائم العظمى وعصابات المافيا التى تسببت في تغيير النظام السياسي الإيطالى كله.

أما عن الشرق الأقصى ففي سنة ٨٢هـ/ نحو ٧٠٠م كان ميناء كانتون الصينى مفتوحا للعرب، وفي سنة ٨٩هـ فتحوا بخارى، وفي سنة ٩٣ فتحوا سمرقند، وفي سنة ٩٤هـ فتحوا كشغر على حدود الصين، ومنذئذ تواصل أهل هذه البلاد والعرب.

وفي أواخر القرن الثانى الهجرى (أوائل التاسع الميلادى) كان العرب قد استقروا في ميناء خانفو جنوبى شنغهاى في شمال شرق آسيا، ولهم قاض مسلم، كما استقر العرب في ملقا وجاوة في جنوب القارة يجلبون عطور الصين، وتوابل الهند، وبعد أن وصلوا إلى نهر سايحون في الصين كانت تجارتهم تمر بهضبة التبت: الحرير من الصين، واللؤلؤ من عيذاب، والياقوت والماس من سرنديب (سيلان) وجلود الثعالب (الفراء) من روسيا.

وأما بلاد الروم (أوروبة) فمنها الجلود و"الرقيق" فلقد كانت بلاد الروم تبيع الرقيق الأبيض للمسلمين، ولم تضمحل التجارة العربية مع الصين عن طريق فارس إلا بعد أن اشتهرت "مرو" بتجارة الحرير، فالحرير من خراسان، والنسيج الملون من قشمير (كشمير) والمسك والدارصينى من الصين، والعطر من اليمن، والمصوغات من فارس، والخيزران والكافور والقرنفل والثياب القطنية والتيلية من الهند والسند.

وكانت زراعات العرب أعظم الزراعات، لقد قدم أحد ولاة الرشيد إليه بين (١٧٠ – ١٩٣) في أواخر القرن الثاني الهجرى وآخر القرن الثامن الميلادى عنقودين من العنب محملين على بعير!! وكان أهل فلسطين يلقحون الكروم كما يلقح النخيل بالطلع!!

وما يزال اسم الحرير باللغات الأوربية وصفاتها "موصليا" من الموصل أو "دمشقيا" من دمشق، أما مصر فمشهورة بالورق الذى تنتجه مصانع البردى، وبملابسها (القباطى) نسبة إلى القبط، وبصناعة السفن والأدوية.

وفي بغداد مصانع الزجاج والخزف. وبالشام صناعة الزجاج المطلى بالميناء لمجتمعات الرفاهية حيث الجدران تغطى بالديباج، والتجارات العالمية مستمرة مع الحرب الصليبية المستمرة!.

يقول المؤرخ الفرنسي المعاصر بريفو: (كانت أوروبة في القرنين الحادى عشر والثانى عشر تتجه إلى العرب باحثة عما استجد عندهم من الصناعات والعلوم .. بل إن الكنيسة نفسها كانت تلتمس عندهم ما يعينها على إقامة صرح الفكر المدرسي..).

ومن قديم صرح روجير بيكون (١١٩٢) (بأن وجود الفكر الأوروبي والعلم الأوربي كان مستحيلا لولا وجود المعارف العربية، لقد دعيت أوروبة فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت في ظلمات الجهل قرونا خمسة).

ويقول برتراند رسل في منتصف هذا القرن العشرين: (حمل العرب مقاليد المدنية طوال عصور الظلام، وإليهم يرجع الفضل في أن بعض المسيحين من أمثال روجير بيكون قد حصلوا على كل المعارف العلمية التى تهيأت للشطر الأخير من العصور الوسطى).

وروجير بيكون أحد الآباء الأولين للفكر في إنجلترا.

في القرنين الحادي عشر والثانى عشر جاء شذاذ الآفاق من كل أمم أوروبة مستجيبين لصيحات البابوات والرهبان لسفك دماء المسلمين في بيت المقدس.

وأنشأ "اللوزانيون" دولة تجوب سفائنها البحر إلى أوروبة بالصادرات العربية، حتى إذا عادت القدس إلى أصحابها استمرت سفنهم تجوب البحر بتجاراتهما بين المسلمين وبين أهل أوروبة.

وترى ذلك واضحاً على الرغم من محاولات كتاب جديد يحمل العنوان القديم (تراث الإسلام) يحاول فيه المستشرقان (شاخت وبوزورث) طمس

المعلومات التى أوردها المستشرقون الأولون الذين كتبوا كتابا بعنوان "تراث الإسلام" ترجم إلى العربية في الأربعينات من القرن الحالى بالتشكيك فيما ورد في الكتاب السابق[٢٣٢] مستخلصا من المراجع الأوروبية والعربية.

ومع ذلك جاء في الكتاب الأخير: (أثناء الحروب الصليبية ١٠٩٥ – ١٢٩١) استقر التجار – خصوصاً الإيطاليون – في مرافئ تحت الحكم اللاتينى، فشكلوا جماعات منظمة تحكمها قوانينهم، بل على العكس كان الحكام المسلمون حريصين على تشجيع هذه التجارة.

ولم تنقض فترة طويلة حتى ظهرت مستعمرات للتجارة الأوربية حتى في مصر (التى تجرى على ثراها الحروب الصليبية) وفي أماكن أخرى لم يسبق لها أن خضعت للصليبين كانت الترتيبات مع المستعمرات الأوربية من وجهة نظر الفقهاء المسلمين نوعا من أنواع (الأمان) التقليدى، وكان للتجار المقيمين صفة (المستأمن).. وفي الوقت الذى ازدهرت فيه التجارة الأوروبية ونمت تعرضت الأسلحة الأوربية للهزائم فقد طرد الصليبيون من جميع البلاد التى احتلوها).

وجاء عن الغزو التركى لأوروبة: (لم يكن اللاجئون المسلمون واليهود والمسيحيون هم المستفيدين الوحيدين من الحكم العثمانى، إذا أن الفلاحين في المناطق التى غزوها قد تمتعوا بتحسن في أوضاعهم: فقد جلبت الحكومة العثمانية الوحدة والأمن محل الصراع والفوضى، كما ترتبت نتائج اجتماعية واقتصادية هامة، وقضى على الأرستقراطية المالكة للأراضى).

(٢٣٢) قدم المترجمون للكتاب الأخير دلائل على ما ننسبه إلى هذين المؤلفين من تشكيك يدركه من قرأ الكتابين، وليس هنا مقام لبيان ذلك، ونرجو أن يتصدى لذلك المتخصصون، وقد نبه المترجم على ذلك في الجزء الأول، كما نبه عليه المترجمون للجزأين الثانى والثالث.

حتى مارتن لوثر "مؤسس البروتستانتية" في مؤلفه الذى نشر عام ١٥٤١ قد حذر من أن الفقراء والمضطهدين يفضلون - على الأرجح - الأتراك المسلمين بدلاً من المسيحين ويكفى أن نعرف أن الأرز والقطن وقصب السكر... أصبحت جزءاً من الزراعة الأندلسية... منذ القرن العاشر الميلادى.

وجاء عن مصر (تكمن أهمية مصر في الجمع الفريد بين عدد من العوامل مكنت مصر من تصدير فائض زراعى كبير وبين حاجتها إلى الأخشاب تستوردها، وإلى المعادن كذلك).

وجاء عن التجار الذين نقلوا الإسلام إلى آسيا وأفريقية (وقد كان لهؤلاء "التجار الأوائل" من المسلمين تأثير قوى في المجتمعات، تضفى عليهم ثقافتهم واتصالاتهم التجارية، حتى صيروا الإسلام عقيدة وعلما وسلاحا..).

وجاء في هذا الكتاب عن تجارة الأتراك: (وقد سبق العرب أنفسهم إلى هذه التجارات في دولة بنى حمدان بحلب، وكما كانت السفن تنقل الحبوب (القمح) من الجنوب إلى الشمال كان العثمانيون (تركيا) يبيعون إلى أوروبا الذرة، ورأينا وزيرا عثمانيا سنة ١٥٥١ يبيع حمولة سفينة من الذرة إلى البندقية في جنوب إيطاليا، وكمثلهم صنع المماليك بمصر، وكانت تجارتهم مع أوروبا نافقة... يشترون منها الرقيق - من الجنوب في روسيا- ليربوه ويجندوه ويحاربوا به، بل يصل بعض هؤلاء إلى أن يكون حاكم البلاد أو ملكا عليها).

وسنجد النقود الإسلامية في أقصى الأرض من شمال أوربة.

الفرع الثانى
الوكالات الأجنبية والقيساريات

المبحث الأول:

الوكالات الأجنبية والقيساريات

وتدل الصورة الفقهية لعقد القراض وانتقالها إلى صيغ التعامل في أوروبة، وعملية التحويل الدفترى المضمون بورقة (السفتجة) وهو لفظ عربى قيل إنه تحريف لكلمة فارسية، وربما كان تحريفا للفظ Sauvetage بمعنى الإنقاذ البحرى وسعوا مضمونه ليشمل ضمان نقل الحق. وبكل منهما يظهر التأثير الإسلامي على الممارسات التجارية في دول البحر الأبيض المتوسط، ومثلهما انتقال ألفاظ كثيرة جدا تجل عن الحصر مثل لفظ (عوار) ولفظ (تعريفة) ولفظ (ديوان) ولفظ (أميرال بحار) ولفظ (دار الصناعة) ولفظ (حبل) ولفظ (قيراط) ولفظ (مخزن) ولفظ (الحوالة) إلى لغة المعاملات التجارية هنالك.

والمعاملات التجارية بعض المعاملات، لها مكانها في فقه الفقهاء، مثل كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالى (٥٠٥هـ) ومن قبله بقرنين وضع الجاحظ رسالة في التجارة، ومن بعده بقرنين تكلم ابن خلدون عن النقل الزمانى (الاختزان) والنقل المكانى، أى النقل بين الأسواق كما تحدث عن الاحتكار، وانتقد "الدولة التاجرة" وأبرز رفعة شأن التجارة، ودعا الحكام إلى إكرام التجار.

كما عرف الفقه الإسلامي نظام التفليس من قديم، وأصل الإمام الشافعى (٢٠٤هـ) أصوله في الأم. وللإمام مالك أقواله في "طرح البحر" من أول

القرن الثانى. وللإمام أبى حنيفة في الموضوع أقوال معاصرة لقول مالك. وكل أولئك مسائل في قوانين التجارة.

وكان بمصر لكل جالية أجنبية فندق في الثغور وفي العاصمة. وفي عهد الدولة الفاطمية وعد الخليفة العاضد أهل "بيزا" بترميم فنادقهم، مما يدل على وجودها في القرون السابقة، ويدل على ذلك أن صلاح الدين وقد انهى حياة الدولة الفاطمية اتفق مع مندوب "بيزا" على السماح لأهلها بممارسة شعائرهم.

كما ورد في كتاب (أخبار مصر) لابن ميسر، وفي (خطط المقريزى) بيان عن رقابة التجار.

وكان لتجار الروم (أهل أوروبة) حى خاص بهم في مدينة القاهرة، وصرح صلاح الدين لهم بممارسة شعائرهم، واستعمال موازينهم، ومكاييلهم ومقاييسهم في البيع والشراء من المصريين وغيرهم مما يدل على أن ثمة سوقا يؤمه المصريون، وغيرهم.

وفي ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ دخل صلاح الدين الأيوبى بيت المقدس.

كانت الفنادق محال لإقامة التجار بمتاعهم، وبضائعهم، وفيها كنائس لإقامة شعائرهم، وأفران لخبزهم، وحمامات لتوفير الخدمة الكريمة لهم، وأماكن يتبذون فيها، كما خصصت فنادق لتجار الشام والعراق.

و"القيساريات" معناها "الفنادق القيصرية" نسبة إلى قيصر الروم، وهى السوق الرسمية.

والقيسارية خان عظيم تغلق أبوابه بالحديد، تطيف به الحوانيت كما وصفها ابن ميسر في (أخبار مصر) وقد يكون فيها مساجد للتجار المسلمين، يعلوها ربع أو رِباع يسكن فيها الصناع والتجار، وكانت وكالة الغورى الشاهقة بحى الأزهر - الآن - واحدة من أمثال لها في ضواحى الفسطاط والقاهرة.

وكان في السوق لكل صناعة عريف يتولى أمرها، وتحمل السوق اسم الصناعة أو التجارة الخاصة بها كما أورد المقريزى في (إغاثة الأمة) (وعلى العريف أن يحضر الصنائع ويختم المصنوعات وله أن يأمر الطهاة بتغطية الآنية وحفظها من الذباب والهوام بعد غسلها بالماء الساخن.

وفي السوق "محتسب" يولى العرفاء من الخبراء بالسلع وبالغش، وكان العرفاء مشهورين بالأمانة يطلعون المحتسب على أخبار من يشرفون عليهم يوما بعد يوم، وعلى السلع المجلوبة وعلى حركات السوق، وأسعار البضائع من الداخل والخارج.

وإذا غش تاجر أو صانع أركبوه جملاً وطافوا به وهو يصيح: لقد غششت فعوقبت.

ومن السلع ما لا يباع إلا على يد دلال. ويثبت الصفقات موظف مختص في السوق، كما يثبت قيمتها والدلالين والمنادين عليها، ولا ينبغي لأحد منهم أن يزيد في السلعة من تلقاء نفسه، فذلك متروك للبائع والمشترى، ولا أن يقبض ثمن سلعة دون أن يكون موكلا بذلك من صاحب الشأن).

ولما كشف البرتغال طريق الهند تغيرت الطريق إليها، فلم يبلغ القاهرة في سنة ١٥١٢م من تجارة جمهورية البندقية (فينيسيا) إلا ما قيمته ٨٠٠ ألف دوكا، وعشرين ألفا من النقد.

المبحث الثانى:

فنادق القاهرة للتجار الأجانب

في الأسكندرية والقاهرة كانت الفنادق الخاصة بالتجار الوافدين من الشاطئ الشمالى للبحر، وينقل إلينا كتاب (تراث الإسلام) الأخير (أن فنادق الأسكندرية لم تكن مثل تقراطيس القديمة، "مدينة خاصة بالإغريق منذ القرن

الثانى قبل الميلاد" قريبا من الأسكندرية في محل أطلال نقراش بمحافظة البحيرة الآن "مركز قوة تجارية" ومن الجدير بالملاحظة أنها كانت منذ القرن الخامس عشر "الثامن الهجرى" تقفل ليلا من الخارج، وأن نظاما خاصا بالتجار الأجانب كان متبعاً في بيع بضائعهم إلى السلطات مباشرة في مزادات رسمية، وأن نظام الرسوم الجمركية كان غالبا في المعاملات بمصر، وأن هذا الوضع كان يعكس مزيجا من البيروقراطية والقوة العسكرية، وأن النفوذ الأساسي للتجار الغربيين لم يكن للقوة العسكرية التى تسندهم، وإنما كان اعتماداً من الحكومة المصرية عليهم من أجل الوفاء بحاجاتها من البضائع الاستراتيجية الأساسية).

وفي هذا السياق نسمع عن اشتراك اثنين من اليهود مع مسلم في تجارة مرسيليا مع سبتة في (المغرب) في القرن الثالث عشر... كما وجدت جماعة من التجار الشرقيين من أصول مختلفة بسجلات الشهر العقارى بجنوا (إيطاليا) في منتصف القرن الثانى عشر الميلادى.

يقول المرجع المشار إليه: وإذا اتجهنا شرقا من جزيرة العرب فسنجد المقدسى الجغرافى (٩٨٥) يحدثنا في القرن الرابع الهجرى "العاشر والحادى عشر الميلادى" أن الفراء والخشب كانت ترد إلى المسلمين، كما تنبئنا الحفريات عن وجود العملة السامانية (الغالبة على حكام بغداد إذ دخلوا في الإسلام) في اسكنديناوه وأيسلنده في شمال أوروبا.. أما طريق الحرير إلى الصين فيشق قلب آسيا (دول الكومنولث) الروسية الآن.

وفي بداية القرن الحادى عشر اعتنق السلجوقيون الإسلام بعد أن دخلوا أرضه، وفي القرن التالى اعتنق التتار الإسلام أيضاً.

وفي الهند ظهرت اللغة (الأردية) وهى مزيج من العربية واللهجات الهندية، وصدرت (الفتاوى الهندية) وهى مجموعة فقهية متبعة الآن يحتج بها

رجال القانون في المحاكم في مصر، تحتوى على الفقه الحنفى.

وجاء في كتابنا عن الإمام الشافعى[٢٣٣]: (وكان "خان مسرور" فندقا بين فنادق كثيرة بالقاهرة، به وحده ١٠٠ حجرة، يقصده تجار سوريا، وكان بالقاهرة وكالات تجارية، منها وكالة "قوصون يخزن بها السوريون بضائعهم، رأى فيها المقريزى في القرن الخامس عشر الميلادى" أربعة آلاف إنسان يعيشون فيها.

وفي عصر حروب صلاح الدين (٥٦٥ - ٥٨٩هـ/ ١١٦٩ - ١١٩٣م) كان بالإسكندرية في شتاء ١١٨٧ - ١١٨٨م سبع وثلاثون سفينة تجارية قادمة من الجمهوريات الإيطالية وغيرها من الدول الأوربية تحمل تجارات أوروبة والشرق وهو العام الذى دخل فيه بيت المقدس.

وأذن الملك العادل (٥٨٩ - ٥٩٥هـ) أخو صلاح الدين، وأبو الملك الكامل (٦١٥ - ٦٣٥هـ) لأهل البندقية (جمهورية فينسيا الإيطالية) أن ينشئوا فندقا لتجارتهم في الإسكندرية، وصار لهم فيها قنصل، واستطاعوا فيما بعد أن يضمنوا مائة ألف جنيه استرلينى فرضتها مصر لإطلاق سراح ملك قبرص عندما أَسَرَتْهُ.

وذات يوم دفعت سفينة واحدة ٢١ ألف جنيه استرلينى مكوسا على حمولتها بالإسكندرية ومن قبل ذلك في عهد المستنصر الفاطمى (٤٢٧ - ٤٨٧هـ) وفي القرن الحادى عشر الميلادى قرر ناصرى خسرو أن الخراج اليومى بمدينة "تنيس" وحدها ألف دينار، وأن بساحلها دائما ألف سفينة بعضها للتجار، وبعضها للسلطان. كما قرر أنه رأى بالقاهرة عمارات تبلغ أربعة عشر طابقا، وأن بالقاهرة ٢٠٠٠٠ دكان يملكها الخليفة الفاطمى، أجرة الواحد

(٢٣٣) طبعة دار المعارف بالقاهرة

منها بين دينارين وعشرة دنانير مغربية، دعك من سائر الناس والبلاد وشتى مصادر الإيراد من زراعة ذائعة الصيت، وتجارة عالمية، وصناعة هى مفخرة العصور الوسطى في بلدان العالم.

ولم يتضاءل المورد الخارجى إلا بعد تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨م ولم تضمحل ثروة البلاد إلا بعد احتلال الأتراك لمصر سنة ١٥١٧م.

المبحث الثالث:

المستشرقون وتأثير التشريع الإسلامي في أوروبة

يقول "شاخت" في القسم الثالث من كتاب (تراث الإسلام) الأخير في مقال تحت عنوان "الشريعة الإسلامية" وهو كسائر الأجزاء قد أتعب المترجمين تصحيحاً في الهوامش – ما يأتى:

(أما تأثيرات التشريع الإسلامي على القوانين الأخرى فإنها لايمكن أن تُبارى من حيث الأهمية، فمجرد وجود هذا التشريع...[٢٣٤]، وأعظم هذه

---

(٢٣٤) ومن تعليقات المترجمين على هذا الكلام قولهما: (العبارة في الأصل غير واضحة، ولعل المؤلف يقصد بها أن مجرد وجود التشريع الإسلامي، باعتبار أنه يستند إلى حكم الله يجعل له التأثير الكبير بالنسبة لأى تأثير ممكن تحدثه الشريعة على القوانين الأخرى) والمقال من عشرين صفحة بالحجم المتوسط، للمترجمين – عليه وحده – نيف وأربعون هامشا بين تفسير أو تصحيح، وفي بعضها تخطئة، كأن يقولا: (هذا مخالف للحقيقة) في صدد كلامه عن ولاية الحسبة وولاية المظالم أنهما أمر واقع لم يردا في الشريعة. وقد أسلفنا أن النبى ﷺ عين المحتسب وتبعه في ذلك عمر بن الخطاب والدول الإسلامية، كما كانا يحاسبان عمال الدولة بصرامة عن الغلول والثراء الطارئ.. أو يقولان: (وقول "شاخت".. فيه تجاوز للحقيقة).

=

التأثيرات لم يأت من التشريع الإسلامي بالمعنى الدقيق، بل جاء في القانون التجاري المتعارف عليه، ونما في ظل التشريع الإسلامي، فالعديد من أنظمة القانون التجاري انتقل في العصور الوسطى إلى أوربا عبر البحر الأبيض المتوسط، وقد اندمجت هذه الأنظمة في القانون التجارى والقانون المتعارف عليه في التجارة الدولية، والشاهد على ذلك مصطلحات، هى لفظ "المخاطرة" Mohatar ولفظ Aval كلمة "حوالة" العربية، أى: تحويل الديون.. وربما أيضا لفظ "شيك" جاء من الكلمة العربية "صك" وكلمتا Sensalis وSensal. جاءتا من الكلمة العربية (سمسار) وهناك احتمال قوى أيضا في أن تكون العملية المعروفة باسم Commande مشتقة من عملية القراض.

وهناك تأثير هام آخر.. حيث نجد أن المسيحين الذين استعربوا أخذوا يستعملون في وثائقهم وعقودهم الصيغ الفنية المتبعة في الوثائق الإسلامية، واحتفظوا بهذه الطريقة في مدينة طليطلة.. بعد أن استعادها النصارى عام ١٠٨٥/٤٧٨ وفي الطرف المقابل من البحر الأبيض نجد أن التشريع الإسلامي قد أثر تأثيراً عميقاً في جميع فروع القانون في إقليم الكرج (جورجيا السوفيتية سابقاً).. وأخيراً هناك تأثير التشريع الإسلامي على قوانين أهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى الذين شملهم تسامح الإسلام،

= أو يقولان: (هذا حكم لا معنى له ولا نعرف من أين جاء به "شاخت" ومن أسف أن اطلاعه على الأصول قليل جدا أو يقولان (المؤلف هنا يناقض نفسه) أو (يبدو أن المؤلف يشير هنا إلى..) أو (لعل المقصود هنا) أو (كلام المؤلف هنا يحتاج إلى إيضاح) وقد استفتحا هوامشهما بعبارتين تفيدان أن الدكتور أباريدة قد تفضل بمراجعة هذا القسم وقالا: بصراحة (الكاتب هنا يعبر بايجاز وبعبارات تلائم القارئ الأوروبي) والمستشرقون وفي طليعتهم "شاخت" يكتبون مالا يرضى عنه الله، - وينكرون على طريقتهم - حقائق الإسلام لملاءمة فكر القارئ الأوروبى.

وعاشوا في الدولة الإسلامية.

ويبدو أن موسى بن ميمون(*) قد تأثر ببعض ملامح المؤلفات الإسلامية في تنظيمه للمادة القانونية في مدونته(**).. ومن جهة أخرى فإنه من الجانب المسيحى ليس من شك في أن الفرعين الكبيرين للكنيسة الشرقية وهما اليعاقبة والمنوفيزيين والنسطوريين لم يترددوا في الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامي).

وربما أجزأ في بيان أثر التجارة في نشر الإسلام ما جاء في مقال مستشرق معاصر من أشد الدعاة مِحالاً ضد الإسلام في العصر الحالى هو بزنارد لويس حيث يقول في طبعة كتاب (تراث الإسلام) التى أشرنا إليها:

(الواقع أن ارتباط الإسلام بالتجارة كان هو السبب الرئيسى لدخول هذا العدد من شعوب الأرض في الإسلام.. كان لعامل التجارة الإسلامية الأثر الأكبر وقوافلهم العظيمة تجوب الصحراء).

المبحث الرابع:

أوربة تنقل قوانين التجارة عن العرب

رجعت فلول الصليبين المنهزمين واثقين من أن نصرة المسلمين عليهم مردها إلى الحضارة التى شهدوهم عليها وما فيها من تقدم في الصناعة والزراعة، والأسرة الوثيقة العُرىَ والمجتمع الذى ينبض بالطهارة والتكافل،

(*) الفليسوف اليهودى. واليهود يسمونه موسى الثانى

(**) وقالا بصراحة: (الكاتب هنا يعبر بإيجاز وبعبارات تلائم القارئ الأوروبى).
والمستشرقون - وفي طليعتهم "شاخت" - يكتبون ما لا يرضى عنه الله، وينكرون - على طريقتهم - حقائق الإسلام لملائمة فكر القارئ الأوروبى!.

ولم يكد ينقضى قرنان حتى نقلوا إلى اللاتينية العلوم العربية في جامعات أوربة، وظهرت دوافع الإصلاح الدينى، وتفاقمت نزعات الاضطهاد الكنسى للمصلحين.

وفي سنة ١٦٤٨ انقسمت أوربة بعد عشرات الأعوام من الحروب إلى قمسين بين الدول الكاثولكية والدول البروتسنتية بمعاهدة أعلنت الحرية الدينية.

هكذا سلخ العالم المسيحى من عمر الزمان قرونا عشرة بعد نزول الإسلام ليسلم – نظرياً – بما نزل به القرآن أنه (لا إكراه في الدين) ولتتردد في لغاتة مصطلحات المسلمين وكلمات اللغة العربية، ومنها قواعد التجارة، أمر بنقلها ريتشارد (قلب الأسد) ملك انجلترا وهو راجع من الشرق بعد صلح (حطين) مأخوذاً بما لمسه من سماحة المسلمين ونزاهتهم في حروبهم وتجارتهم، وقد بعث إليه صلاح الدين بطبيبه يعالجه عندما مرض، في حين رفض أبقراط أن يعالج عدوا لبلاده قائلا: (إن شرفى يمنعنى من أن أداوى عدوا لبلادى) وما يزال الأطباء يقسمون ما يسمى قسم (أبقراط) في أوربة بالتزام الأمانة الطبية.

وحقيقة نقل القوانين عن العرب تتردد أنباؤها عند المشرعين المسلمين، من فقة التجارة مع الأوروبيين الذى تتضمنه الكتب العربية والأوروبية، وتدل عليها ما سجلته محاضر لجنة القانون المدنى في مجلس الشيوخ بمصر بجلسة ١٩٤٨/٦/١م على لسان أستاذ القانون التجارى بجامعة القاهرة د. محمد كامل ملش:

(إن فضل الشريعة الإسلامية معروف. فهناك مثلا كتاب أصدره أساتذة جامعة أوكسفورد يسمى "تراث الإسلام" يقول إن فضل الشريعة الإسلامية على القوانين الأوربية عظيم لدرجة أننا أخذنا من الشرع الإسلامي كثيرا من القوانين الخاصة بالمعاملات التجارية والشركات التجارية، وفي مقدمة "ذلك"

شركات التوصية التى يسميها علماء الشريعة شركات القراض.. لقد تناولت الشريعة الإسلامية عدة مسائل اعتبر علماء الغرب أنهم كانوا أسبق إليها. ومن هذه المسائل مسألة سوء استعمال الحق، ونظرية مسئولية الدولة، وأكثر من ذلك التشريع البحرى الذى يعتقد كل إنسان أنه تشريع غريب عن البلاد نرى أن علماء الشريعة اشتغلوا به، ولا أقول هذا من عندى بل أنقله عن كتاب اثنين من كبار علماء البلجيك هما اسمسترش وفنكولونير، وأحدهما نقيب المحامين، والآخر مستشار بمحكمة النقض، وضعا كتابا سنة ١٩٣٨ سمياه (قانون البحر والنهر) قالا فيه:

(إن القوانين المعمول بها الآن في أوربا مأخوذة عن العرب وسندهما في أن ريتشارد "قلب الأسد" - ١١٩٩ - عند عودته من الحروب الصليبية وقف في جزيرة في المحيط الأطلسى اسمها جزيرة "أوليرو" وأمر من معه من الموثقين أن يدونوا جميع القواعد الخاصة بالتجارة والعادات البحرية التى نقلوها عن العرب وقت اشتغالهم بالحروب الصليبية)(٢٣٥).

ويؤيد ما ذكره المؤلفان في هذا القرن ما جاء في كتاب ليون كان ورينو في القرن الماضى بكتابهما Manuel de droit commereial الطبعة الثالثة ١٨٩٤ حيث جاء تحت عنوان: ثانياً تاريخ ومصادر القانون التجارى البحرى الحالى ما ترجمته قنصلية البحر - أحكام ملفات أوريلو Orelon دليل البحر.

قنصلية البحر: بيان بقواعد القانون البحرى المعمول به في البحر الأبيض المتوسط وترجع هذه التسمية إلى لفظة (قنصل) الذى كان يطلق من

---

(٢٣٥) في هذه الفقرة تأييد لما سبق من أمر ريتشارد (قلب الأسد) بنقل القواعد التجارية الإسلامية، وكان مفتونا بالمستوى الحضارى لصلاح الدين. ومن مشروعات ريتشارد تزويج أخى صلاح الدين الملك العادل لأخت ريتشارد وتتويجهما ملكين على بيت المقدس وعكا، وقد رفض ذلك صلاح الدين وأخوه ولم يفاوضاه فيه.

زمن طويل على القضاة التجاريين[٢٣٦].

وهذه مجموعة تكونت من زمن غير محدد يقع بين القرن الحادى عشر والرابع عشر ونشرت في مرسيليا وربما نشرت في برشلونة وكان مكتوبة بلغة (قطلونية) ولا ريب كانت مصدرا للعادات التجارية. فيها تعريفات وتعليلات وأمثال تجعل لها شكل عمل فقهى.

والقانون المعمول به حاليا يجد نصوصه في أحكام أو ملفات أوليرو Orelon وهى مجموعة لم تصدرها السلطات. وهى لا ريب من جمع رجل مجهول مارس العمل. وهي ترجع إلي القرن الثانى عشر والثالث عشر وفيها أحكام قضائية في عدد كبير من المسائل، وبهذا تفسر تسميتها، فاسم "أحكام" مصدره أنه أقضية ولفظ "ملفات" مصدره العادة القديمة بلف المستندات حول اسطوانات. وأخيراً اسم Orelon أوريلو ربما يفسر لنا أن نسخة قديمة صدق عليها موثق في هذه الجزيرة. وكان لهذه المجموعة سلطان على النشاط البحرى إذ تتبعها الأمم مع إضافة تعديلات عليها، ودليل البحر ركن ثالث من أركان القانون التجارى، حرر في القرن السادس عشر في مدينة روان بفرنسا بيد مؤلف ليس لدينا اسمه مهتم بعقود التأمين البحرى، وقد سكتت عنه المجموعتان السابقتان؛ لأنه لم يكن موجوداً - بيقين - عندما كانا موجودين وابتداء من القرن السادس عشر أدركت الحكومات أكثر من ذى قبل أهمية التجارة لتقدم الأمم).

---

(٢٣٦) ما يزال بعض الشراح يستعملون تعبير: القضاء القنصلى

الفصل الثانى

الربـــــا

﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾

سورة البقرة ٢٧٦

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم
مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم
رءوس أموالكم لا تَظلِمونَ ولا تُظلَمونَ ﴾

سورة البقرة الآيتين ٢٧٨، ٢٧٩

"من زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعطى سواء "

حديث شريف

واليهودية لاتبيح الربا بين يهودى ويهودى، وتبيحه لليهودى مع غير اليهودى[٢٤٠]. أما المسيحية فلا تبيحه.

يشهد بذلك إنجيل لوقا: ٣٠ - ٣٤ "الإصحاح السادس من ٣٠ إلى ٣٧ حيث يقول: (وكل من سألك فاعطه. من أخذ الذى لك فلا تطالبه.. وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئا فيكون أجركم عظيماً)[٢٤١] (وإذا أحببتم الذين يحبونكم فأى فضل لكم.. والخطاة أيضا يحبون الذين يحبوهم (وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستربوا منهم فأى فضل لكم).

ويقول القديس توماس الأكوينى[٢٤٢] - وثقافته العربية معروفة من دخوله في الخلاف بين ابن رشد والغزالى، ونقله فصولاً بتمامها من ابن رشد

---

(٢٤٠) جاء في سفر التثنية: الإصحاح الخامس أرقام ١٧ - ٢٢ (ولا تشهد على قريبك شهادة زور، ولا تشته امرأة قريبك، ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك)

(٢٤١) وبناء على ذلك سمعنا الآباء اليسوعيين (فرقة في المسيحية) يقولون في أوربا: من زعم أن الربا ليس معصية فهو ملحد خارج على الدين.
وقول الأب بونى: إن المرابين يفقدون شرفهم في الدنيا، وليسوا أهلا للتكفين بعد موتهم، وقد أقر هذه النظرة مرسوم اكس لا شابل سنة ٧٨٩م وبقيت معمولا بها حتى دب إليها الوهن في القرون اللاحقة، وفي سنة ١١٥٧م نشأ في جمهورية البندقية بإيطاليا (فينيسيا) أول بنك لإقراض النقود، وتتابعت بعده عمليات الإقراض

(٢٤٢) التحق القديس توماس الأكوينى ببلاط ملك صقلية بعد استرداد أوروبة لها من العرب، وظلت لغة البلاط فيها عربية زمنا طويلا، ومن براطرتها من كان يتكلم العربية، ويجيدها عمال بلاطه، وكان ابن عم للقديس توماس سفير الإمبراطور إلى بلاط الملك الكامل في القرن السابع الهجرى/ "الثالث عشر الميلادى" (القرآن والمنهج العلمي المعاصر) للمؤلف ص ١١٩، ١٨٢، ٢٢٤، ٢٣٣، ٢٣٤.

(٥٩٥هـ) - وله ابن عم كان سفيراً للإمبراطور في بلاط الملك الكامل بمصر - يقول القديس: (إن تقاضى الفوائد على القروض أمر غير عادل، فإن معناه استيفاء دين غير موجود، ذلك بأن الشيء الذى لا ينتفع به إلا باستهلاكه تختلط فيه منفعة الشيء بالشيء ذاته والقرض ومنفعته أمر واحد، وليس من العدل أن تطالب بشيء مرتين).

لكن للكنيسة من الربا مواقف مختلفة، بدأت بإباحتها لجمعيات القرض الحسن أن تتقاضى فوائد يسيرة على القروض لتعويض ما تتكبده من مصروفات.

ثم أباحت للمقرض أن يتفق مع المقترض على شرط جزائى إذا هو لم يسدد الدين في الميعاد.

وانتهى أمرها إلى إباحة الفوائد إذا أجازها العرف، أو جوزتها القوانين، وتتابعت الأجيال على ذلك في المسيحية، وظهرت فيما سمى عقد المخاطرة Contrat Mohterai فصار لفظ "المخاطرة" العربى اسما للعقد بالفرنسية عند بعض من المتعاملين من أصحاب المال في أوروبة مع دول المشرق في شواطئ البحر الأبيض.

وفي عام ١٦٦٠ اقترض لويس الرابع عشر ملك فرنسا قرضا بفائدة بإذن الكنيسة، كما استدان البابا "بى" التاسع بالربا، وسدد الدين والفائدة.

وكانت الثورة الفرنسية لا دينية، فأباحت الربا، واعتنق مبادئها قانون نابليون في سنة ١٨٠٤، ونقلت المحاكم المختلفطة في مصر ذلك القانون في سنة ١٨٧٥م.

ونقلته مصر مترجماً في سنة ١٨٨٣م في قانونها الوطنى عام ١٨٨٣م

وما زال معمولاً بحكمه في القانون الحالى الصادر سنة ١٩٤٨م(٢٤٣).

(٢٤٣) والنظام الربوى متهم في العصر الحالى من الناحية الاجتماعية كما يظهر من تقرير لمجلة الكومنولث الإنجليزية في ١٩٩٣/٢/٢٥ - ١٩٩٤/١/٧م يمكن اقتباس فقرات منه:

في انجيل لوقا ٢٢/٦ - ٣٥:

(وإن اقرضتم الذين ترجون منهم فأى فضل لكم. فإن الخطاة أيضا يقرضون الخطاة لكى يستربوا منهم المثل. بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئا).

وبالإنجيل أوصى المجمع الكنسى في مارس ٨٥٠ بمقاطعة المرابين وفي عام ١١٧٩ أصدر البابا الاسكندر الثالث إعلانا بأن الربا محرم في العهد القديم (التوراة) وفي العهد الجديد (الإنجيل) في سفر أعمال الرسل.

كما أصدر البابا صكا بحرمان المرابين من الدفن الكنسى.

وفي بعض النصوص يأتى النص بمنع "الفائدة" وبعدم انتظار مقابل للإقراض، ومنذئذ تصدر مؤلفات تشبه المرابين بالعناكب والضفادع والمخلوقات الشيطانية، وكانت كراهية المجتمعات النصرانية لليهود مقترنة بالكثير من الحقد لانعدام الرحمة، وكان اليهود من قبل مشهورين بالقرض الربوى، وفي عام ١٢٨٥ أدين ٣٧ من رجال الكنيسة في فرنسا يتعاطون الربا، وبدأ الناس يتعاطونه في أوروبا، وفي سنة ١٣٠٦ طرد اليهود من فرنسا.

في هذه الفترة من القرون الوسطى انتشرت التجارة الأوروبية، كما بدأت أوروبا تنقل عن المسلمين نظام "المقارضة" على أن يكون الربح مناصفة أو بنسبة بين صاحب المال والعامل بالمال، وإذا خسر المشروع خسر صاحب المال ماله وصاحب العمل نصيبه.

وبدأت الكنيسة في قبول صيغة "الفائدة" بالتدريج حتى أبيحت لمؤسسات الإقراض التى ورثتها البنوك.

وعندما أصبح الرواج الاقتصادى هدفا أساسيا للدولة، تآمرت الدولة مع البنوك لامتصاص دماء الشعوب، وظهرت فضائح مالية في إنجلترا وفرنسا في القرن التاسع عشر، بل اعتبر الأمريكيون في القرن العشرين أن البنوك مسئولة عن الكساد =

....

=الاقتصادى في الثلاثينات من القرن، وفي القرن العشرين أيضا بدأت كراهية البنـــوك في الازدياد، وأحس الناس بتآمر البنوك مع اليهود والماسونيين، وبدأت "تعاونيات الإقراض" يتبادل أعضاؤها القروض نقودا أو سلعا أو خدمات وكرهت ذلك النظام الـدول الناميـة خاصة. ويحاول المسلمون تنظيم اقتصاد غير ربوى اعتمــادا علـى نهـى الديـن الإسـلامى عنه. (نقلاً عن مجلة الأزهر رمضان ١٤١٤هـ/مارس ١٩٩٤م)

وبهذه الإنذارات استعدوا ليسمعوا التحريم المتتابع القاطع بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل ا لله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى ا لله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يمحق ا لله الربا ويربى الصدقات وا لله لا يحب كل كفار أثيم﴾[٢٤٩].

ثم يتتابع النهى، فيعلن الله فيه الحرب في السورة ذاتها ﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا ا لله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من ا لله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون﴾[٢٥٠].

ولا يرد القرض في القرآن الكريم إلا أن يكون حسنا يقول تعالى: {إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا اللـه قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم}[٢٥١] ويقول: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا ا لله قرضاً حسناً﴾[٢٥٢] ومنها: ﴿من ذا الذى يقرض ا لله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾[٢٥٣].

وهى جميعا تدخل في معنى واحد هو تبادل المعروف، ويسمى الإنفاق فيها قرضا حسنا لله حثا للناس على التعامل مع الله بالقرض الحسن، أو (التجارة مع الله بالصدقة).

وفي مجمع البيان للطبرسى تفسير القرض الحسن في سورة الحديد: (القرض الحسن يجمع عشرة أوصاف: أن يكون من الحلال، وأن يكون من أطيب ما يملك المنفق، وألا يقصد الردئ بالإنفاق، وأن يتصدق وهو يحب

---

(٢٤٩) سورة البقرة الآيتان ٢٧٥، ٢٧٦

(٢٥٠) سورة البقرة الآيتان ٢٧٨، ٢٧٩

(٢٥١) سورة الحديد الآية ١٨

(٢٥٢) سورة المزمل الآية ٢٠

(٢٥٣) سورة البقرة الآية ٢٤٥.

المال ويرجو الحياة، لقوله ﷺ عندما سئل عن الصدقة: "أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر، وألا تمهل حتى إذا بلغت النفس التراقى قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا" وأن يضعه في الأحوج الأولى بأن يأخذه، ولذلك خص الله أقواما بأخذ الصدقات، وأن يكتمها ما أمكن، وألا يتبعه المن، وأن يقصد به وجه الله، وألا يرائى به، وأن يستحقر ما يعطى وإن كثر، وأن يكون من أحب ماله إليه، لقوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

خطبة الرسول عليه الصلاة والسلام:

وحج رسول الله ﷺ في تسعين ألفا من المسلمين، وفي يوم الجمعة فوق جبل عرفة خطبهم خطبة الوداع، فحمد الله – سبحانه – واستفتح بالذى هو خير، ثم قال: "أما بعد: أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم؛ فإنى لعلى لا ألقاكم بعد عامكم هذا في موقفى هذا أبدا.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم..

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد...

إن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أضعه ربا عمى العباس بن عبد المطلب.. وإن دماء الجاهلية موضوعة.. وأول دم أبدأ به دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (وكان مسترضعاً في بنى سعد فقتلته هذيل) وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة والسقاية. والعمد قوَد، وشبه العمد قود، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس:

إن النسئ[٢٥٤] زيادة في الكفر..

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس:

إن لنسائكم عليكم حقا.. أخذتموهن بأمانة اللـه.. فاتقوا اللـه في النساء، واستوصوا بهن خيرا.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس:

إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي فضل على عجمى إلا بالتقوى.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد..

فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس:

إن الله قد قسم لكل وارث حظه من الميراث.. ولا تجوز لوارث وصية ولا تجوز في أكثر من الثلث.

والولد للفراش وللعاهر الحجر. من ادعى لغير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين...

والسلام عليكم ورحمة الله.

وكانوا يقولون كلما سألهم: نعم قد بلغت وأديت ونصحت.

---

(٢٥٤) النسئ هنا: تأخير حرمة شهر إلى آخر، إذا جاء شهر حرام وهم يتحاربون فيؤخرون الحرمة إلى شهر آخر، وبهذه الخطبة أصبح شهر ذى الحجة هو الشهر الذى تقع فيه فريضة الحج

وفي يوم الجمعة هذا – بعد العصر – نزل عليه قول الله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾(٢٥٥).

في هذه الخطبة قرر صاحب الشريعة لأمته أموراً أهمته يتصدرها الحفاظ على أرواحها وأموالها فنهى عن المساس بها، وخص الربا بفقرة واضحة وخص فيها عمه – وكان إلى جواره – كما خص بالمنع من الثأر ابن عمه الآخر حماية لأرواح المسلمين وأموالهم، وفي الثأر اغتيال للدم، وفي الثانية اغتيال المال، وهو ﷺ يريد أن يودع شهوده وإشهاد الله – تعالى – عليهم وتعهدهم باتباع أمره ونهيه، وفي جوار البيت الحرام في الملسك الذى شاركها فيه.

والسنن في تحريم الربا كثيرة، منها قوله ﷺ: "اجتنبوا الموبقات السبع". قالوا: وما هى يا رسول الله؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات".

وفي ربا البيوع قوله:

"الذهب بالذهب، مثلا بمثل يدا بيد، والفضل ربا.

والفضة بالفضة، مثلا بمثل، يدا بيد، والفضل ربا.

والحنطة بالحنطة، مثلا بمثل، يد بيد، والفضل ربا.

والملح بالملح، مثلا بمثل، يدا بيد، والفضل ربا.

والشعير بالشعير، مثلا بمثل، يدا بيد، والفضل ربا.

والتمر بالتمر، مثلا بمثل، يدا بيد، والفضل ربا.

فإذا اختلفت الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد".

---

(٢٥٥) سورة المائدة الآية ٣.

وأهل الظاهر يقفون بتفسير الحديث عند هذه الأموال الستة، لكن جمهور الفقهاء يفهمون الحديث على أن معنى الزيادة في جميع البيوع مقصود به، والأصناف الستة واردة في النص لأنها أكثر البيوع حدوثا، ومن الذهب والفضة تسك النقود التى يجرى بها التعامل، وكل امرئ يأكل هذه المطعومات.

والإجماع منعقد على أن ربا النسيئة ربا جلى، وكذلك التعاقد على منفعة مقابل القرض، فهذا ربا مقابل الزمن.

وفصل بعضٌ في شأن "ربا الفضل" في البيوع، فقالوا: إنه محرم سدا لذريعة التعاقد الربوى، والذريعة تحريم مباح لما يؤدى إليه من الوقوع في الحرام.

المبحث الثانى:

في التطبيقات والمناقشات

وطبق الخلفاء الراشدون السنة بدقة:

١- عن أبى رافع قال: خرجت فلقينى أبو بكر الصديق بخلخالين، فابتعتهما منه، فوضعتهما في كفة الميزان ووضعت ورقى في كفة الميزان فرجح، فقلت: أنا أحله لك. قال: وإن أحللته فإن الله لم يحلله سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: "الفضة بالفضة، والذهب بالذهب، وزنا بوزن، الزائد والمستزيد في النار".

٢- عن أبى رافع أيضا مر بى عمر بن الخطاب ومعه وَرِقٌ (فضة) فقال: اصنع لنا أوضاحا (نوع حلى من الفضة) لصبى لنا. فقلت يا أمير المؤمنين، عندى أوضاح معمولة، فإن شئت أخذت الورِق وأخذت الأوضاح.

قال: مثلاً بمثل؟

قلت: نعم.

فوضع الورِق في كفة الميزان والأوضاح في الكفة الأخرى، فلما استوت الكفتان أخذ بإحدى يديه وأعطى بالأخرى.

٣- عن مالك بن الحدثان أنه التمس صرفا بمائة، فدعا به طلحة بن عبيد الله فتراوضا حتى اصطرف منه، فأخذ الذهب يقلبها في يده، ثم قال: حتى يأتي خازني من الغابة وعمر يسمع ذلك.

فقال عمر: والله لا تفارقه حتى تأخذ منه، قال ﷺ: "الذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء والبر بالبر يداً بيد ربا إلا هاءوهاء (علامة على التسليم يدا بيد) والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء".

وبهذا فَصَلَ أمير المؤمنين عمر في نزاعين بين صحابة رسول الله ﷺ.

٤- عن أبي الأشعث: كنا في غزاة وعلينا معاوية، وأصبنا ذهبا وفضة، وأمر معاوية رجلاً ببيعها للناس في أعطياتهم، وتسارع الناس فيها، فقام عبادة ابن الصامت فنهاهم فردوها. فأتى الرجل معاوية فشكا إليه. فقام معاوية خطيبا فقال: ما بال رجال يحفظون أحاديث عن رسول الله ويكذبون فيها؟! لم نسمعها!!.

فقام عبادة بن الصامت فقال: والله لنحدثن عن رسول الله ﷺ: وإن كره معاوية، قال رسول الله ﷺ: "لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة، ولا البر بالبر، ولا الشعير بالشعير، ولا التمر بالتمر، ولا الملح بالملح إلا مثلا بمثل، سواء بسواء، عينا بعين".

وفي رواية أنه أضاف: "فمن زاد أو ازداد فقد أربى".

ولحق عبادة بأمير المؤمنين عمر، ورده عمر إلى الشام، وكتب لمعاوية: لا إمرة لك عليه.

٥- وتكرر موقف معاوية مع أبى الدرداء، إذ باع معاوية سقاية من ذهب أو من ورق بأكثر من وزنها. وربما كانت حادثة أبى الدرداء أسبق.

وفي رواية مسلم بن يسار أن عبادة روى الحديث في وجه معاوية، وأضاف قوله: وإن كرهت. وأن معاوية قال: أيها الرجل، أنت وما سمعت.

وفي رواية لقبيصة بن ذؤيب أن عمر قال لعبادة: ارجع إلى مكانك، قبح الله أرضا لست فيها وأمثالك. وكتب إلى معاوية: لا إمرة لك عليه.

* * * * * *

وفي أحكام القرآن للجصاص الرازى (٣٧٠هـ) الجزء الأول ص ٤٦٤ طبع الآستانة، ذكر أثرا عن عمر – رضى الله عنه –: (أن آية الربا من آخر ما نزل من القرآن، وأن النبى ﷺ قُبض قبل أن يبينه لنا، فدعوا الربا والريبة).

وروى أنه – رضى الله عنه – قام خطيباً فقال: (ثلاث وددت لو أن رسول الله كان عهد إلينا فيهن عهدا ينتهى إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من الربا) وعلق على ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره لآيات الربا، قال (يعنى بذلك بعض المسائل التى فيها شائبة الربا).

وروى عن عمر: (إنا والله ما ندرى لعلنا نأمركم بأمور لا تصلح لكم، وإنه كان من آخر القرآن نزولا آيات الربا، فتوفى رسول الله ﷺ قبل أن يبينه لنا، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم).

وروى عنه: (لقد خفت أن نكون قد زدنا في الربا عشرة أضعافه بمخافته) ومن طريق آخر (تركنا تسعة أعشار الحلال مخافة الربا).

وواضح أن أمير المؤمنين عمر نهى عن الارتياب وأمر بالتطبيق الذى جرى عليه الخلفاء الراشدون كلهم تنفيذاً لسنة رسول الله ﷺ.

وبهذا كانت تطبيقات معاوية فلتات، أو اجتهادات حاكم، لم يؤيده فيها أمير المؤمنين – وهو الفاروق – ولا خليفة رسول الله – وهو الصديق!!

وحديث عبادة بن الصامت يطابقه حديث أبى سعيد الخدرى في النهى عن الزيادة، وإن زاد الأخير: "من زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعطى سواء".

ورواة الحديثين كثيرون.

أما رواية ابن عباس عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: "لا ربا إلا في النسيئة" فلم ير الأئمة السابقون لها معنى يناقض السنة، وعلى رأسهم خليفة رسول الله وخليفة الخليفة.

وقد قيل إن ابن عباس لم يكن بلغه حديث أبى سعيد الخدرى، فلما بلغه رجع عن رواية حديث أسامة. وهذا مردود بما رواه السرخسى في المبسوط من أن أبا سعيد الخدرى لقى ابن عباس وتحاورا، وقال أبو سعيد إذ فارقه: (والله لا آوانى وإياك ظل بيت ما دمت على هذا القول).

ونقل السبكى في تكملة المجموع في شرح المهذب عن الشافعى أن رأى ابن عباس في عدم تحريم ربا الفضل هو رأى أهل مكة، ولعلهم كانوا يمارسون التجارة على نحو يضيق بربا الفضل، وأن المكيين قد بلغهم ولا شك حديث ربا الفضل، ولكنهم كانوا يؤولونه على الكراهية لا على التحريم (تكملة المجموع بشرح المهذب ١٠/٣٨).

وابن رشد مالكى يقول: (إنما صار ابن عباس لذلك لما رواه وهو حديث صحيح، فأخذ ابن عباس بظاهر هذا الحديث .. وأما الجمهور فصاروا إلى ما رواه مالك عن نافع عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال "لاتبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل، ولا تشفوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا منها شيئا غائبا بناجز" وهو من أصح ما روى في هذا الباب، فهذه سلسلة الذهب،

وصحة حديث أسامة أن يتكلم عن الأغلب، ولهذا وجب تأويله بحيث يصح الجمع بين الحديثين).

واتباع أمير المؤمنين عمر للسنة وقضاؤه بها في النزاعين اللذين أسلفنا ذكرهما بين الصحابة ومعاوية يقضى في صدد حديث أسامة ورواية ابن عباس له – وكل منهما كان أثيرا عنده – بأن هذا الحديث يؤيد ولا يعارض تطبيقات عمر للسنة، وقد أجمع عليها الصحابة يتصدرهم الصديق رضى الله عنهم.

وفي تخريج حديث ابن عباس عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ: "لا ربا إلا في النسيئة" قول الشافعى: (إن هذا الحديث مخالف للأحاديث قبله "أحاديث ربا الفضل" قلت (الشافعى): قد يحتمل خلافها وموافقتها. قال: بأى شيء؟ قلت: قد يكون أسامة بن زيد سمع رسول الله ﷺ يسأل الصنفين المختلفين مثال الذهب بالورِق، والتمر بالحنطة، أو ما اختلف جنسه متفاضلاً يداً بيد، فقال: "إنما الربا في النسيئة" أو تكون المسألة سبقته بهذا، وأدرك الجواب. فروى الجواب ولم يحفظ المسألة[٢٥٦]، أو شك فيها).

ويقول: (كل واحد ممن روى خلاف أسامة – وإن لم يكن أشهر بالحفظ من أسامة فليس به تقصير عن حفظه. وعثمان بن عفان وعبادة بن الصامت أشد تقدما بالسن والصحبة من أسامة، وأبو هريرة أسن وأحفظ من روى الحديث في دهره، ولما كان حديث أثنين أولى في الظاهر بالحفظ، وبأن ينفى عنه الغلط من حديث واحد كان حديث الأكبر – الذى هو أشبه أن يكون أولى بالحفظ – أولى من حديث من هو أحدث منه، وكان حديث خمسة أولى أن يصار إليه عندنا من حديث واحد).

---

(٢٥٦) السؤال

ولنلاحظ أن أمير المؤمنين عثمان من رواة حديث عبادة بن الصامت، وأن بعض الذين رووا هذا الحديث عن أسامة رجعوا عنه في حياته.

والحافظ ابن حجر - شافعى - في القرن التاسع يرى أن الحصر بلفظ (إنما) ليس الحصر الحقيقى، وإنما حصر الربا بالأغلظ؛ لأنه هو المحرم لذاته تحريم مقاصد، وأن ما عداه سمى ربا تسمية مجازية، بل كان النهى عنه راجعاً إلى أنه غالباً ما يكون ذريعة للربا الحقيقي، فهذا حصر "الكمال"؛ لأن الربا الكامل هو ربا النسيئة.

ومن حديث أبى سعيد الخدرى: "لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين، فإنى أخاف عليكم الرماء" والرماء: هو الربا، خافه عليهم، فسد الطريق إليه بتحريم ربا الفضل. والربا الكامل (ربا النسيئة) أمر جلل.

* * * * * *

واختلفت المذاهب الأربعة في علة تحريم الربا في الأصناف الستة، واتفقوا على أن العلة، إذا تحققت فى سواها حرمت الزيادة، في حين قصر الظاهرية التحريم على الأصناف الستة وفقا للنص.

وبقى الخلاف قائما بين الآخذين إخذ ابن عباس معتمدين على الحديث الذى رواه أسامة: "إنما الربا في النسيئة" أى أن المحرم هو ربا (النسيئة) لا ربا الفضل، وبين الجمهور الذين يرون نصوص السنة صريحة متساندة في تحريم ربا الفضل.

ومنذئذ عملت الأمة برأى الجمهور، وأجمعت عليه جيلاً بعد جيل، وإجماع جيل لا ينقضه خروج بعض عنه من أجيال لاحقة.

هذا، وليس ثمة خروج على إجماع الأمة، وهناك تأييد له في موقف ابن رشد - وهو مالكى - وابن القيم - وهو حنبلى - فيما شرحه ابن رشد في

القرن السادس، أو ابن القيم في القرن الثامن، فكلاهما حرم ربا الفضل وإن أدخلاه في نطاق سد الذريعة.

ومن المسلمات أن السنة شارحة حينا وشارعة حينا أخر، يقول الإمام الشافعى: (وما سنه رسول الله فعن الله سنه) والنبى ﷺ قد وضع المبادئ الكافية لرفض الزيادة، وطبقها الخلفاء الراشدون كاملة، وجمهور الأمة.

ويلاحظ أن الضرورة التى تبيح المحظور تقاس على الهلاك إن لم يتناول المسلم المحرم، فيضطر إلى أكل الميتة.

والحاجة تنزل منزلة الضرورة حين تقاس على ما اعتبره المسلمون-لا المحتاج وحده - في حكم الضرورة. ومن أمثال الحاجات العامة نظر الخاطب إلى مخطوبته، والطبيب إلى ما يجب نظره من جسد المريض أو المريضة، أو الشاهد على موضوع نزاع، أو المتعامل إلى طرف التعامل الآخر، وهذا المعيار يرقى بالمقيس إلى حكم الضرورات في بعض الأحيان لا كل الأحيان.

كما يلاحظ موقف المكيين من ربا الفضل، وهو أنه يخضع عندهم لحكم المكروه، لا لحكم المنهى عنه.

ولأئمة الحنفية في المكروه رأيان، أحدهما: أنه إلى الحلال أقرب، وهذا رأى أبى حنيفة وأبى يوسف، والثانى: أنه إلى الحرام أقرب، وهو رأى محمد.

الفرع الثالث

المبحث الأول:

بحوث الربا في القرن العشرين

عرض الدكتور السنهورى في كتابه (مصادر الحق في الفقه الإسلامي - الجزء الثالث) تيارين فكريين في العصر الحاضر، الأول: رأى الجمهور، ورآه متشددا في الربا. والثانى: رأى ابن عباس.

ونقل عن أقوال ابن قيم الجوزية: (والذى يقضى منه العجب مبالغتهم في ربا الفضل أعظم مبالغة .. وجاءوا إلى ربا النسيئة ففتحوا للتحيل عليه كل باب، فتارة بالعينة وتارة بالمحلل (زواج المحلل) وتارة بالشرط المتقدم المتواطأ عليه، ثم يطلقون العقد من غير اشتراط - وقد علم الله والكرام الكاتبون، والمتعاقدون، ومن حضر أنه عقد ربا بمقصوده وروحه بيع خمسة عشر مؤجلة بعشرة نقدا ليس إلا).

وابن رشد يشرح عقد العينة: (أن يقول رجل لرجل: أعطنى عشرة دنانير على أن أدفع لك إلى مدة كذا ضعفها. فيقول له: هذا لا يصلح، ولكن أبيع منك سلعة كذا - لسلعة يسميها ليست عنده - بهذا العدد، ثم يعمد هو فيشترى تلك السلعة فيقبضها له بعد أن كمل البيع بينهما، ولكن تلك السلعة قيمتها مما كان سأله أن يعطيه من الدراهم قرضا، فيرد عليه ضعفها).

يقول السنهورى: (ويعارض هذا التيار من التشدد في الربا تيار آخر يتلطف ويحصره في دائرة ضيقة، وعلى رأس هذا التيار عبد الله بن عباس ومعه طائفة من الصحابة يقصرون الربا على الذى كان معروفاً منه في الجاهلية، ونزل فيه القرآن، ولكن ما لبث التيار الأول أن جرف التيار المعارض، وقامت الكثرة الغالبة من الفقهاء يساندونه ويؤيدونه، حتى كانت له الغلبة في الفقه الإسلامي ... على أن فريقا من الفقهاء وعلى رأسهم ابن رشد

وابن القيم – حاولوا أن يكسروا حدة تطرف المتشددين في الربا، فميزوا بين ربا النسيئة وجعلوه هو الربا الجلى، أو الربا القطعى، وهو حرام لذاته، وبين ربا الفضل – وجعلوه ربا خفيا، أو ربا غير قطعى – وهو حرام أيضا لا لذاته، بل لأنه ذريعة إلى ربا النسيئة، فتحريمه هو إذن من باب سد الذرائع..).

وتحريم الوسيلة يباح عند الحاجة، أما المحرم تحريم مقاصد فلا يحل إلا للضرورة. والضرورة التى يباح فيها المحظور – كما قال ابن رشد – هى كأكل الميتة، وابن القيم يرى الحاجة في مستوى بيع العرية (الرطب لمن ليس لديه رطب) في أيام الجدب لمن لاتمر فيها لديه خرصا – أى: تخمينا – وقد رخص رسول الله فيه استثناء من نهيه عن الفضل في التمر بالتمر.

ومالك لايبيح دفع مقابل لصنعة الذهب المصوغ أو الفضة، وإنما رخص للمسافر إذ يقع تحت ضغط العجلة، وفوات القافلة.

ولعل استثناء بيع الرطب بخرصه راجع إلى عادة وجد عليها رسول الله أهل المدينة كما وجدهم في حاجة إلى التعامل بالسلم، ولما أراد أن يبقوا على عادتهم فيه أجاز لهم البقاء على عادتهم في العَرِيةِ.

وأى هذا كان فمذهب المكيين (أن تحريم ربا الفضل وارد على سبيل الكراهة) لم تأخذ به الأمة، ولابن عباس شواذ كرأيه في العول، تراه محكمة النقض المصرية شذوذا لايؤخذ به، ولو صدر حكم به لم يعمل به.

ومن حسنات الشريعة الإسلامية اتقاء الشبهات طبقا لما رواه ابن عمر عن رسول الله ﷺ "الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشتبهات، فمن اتقاها كان أنزه لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات أوشك أن يقع في الحرام".

وقد رواه النعمان بن بشير عن رسول الله – مرفوعا –: "إن الحلال بين والحرام، بين، وبينهما مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى

الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه.

والتمثيل باحتياط الراعى ووشك الوقوع في الحرام ينقلنا إلى الذريعة. وفتح الذريعة رجوع إلى أصل الإباحة، لكن الربا محرم لذاته، كالزنا لا تبيحه طبيعة الإنسان. وهو محرم أشد التحريم كما فهم الإمام مالك. يقول الإمام الشاطبى: (الشريعة مبنية على الاحتياط والأخذ بالحزم، والتحرز عما عسى أن يكون مفسدة).

وقد أورد السرخسى في مبسوطه (جزء ١٢) منسوبا إلى عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر أن الذين اكتفوا بما نقل إليهم من حديث أسامة بن زيد: "إنما الربا في النسيئة" قد عدلوا عن فهمهم إلى رأى الجمهور، وعلى هذا تتتابع الأجيال.

المبحث الثانى:

النظرية العامة كما وردت في سنة الرسول الكريم

ومن أوضح ما ورد في الربا قول الشيخ الطاهر بن عاشور في (التحرير والتنوير) ٨٤/٣: (ذهب جمهور العلماء إلى أن الربا في الشرع منقول إلى "معنى جديد" كما دلت عليه أحاديث كثيرة، وإلى هذا نحا عمر، وعائشة، وأبو سعيد الخدرى، وعبادة ابن الصامت، بل رأى عمر أن لفظ (الربا) نقل إلى معنى جديد، ولم يبين جميع المراد منه، وكأنه عنده ما يشبه المجمل، فقد حكى عنه ابن رشد (الجد) في المقدمات أنه كان من آخر ما أنزل الله على رسوله آية الربا، فتوفى النبى ولم يفسرها ﷺ وإنكم لتزعمون أننا نعلم أبواب الربا، ولأن أكون أعلمها أحب إلى من أن يكون لى مثل مصر

وكورها[٢٥٧].

قال ابن رشد (الجد): ولم يرد عمر بذلك أنه ﷺ لم يفسر آية الربا، وإنما أراد أنه لم يعلم وجوه الربا "بالنص عليها". وقال ابن العربي: بين ﷺ معنى الربا في ٥٦ حديثاً .. بل أراد عمر أن تحقيق حكمه في البيوع الكثيرة خفى لم يعممهُ النبى بالتنصيص، لأن المتقدمين لايتوخون في عباراتهم ما يساوى المعانى الاصطلاحية. والذى حمل الجمهور على اعتبار لفظ (الربا) مستعملاً "في معنى جديد" أحاديث وردت عن النبى من قول أو فعل دلت على تفسير الربا بما هو أعم من ربا الجاهلية المعروف عندهم قبل الإسلام..).

ويستمر الطاهر بن عاشور في المرجع ذاته ٨٦/٤، ٨٧ ليبين حكمة تحريم الربا، فهى (حمل الأمة على مواساة غنيها محتاجها.. بالقرض، فهو مرتبة دون الصدقة.. فإن انتدب لها المكلف حرم عليه طلب عوض عنها، وكذلك المعروف كله.. فهو غير الذى جاء يريد المعاملة للربح كالمتبايعين.. ويمكن أن مقصد الشريعة البعد بالمسلمين عن الكسل في استثمار المال، وإلجائهم إلى التشارك والتعاون.. وقد قضى المسلمون قروناً طويلة لم يروا أنفسهم فيها محتاجين إلى التعامل بالربا، ولم تكن ثروتهم أيامئذ قاصرة عن ثروة بقية الأمم في العالم أزمان كانت سيادة العالم بيدهم، أو أزمان كانوا مستقلين بإدارة شئونهم فلما صارت سيادة العالم بأيدى أمم غير إسلامية، وارتبط المسلمون بغيرهم في التجارة والمعاملات، وانتظمت سوق الثروة العالمية على قواعد القوانين التى لا تتحاشى المراباة دهش المسلمون... وتحريم الربا في الآية صريح.. وهذا يقضى بإعمال أنظار علماء الشريعة

---

(٢٥٧) أورد محمد ضياء الدين الريس في كتاب (الخراج والنظم المالية) ماذكره البلاذرى، وابن قدامة أن خراج مصر بلغ في عهد عمر ٩٠٠ مليار درهم مغربى ذهبا ٢٠٠٠ مليار دينار في ذلك الزمان

والتدارس بينهم في مجمع يحوى طائفة من كل فرقة كما أمر الله تعالى).

وفي بحث للشيخ محمد الحاج الناصر[٢٥٨] ورد قول ابن تيمية في فتاواه ٢٨٣/١٩، ٢٨٤ قال: (إن لفظ الربا يتناول كل ما نهى عنه من ربا النساء وربا الفضل، والقرض الذى يجر منفعة، وغير ذلك، والنص متناول لهذا كله. وقال في نفس المرجع ٣٤١: (وحرم الربا لأنه متضمن للظلم، وهو أشد من تحريم الميسر) وفي صفحة ٣٤٦، ٣٤٧ (إن تحريم الربا أشد من تحريم القمار، لأنه ظلم محقق).

وفي القرون الأخيرة فعل الغزوُ الفكرى والعسكرى الأوروبى ببلاد المسلمين أفاعيله. لنقرأ عن عالمنا المعاصر رواية الشيخ رشيد رضا عن الإمام محمد عبده: (كنتُ أرى الرجل يقترض فيعيطه المقرض بعد أن يستوثق منه باليمين ألا يخبر أحدا، ثم بعد ٢٥ سنة رأيت بعض هؤلاء المحسنين لا يعطى ولده قرضا إلا بسند وشهود. وسألته فقال لا أعرف السبب ولكنى لا أجد في نفسى الثقة التى كنت أجدها).

---

(٢٥٨) مجلة مجمع الفقه الإسلامي العدد الخامس الدورة الخامسة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م

الفرع الرابع
الربا في مؤتمر الفقه الإسلامي بباريس في النصف الثانى من القرن العشرين

المبحث الأول:

محاضرة في مؤتمر باريس ١٩٥١/٨/٧م

انعقد مؤتمر للفقه الإسلامي في باريس وظهر في أبحاثه اتجاهان: الأول في بحث للمرحوم الشيخ الدكتور/ محمد عبد الله دراز أستاذ أصول الدين بالأزهر بسط فيه الدعائم الدينية التى يستند إليها في تحريمه، وهى خلقية واجتماعية تحول دون محاباة رأس المال على حساب الطبقات الكادحة، وهناك الدعامة الاقتصادية، فإنه (بمجرد عقد القرض أصبح العمل ورأس المال في يد شخص واحد، حتى إن المال إذا هلك أو تلف فإنما يهلك على ملكه، فإذا أصررنا على إشراك المقرض في الربح الناشئ وجب علينا في الوقت نفسه أن نشركه في الخسارة النازلة، إذ كل حق يقابله واجب.. ومتى قبلنا اشتراك رب المال في الربح والخسر معا انتقلت المسألة من موضوع القرض إلى صورة أخرى هى الشركة التضامنية الحقيقية بين رأس المال والعمل .. غير أنه لكى يقبل رب العمل الخضوع لهذا النوع من التعامل يجب أن تكون لديه من الشجاعة الأدبية ما يواجه به المستقبل في كل احتمالاتة، وهذه فضيلة لا يملكها المرابون؛ لأنهم يريدون ربحا بغير مخاطرة، وذلك ما يسمى تحريفاً: قواعد الحياة..).

وإلى الاتجاه الثانى يذهب الدكتور/ معروف الدواليبى – وكان أستاذا للشريعة بجامعة دمشق – وهو أن الربا المحرم هو ما يعقد لقروض

للاستهلاك، أما القروض للإنتاج فليست كذلك. فإما أن تقدم الدولة القروض للإنتاج، وإما أن تباح قروض الإنتاج بقروض وفائدة معقولة، ويمكن تخريج ذلك على فكرة الضرورة".

وفيما بين هذا وذلك وجد فقه يتخذ شعاراً له: "كل قرض جر نفعا فهو ربا" بل يحتج لهذا الفقه بأنه نص حديث. أما أنه حديث فغير صحيح، إذ أن في رواتة (سوارا) وقد أعله المحدثون، وهو متروك والبخارى يقول عنه: (منكر الحديث)[٢٥٩].

وفي مصادر الحق في الفقه الإسلامي للدكتور/ عبد الرزاق أحمد السنهورى ما خلاصته: (وما دام رأس المال ليس ملك الدولة بل هو ملك للفرد ادخره بعمله وجهده فمن حقه ألا يظلم فيه ولا يظلم، ما دامت الحاجة قائمة إلى كل ذلك، فإن فائدة رأس المال في الحدود المذكورة تكون جائزة استثناء من أصل التحريم) ويقصد بذلك. "أولا": ألا يجوز بحال من الأحوال مهما كانت الحاجة قائمة أن تتقاضى فوائد على متجمد الفوائد، فهذا هو ربا الجاهلية الممقوت. "ثانيا": وحتى بالنسبة إلى الفائدة البسيطة يجب أن يرسم لها المشرع حدودا لا تتعداها، فإذا تغير هذا النظام الرأسمالى - ويبدو أنه في سبيله إلى التغير - وأصبح نظاما اشتراكيا تكون رءوس الأموال فيه بيد الدولة لابيد الأفراد، عند ذلك يعاد النظر في تقدير الحاجة، وقد لا تقوم الحاجة في ظل النظام الاشتراكى فيعود الربا إلى أصله من التحريم).

---

(٢٥٩) القول بأن "كل قرض جر نفعا فهو ربا" ليس حديثا صحيحا، لأن فيه سوارا، وهو كما قال البخارى: (منكر الحديث) أو كما قال النسائى عنه: (متروك) وكبار المفسرين يرفضون نسبة هذا القول للنبى ﷺ ومنهم ابن حجر. والمنفعة غير المشروطة حلال، وثابت كما جاء في حديث جابر قال رسول الله ﷺ: "أعطه أوقية من ذهب وزده فأعطانى أوقية من ذهب وزادنى قيراطاً". وفي السيرة وردت أمثال تترى في هذا المعنى.

ويلاحظ على قول الدكتور السنهورى أن الدستور الحالى لمصر (١٩٧١) موضوع في ظل النظام الاشتراكىالسابق، وما زال معمولا به كمنهج رأسمالى جديد تتبعة دول الإسلام، كما يلاحظ أن النظم الاشتراكية كافة تحمل بنظام الفوائد.

بل أن الذى استجد في مصر هو عودة النظام الرأسمالى، وهو قائم على الفوائد.

ولعل رأى الدكتور السنهورى في كتابه الذى ظهر في الستينات من هذا القرن كان استمرارا لأفكار له ظهرت في مذكراته التى نشرت في الثمانينات تحت عنوان (السنهورى من أوراقه الخاصة) وفيها قوله من نيف وسبعين عاماً بتاريخ ١٩٢٤/٩/٢ وهو مبعوث لمدرسة القضاء الشرعي بمصر إلى فرنسا: (إذا جدت أنظمة اقتصادية تقتضى التمييز بين كثير الربا وقليله، وكانت المصلحة تقضى بهذا التغيير فيجب أن يؤخذ على أنه مقيد بالعصر الذى اقتضاه، وقد يأتى زمن – ويوجد من البوادر ما يدعو لتوقع ذلك – ينتقض فيه النظام الاقتصادى الحر، وتقل فيه أهمية رءوس الأموال، أو تنعدم، ويصبح الربا (الفائدة) مهما قل لا يتفق مع روح العصر، فعندئذ نرجع إلى ما فهمه المسلمون أولا من تحريم الربا، ويكون هذا صحيحا، وتتسع الشريعة بالتطور الجديد للأفكار).

وقد انتهى بحث الدكتور محمد عبد الله دراز – كما جاء في تعريبه الذى نشره بنك فيصل الإسلامي في القاهرة – إلى أن حكم الربا: (في وقتنا هذا ليست قضية مبدأ، وإنما هى قضية تطبيق)، (وإنى أخشى أن أطيل فأتعدى على موضوع زميلى وصديقى الدكتور الدواليبى رئيس مجلس النواب السورى. وهى فوق ذلك ليست فيما أرى من الشئون التى يقضى فيها فرد أو بضعة أفراد، بل ينبغى أن يتداعى لها طوائف من الخبراء في القانون

والسياسة والاقتصاد من كل جانب، وأن يدرسوها دراسة دقيقة مستفيضة من جميع نواحيها الحاضرة والمستقبلة).

وأضاف – رحمه الله –: (وكل ما أريد أن أقوله يتلخص في جملتين قصرتين...

الأولى: هى أن الإسلام قد وضع إلى جانب كل قانون – بل فوق كل قانون – قانونا أعلى يقوم على الضرورة التى تبيح كل محظور ﴿وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه﴾(٢٦٠).

الثانية: هى أنه لأجل أن يكون تطبيق الضرورة على مسألة ما تطبيقا مشروعا لا يكفى أن يكون المرء عالماً بقواعد الشريعة، بل يجب أن يكون له من الورع والتقوى ما يحجزة عن التوسع أو عن التسرع في تطبيق الرخصة في غير موضعها، كما يجب أن يبدأ باستنفاد كل الحلول الممكنة المشروعة في الإسلام.إن فعل هذا عسى ألا يجد حاجة للترخص ولا للاستثناء كما هى سنة الله في أهل العزائم من المؤمنين: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾(٢٦١).

المبحث الثانى:

في أعمال الاستثمار

ولقد طور الدكتور الدواليبى بحثه – كما تلقيناه منه في مؤتمر الفقه الإسلامي بجدة في التسعينات من هذا القرن – فصار خاصا بأموال البنوك وتثميرها.

(٢٦٠) سورة الأنعام الآية ١١٩

(٢٦١) سورة الطلاق الآيتان ٢، ٣.

وفي ص ٣٠ أورد مايلى:

(الخلاصة: بعد هذه المقارنة الواضحة بين خصائص "الربا القرآنى" المحرم قطعا وبين خصائص "المعاملات المصرفية" اتضح للناظر أن خصائص المعاملات المصرفية لا تتفق في حالة ما مع خصائص الربا القرآنى).

وفي ص ٣٣ أورد مايلى:

(أرى تكييف معاملات المصارف في حالتى الإيداع والإسلاف على أساس أحكام الشريعة في المضاربة والقراض) وفي الموضع نفسه جاء هامش عن اقتراح حُضار مجلس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه (جعل القرض قراضا، فتراجع عمر وجعل القرض قراضا، وقسم الربح بين بيت المال وبين ابنيه مناصفة، كما ثبت ذلك بسند صحيح عن مالك في الموطأ، وعند الشافعى وغيرهما. وهكذا فقد صححت المعاملة على أساس القراض محولة عن (القرض) خروجا عن الشبهات كلها، وحملا على الصحة والجواز ما أمكن..).

وبَيْدَهُ القارئَ لهذين الأمرين حقيقة الخلاف بين الدكتور الدواليبى وبين الدكتور دراز، فأحدهما يمنع الربا بكل أنواعه، والثانى يستبعده عن أعمال المصارف في الاستثمار والتعمير، فهى عقود استثمار تجارية بالتراضى مع كبار رجال المال في عمليات مصرفية.

ونحن لا نسلم له أن أمير المؤمنين قبل أن يجعل عمل ولديه في أموال بيت المال مَجعلَ القراض، بل هو أعطى ولديه مقابلا لعملهما بالمال، وسؤاله لهما: "أكل الجيش أسلفه أبو موسى يهدى إلى حكمه على تصرف أبى موسى معهما، وأن ما أعطاه عمر إليهما كان أجرا على عملهما".

يقول ﷺ: "القرض صدقة" لكن الدنيا تغيرت، فأصبح القرض تجارة، وتجارة في المحظورات، وأصبح الاقتصاد إلا قليلا منه خاضعا لتمويل المصارف الأوروبية – منذ القرن الماضى – ووظيفتها ربوية.

وكانت بواعث الناس للاستدانة ناشئة عن الحاجة إلى الأقوات وما إليها حتى القرن الماضى، أما البواعث لها الآن فهى العمل بالأموال وتثميرها، وقلت – أو كادت تنعدم – دواعى المشاركة ليعمل القادرون في أموال غيرهم، وأصبح المقترضون من المصارف أصحاب عقول ومواهب، أو مؤسسات تنشئ مشروعات.

وجربت أمم الإسلام سيطرة المصارف الربوية التى أدت إلى استرقاق الأوروبيين بأموالهم أهل الإسلام بديونهم، وفي القرن الماضى احتل الإنجليز مصر ليبقوا فيها سبعين عاما بدعوى طلب الديون، وبقوا فيها بعد أن سددتها مصر بعشرات السنين، ولم يخرجوا منها إلا بعد حروب.

ولقد نشأت (مصارف إسلامية) تعمل بقواعد اشتراك صاحب القرض مع العامل به، وهى تجربة لم تكتمل بعد، وربما تكاملت بعد سنين حينما يمتنع تعجيز الطرف الآخر باقتضاء "مصاريف كبيرة تعادل فوائد المصارف غير الإسلامية وقد تزيد عليها.

وشاع في التعامل البيع بالتقسيط وصار الأجل سلعة يقتدى فيها المتعاملون بحديث "ضع وتعجل" وهو غير الخصم من الديون وأجازه ابن عباس وزفر صاحب أبى حنيفة، ومنعه عبد الله بن عمر، ثم أبو حنيفة ومالك، وأجازه مالك لمن تعجل في اقتضاء دينه المؤجل.

وعمدة المجيزين ما روى عن ابن عباس: أن النبى ﷺ لما أمر بإخراج بنى النضير جاءه منهم من يقول: يا بنى الله، إنك أمرت بإخراجنا، ولنا على الناس ديون لم تحل. فقال ﷺ: "ضعوا وتعجلوا".

والحنفية لا يأخذون من مال المرابحة إلا بقدر ما مضى من أيامها حين يموت المدين قبل الأجل.

والشيخ أحمد إبراهيم يتساءل: (أليس هذا صريحاً في أن الربح مقابل الزمن؟!).

ومن المعاملات: المكافآت على الادخار، وفيها أجاز الإمام محمد عبده رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية في إشارة، وردت في كتاب عن تاريخ الجمعية، قبول تبرع لها من صندوق البريد بأرباح رفض المودعون قبولها[٢٦٢].

المبحث الثالث:

وحدة الشريعة

القرآن كلى الشريعة، والشريعة لا ينبغى لها أن تتنافى أو تتجافى تفاصيلها في داخله، وهو – تبارك وتعالى – يقول: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾[٢٦٣] ويقول: ﴿وهو العزيز الغفور الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾[٢٦٤] وآيات القرآن متطابقة ومتوافقة، لا تفاوت فيها ولا تناقض، والله يقول: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[٢٦٥].

والوحدة في القرآن حجة من حجج الله تعالى به، وهو القائل: ﴿فأقم

---

(٢٦٢) نشرنا صورة زنكوغرافية لهذه الاشارة في صفحة ٦ من الطبعة الثانية لكتابنا الإمام محمد عبده – طبعة دار المعارف.

(٢٦٣) سورة النحل الآية ٨٩

(٢٦٤) سورة الملك الآية ٢، ٣

(٢٦٥) سورة النساء الآية ٨٢

وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم...﴾[٢٦٦] و﴿ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾[٢٦٧] والقائل: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾[٢٦٨] والقائل: ﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا﴾[٢٦٩] و﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض﴾[٢٧٠].

وكل ذلك يفصح عن كمال الرسالة ومكارم الأخلاق فيها وشمولها للنشاط الإنسانى في أى وجه كان من العبادات والمعاملات. وكلما تقدم العلم زادت آيات الكتاب العزيز وضوحاً للناس، وأدرك العالم ما فيه من دلائل على أن خالق الكون ومنزل القرآن واحد، وعلى أن الذين تأدبوا بأدبه واستوعبوه رجال ربانيون فتحوا الطريق لنصر الدين بالحكمة والموعظة الحسنة. وهذه حضارة الإسلام حضارة السلام والتكافل وتقوى الله في العبادات والمعاملات.

أما الحضارات الأخرى فقد قدمت للبشرية حرب الأفيون لاستعمار الصين، والقنبلة الذرية لإخضاع اليابان، والحروب الجرثومية، وحروب الغدر والفتك والسفك في أكثر من مكان للاستعمار أو الاستعباد أو السيطرة بالأسلحة العسكرية، أو بالتخريب النفسى الذى يستثير الشهوات أو الاجتماعى الذى يدمر الشعوب، أو الاقتصادى الذى تسيطر به الدول الصناعية على مقادير العالم.

ولقد ألغت الأمم المتحدة نظام الاستعمار واستبدلت به نظاما لمساعدة الدول الفقيرة ولم يمض زمن قليل حتى استعبدت الدول الغنية الدول الفقيرة

---

(٢٦٦) سورة الروم الآية ٣٠

(٢٦٧) سورة الإسراء الآية ٧٧

(٢٦٨) سورة الفتح الأية ٢٣

(٢٦٩) سورة الكهف الآية ١

(٢٧٠) سورة فاطر الآية ١

بالديون وفوائد الديون. وتعالت الأصوات من أصحاب النوايا الحسنة فيها بفساد النظام الربوى.

وبغلبة النظام الربوى على الأمم الإسلامية انفرط العقد في داخلها أو خارجها، وهو بنص قانونها الأعلى ممحقة للبركة وأداة تفريق بين الأغنياء والفقراء، ولامرية في أن صلاح حالها لا يرد من الخارج بل هو أشكل بالترياق الذى ينبعث به الشفاء من داخلها. وما هو إلا التراحم والتكافل والتكامل بين الأفراد والجماعات، وبينهم وبين الدولة، وما عداها وبال على الدولة والأمة.

في دراسة اقتصادية للدكتور محمود وهبة(٢٧١) بعنوان (البنك الدولي في العيد الخمسين. العالم الثالث بين الامتصاص والاقتناص) تحدث عن اعتراضات دول العالم الثالث على برامج البنك الدولى وصندوق النقد وأنها (شملت دولا من جنوب أفريقية ووسطها وغرب آسيا ودولة في أمريكا الشمالية) ووصفها بأنها "ثورة صامتة".

كما وصف وزير خارجية أمريكا السابق البنك الدولى وصندوق النقد بأنهم يستبدلون بالبنادق والمدافع القروض والمعونات لفرض التبعية على العالم الثالث بأسره. وقد ارتفعت نسبة عدم دفع ديون البنك الدولي وصندوقه من ١١٪ إلى ٢٠٪ من عام ١٩٨١ إلى عام ١٩٩١م) وبهذا (يتحكمان في اقتصاديات ٨٨ دولة من دول العالم...) و(في العام الماضى بلغ حجم قروض البنك الدولي للعالم الثالث ١٦ مليار دولار، بينما بلغت تحصيلاته من نفس الدول ٢٠ مليار دولار، أى أن البنك الدولى يأخذ من العالم الثالث أكثر مما يعطيه، ويربح ٤ مليارات من هذه الدول الفقيرة في شكل أصول الديون

---

(٢٧١) أستاذ علم الإدارة بجامعات أمريكا في صحيفة الأهرام المصرية بتاريخ ١٠ أغسطس ١٩٩٤م صفحة ٩

وفوائدها.

(وفي إحصاء آخر فإن بلاد العالم الثالث دفعت ١٤٧ مليار دولار لخدمة ديونها فقط، وما زال أصل ديونها مستحقا) ويضيف (إن برامج المعونة منظمة لمصلحة العالم المتقدم على حساب العالم الثالث. لذلك تزداد الدول الثرية ثراء بينما تزداد الدول الفقيرة فقرا) ويضيف (إن منظمة خاصة مكونة من ٤٥ جمعية من جماعات حقوق الإنسان أصدرت توصيات تطالب البنك الدولى وصندوق النقد برفع يدهما عن بلاد العالم الثالث واستخدمت شعار "يكفى خمسون عاما").

المبحث الرابع:

بيانات في النقود - الفلوس - الأوزان والمكاييل الأثمان - الخراج - في الوطن العربى

النقود:

كانت أغنى بلاد الأرض بلاد المسلمين - وما زالت كذلك - والأرض في بلادنا تتكلم بالنعم ظاهرة وباطنة، ومنها المعادن التى تلمع في الجبال، وتظهر في صور الأقمار الصناعية التى يصورها غير المسلمين، وقد طالما عنيت الأمة الإسلامية بالمعادن، فضرب الخلفاء الراشدون النقود منها، وسار مسيرتهم ملوك الإسلام واستعملوا نقود الدول الأخرى.

وفي كتاب (المفصل في تاريخ الإسلام) لجواد علي: أن العرب استعملوا نقود الرومان.. (أهل بيزنطة) والإغريق (اليونان) والفرس، وأوزانهم.

والدرهم: لفظ إغريقى (دراشما أو دراخما) والدينار: لفظ رومانى (ديناريوس) والفلوس كلمة يونانية (Fallus) والدانق: كلمة فارسية وهو $\frac{1}{6}$ درهم.

والدينار من ذهب. والدرهم من فضة، وما عداهما من الفلوس يسك من معادن رخيصة. وفي صبح الأعشى عن تاريخ العرب ونقودهم أن المسلمين:

١) في حياة الرسول ﷺ كانوا يتعاملون بقطع من الذهب والفضة متباينة الشكل من المستطيل والبيضاوى، وكانت النقود فارسية ورومية، والدنانير من ذهب رومية، والدراهم فضية فارسية. والدرهم وزنه ٢٠ قيراطاً، ومنه ما وزنه ١٠ قراريط.

وكان الرطل يساوى ١٢ أوقية، والأوقية تساوى ٤٠ درهما، والنصف (أو النش): نصف أوقية، والنواة: خمسة دراهم، والدرهم ٨ دوانيق.

وفي حياة رسول الله ﷺ ضرب مسيلمة الكذاب (مدعى النبوة) دنانير.

وفي عهد أبى بكر كثرت النقود. وسك خالد بن الوليد عملة في طبرية.

وفي خلافة عمر سكت دراهم عليها نقش (الله أكبر).

وفي خلافة عثمان ضربت سنة ٢٨هـ في طبرستان نقود منقوش عليها (الله ربى).

وفي حكم معاوية ضربت دراهم.

وفي عهد عبد الله بن الزبير في مكة ضربت دراهم مدورة، كما ضرب واليه بالعراق دراهم سنة ٦٠هـ.

وفي حكم عبد الملك بن مروان أمر عماله على مصر والعراق فضربوا الدنانير والدراهم.

وضرب الحجاج دراهم من فضة منقوش عليها (قل هو الله أحد) فسميت دراهم أحدية وكرهها الناس لنقش القرآن عليها، فسميت الدراهم مصر المكروهة[٢٧٢].

(٢٧٢) ذكر القلشقشندى أن يوسف بن عمر أول من شدد في العيار إذ استخف درهما فوجدوه ينقص حبة، فأمر أن يضرب كل رجل من ضرابى العملة ألف سوط. وكانوا=

أما أول من شدد في عيار الذهب بمصر فأحمد بن بن طولون في منتصف القرن الثالث وكان يختم على العملة عند سكها. وكانوا يسمون الدنانير الذهب (قيصرية) لأن عليها صورة أمبراطور الروم، أما الدراهم فتسمى طبرية، وجاء المسلمون بها من طبرية بالشام.

ولما حكمت الدولة الفاطمية كان سك العملة من اختصاص قاضى القضاة، فكان يفوض فيها غيره.

أما الدولة الأيوبية فجعلت سك العملة وظيفة مستقلة، وتشددوا في دقة العيار، فقد كانت عملتها عملة للبحر الأبيض، وكانت الدراهم تسك من فضة ونحاس أحمر بنسبة ٣ فضة و٧ نحاس، وبعد عام ٨٠٠هـ (القرن الخامس عشر الميلادى) بطل ضرب الدراهم؛ لأن الفضة استغرقتها سروج المماليك[٢٧٣]!!.

ويروى محمد بن سعد الواقدى: أن قريشا كانت تستعمل أوزانا في الجاهلية أقرها الإسلام، وكان لهم ما يسمى (الشعيرة) وهى واحد من ستين من وزن الدرهم. أما الأوقية فوزن أربعين درهما. والنواة وزن خمسة دراهم. والمثقال عشرة دراهم، ومنه ما يزن خمسة دراهم.

ويروى الماوردى (٤٥٠هـ) أن الدرهم ٦ دوانيق، وفي كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل.

والفلوس كما يقول القلقشندى صنفان، الأول مطبوع بالسكة، والثانى غير مطبوع.

فأما المطبوع فكان في الزمن الأول إلى أواخر الدولة الناصرية في عهد حسن بن محمد ابن قلاوون، فلوس لطاف، يعتبر كل ٤٨ فلسا منها بدرهم من

=مائة فضربوا في حبة واحدة مائة ألف سوط.

(٢٧٣) أول من زيف النقود عبيد الله بن زياد والى الأمويين على العراق

النقرة على اختلاف السكة فيها ثم أحدثت في سنة ٧٥٩هـ في سلطنة حسن أيضا فلوس اشتهرت بالجدد، وزنة كل فلس منها مثقال، وكل فلس منها قيراط من الدراهم مطبوعة بالسكة السلطانية، وبطل ما عداها من الفلوس.

وكانت الدراهم توزن بالقبان، كل مائة وعشرة رطلا بالمصرى بمبلغ خمسمائة درهم..

وأما غير المطبوعة فنحاس مكسر من الأحمر والأصفر، ويعبر عنها بالعُتَق...

ثم فقدت هذه الفلوس من الديار المصرية؛ لغلو النحاس، وصار النحاس المكسور يخلط بالفلوس الجدد.

وكان المصريون يتعاملون بالقروش، وهى من فضة، الواحد فيه خمسون (مصرية) ومنها ما كان الواحد بمائة (مصرية). ويستعملون الدنانير الذهبية، والدراهم الفضية، وكانت العملة المصرية تسمى (المصارى) وهى كذلك حتى الآن في الشام ولبنان وفلسطين.

والفلوس من نحاس أو من حديد، وهى عملة زهيدة القيمة لا تستعمل في العقود، وخاصة في العقود التى تكتب مثل الشركة.

وكانت العملات تتغير، أو تزيد وتنقص لتتواءم مع المناسبات والحاجات أو السلع أو الأسعار على مدار القرن الأول.

والسكة "معيار" لا سلعة يتجر فيها الناس، فلا يجوز بيعها بزيادة في قيمتها، فالدولة تضربها لتكون أداة لأثمان السلع، لا لتباع بيع السلع.

يقول ابن رشد عن المعدن الذى تضرب منه السكة: إن الفقه مجمع على ذلك، ولو أن معاوية كان يعتبر أن الصياغة لها مقابل للصنعة يزيد عن قيمة معدنها، وقد ناقضه في ذلك علماء الصحابة في عهد عمر، وأيدهم عمر كما سلف القول.

الأثمان والمثمنات والأسعار والخراج بمصر في القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى:

أورد القلقشندى في (صبح الأعشى) بياناً عن النقود والأثمان، والمثمنات، والأسعار.

قال: الأثمان: الدنانير المسكوكة بمصر، أو ما يأتى إلى مصر من المسكوك في غيرها من الممالك وهذان ضربان:

١) الضرب الأول: ما يتعامل به وزنا كالذهب المصرى وما في معناه:

والعبرة في وزنها بالمثاقيل، ومناطها أن كل سبعة مثاقيل وزنها عشرة دراهم. والمثقال معتبر بأربعة وعشرين قيراطا. وقدر بأثنتين وسبعين حبة شعير من الشعير الوسط باتفاق العلماء - خلافاً لابن حزم فإنه قدره بأربع وثمانين حبة - على أن المثقال لم يتغير وزنه في جاهلية ولا إسلام.

وأشار إلى أن نائب السلطنة بالإسكندرية ضرب بعد عام ٧٧٠هـ دنانير زنة كل دينار منها مثقال. على الوجه منها (محمد رسول الله) وعلى الآخر (ضرب في الإسكندرية في الدولة الأشرفية شعبان بن حسن عز نصره) ثم ضرب بعد ذلك الأمير يلبغا في الدولة الناصرية دنانير زنة كل واحد منها مثقال ونصف، أو مثقالان، وربما كان نصف مثقال، أو ربع مثقال وكأنهم جعلوا نقص أوزانها كلفة ضربها.

٢) الضرب الثانى: ما يتعامل به مُعَادةَ:

وهى دنانير يؤتى بها من بلاد الفرنجة والروم، معلومة الأوزان، كل دينار منها معتبر بتسعة عشر قيراطاً ونصف قيراط من المصرى، واعتبار بصنج الفضة المصرية كل دينار زنة درهم وحبتى خروب يرجح قليلا، وهذه

الدنانير مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب باسمه، وعلى الوجه الآخر صورة بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام إلى رومية ويعبر عنها (بالإفرنتيه) جمع إفرنتى، وأصله: إفرنسى نسبة إلى إفرنسة مدينة من مدنهم وربما قيل فيها (إفرنجة) وإليها تنسب طائفة الفرنج، وهى مقرة الفرنسيس ملكهم، ويعبر عنه أيضا "بالدوكات"، وهذا الاسم لا يطلق عليه إلا إذا كان ضرب البندقية من الفرنجة، وذلك أن الملك اسمه عندهم "الدوق".

ثم ضرب الناصر فرج بن برقوق دنانير على زنة الدنانير الإفرنتية، في أحد الوجهين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وفي الآخر اسم السلطان.. وعرفت بالناصرية، وكثر وجدانها، وصار بها أكثر المعاملات، إلا أنهم ينقصونها في الأثمان عن الدنانير الإفرنتية عشرة دراهم.

ثم صرف الذهب بالديار المصرية لا يثبت على حاله، بل يعلو تارة ويهبط أخرى.. وغالب ما كان عليه صرف الدينار المصرى فيما أدركناه في التسعين وسبعمائة (٧٩٠هـ) وما حولها عشرون درهما، والإفرنتى سبعة عشر درهما وما قارب ذلك. أما الآن فقد زاد خصوصا في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة، وإن كان في الدولة الظاهرية (بيبرس) قد بلغ المصرى ثمانية وعشرين درهما ونصفا فيما رأيته في بعض التواريخ.

اما الدينار الجيشى وإنما يستعمله أهل ديوان الجيش في غيره من الإقطاعات، بأن يجعلوا لكل إقطاع عبرة من قليل أو كثير، وربما أخليت بعض الاقطاعات من العبرة، على أنه لا طائل تحتها ولا فائدة من العبرة، فربما كان متحصل مائة دينار في إقطاع أكثر من متحصل مائتى دينار فأكثر في إقطاع آخر، فالترك والأكراد والتركمان من الأجناد دينارهم كامل، والكتانية والعساقلة ومن يجرى مجراهم دينارهم نصف دينار، والعُربان في

الغالب دينارهم (ثُمن) دينار $\frac{1}{8}$، وفي عرف الناس ١٣ درهماً وثلث.

النوع الثاني:

الدراهم النقرة، ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس، وتطبع بدور الضرب بالسكة السلطانية "والعبرة" في وزنها بالدرهم، وهو معتبر بأربعة وعشرين قيراطا، وقدر بست عشرة حبة من حبوب الخروب، فتكون كل خروبتين $\frac{1}{8}$ من الدرهم، وهى أربع حبات من حب البر المعتدل.

وحجب العملة عن السوق يغلى الأثمان، والله – تعالى – يأمر بالإنفاق لييسر المعاملات على الضعفاء والفقراء والناس جميعا، وهو سبحانه يعتبر كنز المال معصية توعد من جرائها الكانزين لما للكنز من آثار على حركة الأسعار وعلى حرية السوق.

يقول – عز وجل –: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[٢٧٤].

وبالزكاة وهى تلى الصلاة في الأهمية وبالصدقات يتداول الناس النقد والسلع، ويحدث ما سمى الآن (سيولة المال) وقد نبه الرسول – ﷺ – على وجه آخر للسيولة، فأمر بالاتجار في أموال اليتامى حتى لا تأكلها الزكاة، بل أمرنا بالتمثير أمراً عاماً حتى لا تأكل الزكاة الأموال.

قال ﷺ: "من ولى يتيما له مال فليتجر فيه حتى لا تأكله الزكاة". وقال: "ثمروا أموالكم؛ فإن الزكاة تكاد تأكلها".

وزكاة النقد إذا حال عليه الحول (العام) قدرها ٢,٥٪.

---

(٢٧٤) سورة التوبة الآيتان ٣٤، ٣٥

الأوزان:

ورطلها الذى يعتبرونه في حاضرتها من القاهرة والفسطاط وما قاربهما الرطل المصرى. وهو ١٤٤ درهما، و"أوقيته" ١٢ درهما، ومنه يتفرع القنطار المصري، وهو ١٠٠ رطل..

المكيلات:

واعلم أن بمصر أقداحا مختلفة المقادير أيضا .. ولكل ناحية منها قدح مخصوص بحسب إردبها.

والمستعمل بها بالحاضرة (الفسطاط والقاهرة) القدح المصرى، وهو قدح صغير، تقديره بالوزن من الحب المعتدل ٢٣٢ درهما. (وقدروه) ٣٢,٧٦٢ حبة، وكل ستة عشر قدحا تسمى (ويبة) وكل ٩٦ قدحا تسمى (إردبا) وبنواحيها بالوجهين القبلى والبحرى أرادب متفاوتة المقدار.. الأردب في بعضها إحدى عشرة ويبة بالمصرى فأكثر.

والمكيال في الشام ١٥ مكوكا والمكوك صاع ونصف الصاع والصاع مكيال أهل المدينة.

في الأسعار:

أوسط الأسعار في غالب الأوقات أن يكون الأردب القمح ثمنه ١٥ درهما، والشعير بمثله. وبقية الحبوب على هذا الأنموذج. واللحم أقل سعره الرطل بنصف درهم، وفي الغالب أكثر من ذلك.

والدجاج يختلف سعره بحسب حاله، فجيده الطائر منه بدرهمين إلى ثلاثة، والدون منه بدرهم واحد.

والسكر: الرطل بدرهم ونصف، وربما زاد، والمكرر بدرهمين ونصف درهم.

الخراج:

جاء في قوانين الدواوين لابن مماتي أن قطعية القمح كانت ثلاثة أرادب إلى آخر سنة ٥٦٧هـ عن كل فدان (عصر صلاح الدين) ثم صارت ٢,٥ .. ومثله الشعير. والفول: ثلاثة أرادب إلى ٢,٥ ومثله الحمص والعدس والجلبان. وقطعية الكتان تختلف باختلاف البلاد. وقطعية الثوم والبصل عن كل فدان ديناران. وقطعية الترمس عن كل فدان دينار واحد وربع، وقطعية البطيخ الأخضر والأصفر واللوبيا عن كل فدان ثلاثة دنانير. وقطعية السمسم عن كل فدان دينار واحد. وقطعية القطن كذلك.

وقطعية قصب السكر عن كل فدان إن كان رأسا (لأول زرعة) خمسة دنانير، وإن كان خلفة ديناران وخمسة قراريط. وقطعية القلقاس عن كل فدان ثلاثة دنانير. وقطعية النيلة عن كل فدان ثلاثة دنانير. وقطعية الفجل عن كل فدان دينار واحد، ومثله اللفت. والخس عن كل فدان ديناران، ومثله الكرنب، والشجر والكروم يختلف باختلاف عمر الشجر.

وفي السنة الرابعة عن كل فدان ٤ دنانير. والقصب الفارسي عن كل فدان ٣ دنانير وكانت برقة جزءاً من إقليم مصر(٢٧٥).

---

(٢٧٥) ظاهر من هذا الباب أن التجارة أدخلت في الإسلام كثرة الأمم التى اعتنقته. ويظهر من المبحث الأخير استنزاف الحكام لأموال الريف والحضر بالجباية الماحقة للبركة. ولقد طالما ندرت العملة الفضية لاستعمالها في تزيين سروج المماليك، بل تركت سفن أوربة موانى مصر للخلاص من مكوسهم.

وقد أجمل الكلام عنهم د. محمد صبرى في كلمات في كتابه (مصر من عصر محمد على إلى العصور الحديثة) فقال ان الدولة الأيوبية اشترت منهم اثنتى عشرة ألفاً حوالى سنة ١٣٣٠م ومالبثت قوتهم أن تفاقمت فقتلوا آخر ملوكها في سنة ١٣٥٠ وأقاموا "دولتى المماليك" من سنة ١٣٦٠ حتى سنة ١٥١٧. وكان حكمهم في مجموعة (حكم =

....

=فوضى ودسائس وفتن داخلية. وكانت إدارتهم لا تعنى بزرع ولا ضرع. فشا الجهل. وذهب الأمن. ووقفت حركة العمران .. حدث في سنة ١٤٢٢ تعداد يستدل منه على أن عددا المدائن والقرى في القطر المصرى نقص إلى ٢١٧٠ وكان في القرن (الرابع الهجرى = العاشر الميلادى) ١٠,٠٠٠ وهذا أبلغ دليل على فساد الإدارة في عهد المماليك).

وفي سنة ١٥١٧ احتل الأتراك مصر ونقلوا أصحاب المهن إلى القسطنطينية مع خيرات مصر، وقسموا البلاد إلى ٢٤ إقليماً وعينوا على كل اقليم "سنجق" من المماليك وبقوا حتى أبادهم محمد على سنة ١٨١١ بعد هزيمة الأنجليز سنة ١٨٠٧ وكانوا يتواطئون عليه مع المماليك.

الفهارس

فهرست الآيات القرآنية

تابع فهرست الآيات القرآنية

تابع فهرست الآيات القرآنية

الآيـــــــة	الصفحة
﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾	٦٨
﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾	٦٩
﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون، فورب السموات والأرض إنه لحق مثلها أنكم تنطقون، وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾	٦٩
﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾	٦٩
﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه.. ﴾	٧٠
﴿ وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾	٧٢
﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾	٧٨
﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾	٧٨
﴿ لتبلوّن في أموالكم وفي أنفسكم ﴾	٧٩
﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم... ﴾	٧٩
﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾	٨٣
﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ﴾	٨٦
﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ﴾	٨٩
﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين... ﴾	٩١
﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾	١٨٠
﴿ ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء ﴾	١٥٤
﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾	٢٧٥
﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له .. ﴾	٢٨٥
﴿ وهو العزيز الغفور، الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾	٣٠٧
﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾	٣٠٧

تابع فهرست الآيات القرآنية

فهرست الأحاديث

تابع فهرست الأحاديث

تابع فهرست الأحاديث

تابع فهرست الأحاديث

تابع فهرست الأحاديث

تابع فهرست الأحاديث

٣- فهرست الأعلام

تابع فهرست الأعلام

تابع فهرست الأعلام

٤- فهرست البلدان

تابع فهرست البلدان

٥- فهرست الكتاب

الجزء الأول والجزء الثانى

تابع الفهرست

تابع الفهرست

تابع الفهرست

تابع الفهرست

٦ – مراجع الكتاب

١- القرآن الكريم
٢- التوارة والأنجيل
٣- مجمع البيان تفسير الطبرسى
٤- التفسير المنتخب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٥- جامع الأحاديث السيوطى
٦- إعلام الموقعين ابن القيم
٧- كتاب الصحابة محمد يوسف الكند هلوى جزءان ١ – ٢
٨ - الشرق الأدنى القديم د. عبد العزيز صالح
٩- مصر في القرآن والسنة د. أحمد عبد الحميد يوسف. دار المعارف
١٠- الفقه الإسلامي أساس التشريع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١١- نحو تشريع للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامي عبد الحليم الجندى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١٢- القرآن والمنهج العلمى المعاصر عبد الحليم الجندى – دار المعارف
١٣- في السيرة النبوية عبد الحليم الجندى – دار المعارف
١٤- أحمد بن حنبل عبد الحليم الجندى – دار المعارف
١٥- الإمام جعفر الصادق عبد الحليم الجندى – دار المعارف
١٦- تراث الإسلام ترجمة لجنة من الجامعيين
١٧- تراث الإسلام شاخت وبوزورث
١٨- العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى د. محمد بن أحمد الصالح. مقدم لمؤتمر التوحيد الإسلامي في الخرطوم
١٩- فقه السنة الشيخ سيد سابق جزء ٣
٢٠- القانون التجارى د. محمد صالح
٢١- دور الزكاة في المشكلات الاقتصادية د. يوسف القرضاوى. (قراءات في الاقتصاد الإسلامي جامعة الملك عبد العزيز)

٢٢- السوق المشتركة د. جعفر عب السلام (العدد الأول لمجلة اتحاد الجامعات الإسلامية)
٢٣- مصادر الحق في الفقه الإسلامي د. عبد الرزاق أحمد السنهورى
٢٤- عبد الرزاق السنهورى من أوراقه الشخصية د. نادية السنهورى ود. توفيق الشادى
٢٥- نظام النفقات الشيخ أحمد إبراهيم
٢٦- الاكتساب (تحقيق د. سهيل زكار) محمد بن الحسن
٢٧- الخراج لأبى يوسف
٢٨- الأموال أبى عبيد القاسم بن سلام
٢٩- التوزيع د. رفعت العوضى
٣٠- التراث الاقتصادى للمسلمين د. رفعت العوضى
٣١- أصول الاقتصاد الإسلامي أمين مصطفى عبد الله
٣٢- المسلم في عالم الاقتصاد مالك بن نبى
٣٣- الاقتصاد الإسلامي د. الجارحى (بالانجليزية) مجلة جامعة الملك عبد العزيز
٣٤- الحسبة د. محمد جعفر مجلة كلية الشريعة
٣٥- الحسبة د. عبد الحليم العينى مجلة كلية الشريعة
٣٦- أعمال المصارف د. غريب الجمال
٣٧- الأعمال المصرفية د. مصطفى المشرى
٣٨- الشبهات حول الشريعة عبد الحليم الجندي (بحث مقدم لمؤتمر الرياض ١٩٧٦)
٣٩- حقوق الإنسان في الإسلام د. عدنان الخطيب (مشروع مقدم لمجمع الفقه الإسلامي بجدة)
٤٠- حقوق الإنسان في الاسلام د. محمد رأفت السعيد (بحث مقدم لمجمع الفقه الإسلامي بجدة)
٤١- إعلان حقوق الإنسان المسلم إعلان القاهرة ١٩٩٠ لوزراء خارجية الدول الإسلامية
٤٢- أبو حنيفة عبد الحليم الجندى - دار المعارف
٤٣- الإمام الشافعى عبد الحليم الجندى - دار المعارف
٤٤- من سماحة الإسلام - وزارة الأوقاف المصرية
٤٥- من حقوق غير المسلمين - وزارة الأوقاف المصرية

٤٦- أدب القاضى للماوردى
٤٧- النبى في القرآن الكريم - فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق
٤٨- المعاهدات والمهادنات في تاريخ العرب - د. محمد عبد الغنى حسن
٤٩- أهل الذمة أسحق موسى الحسينى - (بحث بالمؤتمر التاسع لمجمع البحوث الإسلامية)
٥٠- السيرة النبوية والآثار المحمدية - محمد الزينى دحلان
٥١- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر د. سليمان عبد الرحمن الحقيل
٥٢- الإسلام كبديل السفير الألمانى مراد هوفمان (مركز الأهرام للترجمة)
٥٣- يوميات ألمانى مسلم السفير الألمانى مراد هوفمان
٥٤- الإسلام في عصر العلم د. محمد أحمد الغمراوى (مطبعة الفجالة)
٥٥- الإسلام والطب الحديث د. عبد العزيز اسماعيل
٥٦- دراسة في الكتب المقدسة في د. موريس بوكاى (طبعة دار المعارف) المعارف الحديثة
٥٧- ما أصل الإنسان د. موريس بوكاى
٥٨- الموجز في علم الأجنة د. محمد على البار.
٥٩- الإسلام والعلم د. محمد جمال الدين الفندى
٦٠- أعمال (المؤتمر العلمى الأول لإعجاز القرآن - إسلام أباد. باكستان)
٦١- أعمال (هيئة الإعجاز العلمى للقرآن والسنة بجدة)
٦٢- أعمال (الرابطة العالم الإسلامي الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد)
٦٣- أعمال (هيئة الإعجاز العلمى القرآنى بالمؤتمر المنعقد بموسكو ١٤١٤/٣/١٧هـ)
٦٤- محاضرة ولى عهد انجلترا (تشارلز) في جامعة أوكسفورد مجلة الأزهر رجب ١٤١٤هـ/ يناير ١٩٩٤م
٦٥- مجموعات مؤتمر الطب الإسلامي بالكويت.
٦٦- ﴿خلق الإنسان من علق﴾ د. رشاد الطوبى (دار المعارف)
٦٧- مذكرة الأستاذ المستشار محمد بدر المنياوى لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر عن مؤتمر السكان بالقاهرة سبتمبر سنة ١٩٩٤م

٦٨- كتاب وزارة الإعلام المصرية (الهيئة العامة للاستعلامات) عن المؤتمر الدولى للسكان

٦٩- الحضارة العربية الإسلامية - د. على الخربوطلى

٧٠- الموارد المالية في الإسلام - د. عابدين أحمد سلامة مجلة الدراسات التجارية الإسلامية

٧١- الإسلام بين الشرق والغرب - على عزت بيجوفتش

٧٢- قضايا اقتصادية مصرية معاصرة - د. عبد الرحمن يسرى أحمد

٧٣- الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي - د. محمد ابراهيم الفيومى

٧٤- نحو تقنين جنائى من الفقه الإسلامي - عبد الحليم الجندى مجلة هيئة قضايا الدولة سنة ١٨

٧٥- نظرات في فقة الفاروق عمر بن الخطاب الشيخ محمد المدنى طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

للمؤلف

١- القرآن والمنهج العلمى المعاصر	طبعة دار المعارف بالقاهرة
٢- في السيرة النبوية	طبعة دار المعارف بالقاهرة
٣- أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح	طبعة دار المعارف بالقاهرة
٤- الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول	طبعة دار المعارف
٥- مالك بن أنس إمام دار الهجرة	طبعة دار المعارف
٦- أحمد بن حنبل إمام أهل السنة	طبعة دار المعارف
٧- الإمام محمد بن عبد الوهاب أو انتصار المنهج السلفى	طبعة دار المعارف
٨- الإمام محمد عبده	طبعة دار المعارف
٩- الإمام جعفر الصادق	طبعة دار المعارف
١٠- الشريعة الإسلامية	طبعة دار المعارف
١١- الأخلاق في الاقتصاد الإسلامي	مطبعة مركز صالح عبد الله كامل - للاقتصاد الإسلامي جامعة الأزهر (١٩٩٥م)
١٢- نحو تقنين للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامي	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١٣- أئمة الفقه الإسلامي	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١٤- نجوم المحاماة في مصر وأوربا	طبعة دار المعارف
١٥- مجموعة مذكرات قضائية (جزأين)	طبعة هيئة قضايا الدولة بمصر
١٦- توحيد الأمة العربية	طبعة وزارة الثقافة - مصر
١٧- تطوير التشريعات	طبعة وزارة الثقافة - مصر
١٨- من أجل مصر (البطل أحمد عصمت)	المطبعة التجارية - مصر

أبحاث منشورة

١٩- الشبهات التى تثار حول تطبيق الشريعة - في العصر الحديث	بحث مقدم لمؤتمر الفقه الإسلامي بالرياض سنة ١٩٧٦م مجلة هيئة قضايا الدولة سنة ١٩٧٨م
٢٠- الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع	بحث مقدم لمجلس الأمة المصرى عند إعداد الدستور سنة ١٩٧١م
٢١- أثر دعوة محمد بن عبد الوهاب على الدعوات الأخرى	بحث مقدم لمؤتمر جامعة محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٩٧٩م
٢٢- نحو تقنين جديد للعقوبات من الفقه الإسلامي	بحث مقدم للمؤتمر الثامن لمجمع البحوث بالأزهر. مجلة هيئة قضايا الدولة السنة الثامنة عشرة
٢٣- تطوير التشريعات في الجمهورية العربية المتحدة	مجلة مصر المعاصرة
٢٤- نحو قانون للمعاملات من الفقه الإسلامي	بحث بالإنجليزية ألقى في احتفالات مهرجان العالم الإسلامي لندن سنة ١٩٧٦
٢٥- نحو مشروع للدستور الإسلامي	بحث ألقى في المؤتمر العالمى للعيد الألفى للأزهر (مارس ١٩٨٣) مطبوعات المؤتمر.
٢٦- بطلان التفتيش بغير إذن قضائى	مجلة المحاماة ١٩٣٣
٢٧- تصرفات السفهاء قبل الحجر	مجلة المحاماة ١٩٣٧
٢٨- التشريع العربى	كتاب الوطن العربى دار المعارف
٢٩- الملكية الفنية	مجلة مجمع الفقه الإسلامي المؤتمر الإسلامي - جدة
٣٠- بيع المتجر	مجلة مجمع الفقه الإسلامي المؤتمر الإسلامي - جدة

طبع بمطبعة

مركز صالح عبد الله كامل للاقتصاد الإسلامي

بجامعة الأزهر – مدينة نصر – القاهرة

☎ : ٢٦١٠٣٠٨ – ٢٦١٠٣١١